© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشارا التحرير: فيصل دراج، الياس خوري

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات
ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٢٥» خريف ٢٠٢٠

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab000000009090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ الذكرى والمهمات

أوراق فلسطينية

١٣ المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل ـ قراءة روائية ـ

فيصل درّاج

٢٩ معاهدات السلام العربية مع إسرائيل دراسة مقارنة

عبد الغني سلامة

٤٣ الطريق الطويل من اللاءات الثلاثة إلى الجامعة الشرق أوسطية

شذى يحيى

٥٩ سِجِلّات محكمة القدس الشَّرعيَّة: فهرستها إنجاز وطنيّ

عزيز محمود العصا

٧١ واقع الفلسطينيين في سوريا

علي بدوان

أوراق عربية

١٠١ تجربة المثقفين المصريين في مقاومة التطبيع: أكثر من أربعين عاما من الرفض

محمود الورداني

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٠٩ السلام الإقليمي أم السلام الشامل ؟ الرؤية الإسرائيلية

عليان الهندي

١٢١ قراءة في إعادة كتابة التاريخ الفلسطيني

أ.حسام أبو النصر

أوراق ثقافية

١٣٣ في مئويته ... جبرا يتحدث عن جبرا! (١٩٢٠-١٩٩٤)، يا ولد..غداً احضر دفترك وقلمك، واكتب

بديعة زيدان

١٥١ يخلف في روايته الجديدة: رواية فلسطين وإخلاص الكتابة

فيصل درّاج

١٥٧ المنسيون

ابو علاء منصور

١٦٥ مرافعة فنيّة في مواجهة الاتهامات الاستعمارية لحشائش فلسطين!

يوسف الشايب

١٧٥ نعم: الحنين يبقى كما كان من قبل

غابرييل غارسيا ماركيز

١٨٣ «الجرائد في القطر المصري» عام ١٨٩٨: أكثر من ٥٠ مطبوعة تشهد على النهضة والأخطاء اللغوية

سعد القرش

أوراق المؤسسة

١٩٧ تقرير عن عمل مؤسسة ياسر عرفات

الذكرى والمهمات

عندما كان هذا العدد من المجلة ماثلا للطباعة وافق ذلك أحداث تستحق التوقف عندها، ولها دلالاتها وصلاتها بالقضية الفلسطينية.

الحدث الأول: مرور الذكرى السادسة عشرة لرحيل القائد والزعيم المؤسس للثورة والحركة الوطنية الفلسطينية ياسر عرفات، واحتفاء الشعب الفلسطيني بهذه الذكرى بما لها من دروس في إحياء بطولة القيم واستخلاص العبر، واستعادة روح البذل والفداء واستنفار كل عناصر القوّة فينا، والتمسك بكل الثوابت الوطنية، ومواصلة السير في دروب الحريّة لإحقاق الحقوق الوطنية غير القابلة للتصرف في العودة وتقرير المصير، وتجسيد قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

لقد احتفل الشعب الفلسطيني بذكرى رحيل الرئيس عرفات في الوطن والشتات، فذكراه تزهر في كل الفصول، وذكراه توحدنا وتجمعنا وتجدّد قيم وروح الثورة والانتفاضة، وتوسع فسحة الأمل، وتبشّر ببزوغ النور في نهاية النفق.

ورافق الاحتفالات الشعبية بهذه المناسبة ، إقامة مؤسسة ياسر عرفات ومجلس إدارتها احتفالا مركزيا على نظام زووم انطلاقا من قصر رام الله الثقافي، تم فيه القاء كلمات من قبل رئيس مجلس الإدارة د .ناصر القدوة ، ورئيس مجلس الوزراء د. محمد اشتية ،وعدد من أعضاء مجلس الادارة العرب.

كما تم الاعلان عن نتائج الفوز بجائزة ياسر عرفات للإنجاز التي تمنح لتشجيع الابداع

والأعمال الجادة والمميزة في مجالات العمل الوطني والاجتماعي والثقافي.

وفاز هذا العام بالجائزة كل من القائد الوطني التاريخي فاروق القدومي مؤسس الدبلوماسية الفلسطينية، والقائد الوطني نايف حواتمة الأمين العام للجبهة الديموقراطية. كما عُرض في المناسبة شريط وثائقي، وأغانٍ وطنية.

الحدث الثاني : الانتخابات الرئاسية الأميركية.

شغلت الانتخابات الرئاسية الأميركية متابعة واهتمام شعبنا الفلسطيني ،وأمتنا العربية، والعالم أجمع ، وما زالت حتى صدور هذا العدد تحظى باهتمام عالمي غير مسبوق وسط أسئلة عن حاضر ومستقبل ما يسمى بالديموقراطية الأميركية، وعمليات فريق الرئيس ترامب في رفع الدعاوى أمام القضاء ،وعدم التسليم بالهزيمة ،ووضع العراقيل في طريق وصول الفائز جو بايدن لتسلّم مهامه.

لقد سئم العالم من السياسات التي انتهجها الرئيس الأميركي دونالد ترامب ، والتي ألحقت أفدح الأضرار ،بالقانون الدولي والعلاقات الدولية، وبمؤسسات الأمم المتحدة، وبالمشهد الاقتصادي العالمي ،وسياساته الرعناء الأخرى، ومنها سياساته في ما يتعلق بالشرق الأوسط ، وما يتعلق بالقضية الفلسطينية ،ومحاولاته فرض ما سمي بصفقة القرن الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية ضاربا عرض الحائط بقرارات الشرعية الدولية ،والقانون الدولي.

إنّ ما يسمى بالديموقراطية الأميركية تبدو على مفترق طرق، فمن جهة يواصل ترامب سلوك قطّاع الطرق ، وإصراره على أنّ الحزب الديموقراطي قد زوّر الانتخابات ، وانّه هو الفائز، ولا يعترف بهزيمته ،وأنه من نجح وسيكون رئيسا لدوره ثانية.

ويبدو جو بايدن وحزبه الديموقراطي في حالة من الارتباك، على الرغم من فوزه، وحصوله على ٣٠٦ أصوات في المجمع الانتخابي في حين حصل ترامب على ٢٣٢ صوتا.

لذلك سيبقى الأمر ملتبسا إلى حين اجتماع المجمع الانتخابي ،ويحسم فوز بايدن أو تحدث مفاجآت يتساوى بها الطرفان ، وينتقل الأمر إلى مجلس النواب .

ومهما يكن من أمر فإنّ رحيل ترامب عن الرئاسة مطلب أكثرية أميركية ورغبة دولية ، لما فعله من سياسات عدوانية الحقت أفدح الأضرار بالقانون الدولي ،والاقتصاد العالمي، ومنظومة الأمم المتحدة والمس بمؤسساتها الصحية والإغاثية ، والعبث في منطقة الشرق الأوسط خارقا القانون الدولي ،بالانحياز الفظ للاحتلال الإسرائيلي من خلال ما سمي بصفقة القرن الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية، ومن خلال الضغط على بعض الدول الخليجية من أجل التطبيع مع الاحتلال الإسرائيلي .

رحيل ترامب هام بالنسبة للشعب الفلسطيني ، فرحيله يعني رحيل وانتهاء ما سمي بصفقة القرن ،وننتظر ما يمكن أن تأتي به سياسة بايدن وما يمكن ان يسفر عنها.

***

يتعيّن ان نستكمل استعدادنا برسم السياسات التي تعزز صمودنا ، ونستنهض كل عناصر القوة في روح شعبنا في الوطن والشتات، ونجسّد الوحدة الفلسطينية دون إبطاء ،ونضع موضع التطبيق العملي المقاومة الشعبية السلمية، ونذهب الى الانتخابات التشريعية والرئاسية والمجلس الوطني، فتجديد الشرعية يعني تجديد القيادة الفلسطينية، وتجديد الديموقراطية ،ومخاطبة العالم انطلاقا من بطولة القيم، وتعزيز عدالة القضية الفلسطينية في القانون الدولي والشرعية الدولية.

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل
ـ قراءة روائية ـ

د. فيصل درّاج*

أنطق الفلسطينيون نكبتهم الكبرى ـ ١٩٤٨ ـ بأجناس كتابية متعددة، تضمّنت المذكرات الشخصية والمعالجة التاريخية المباشرة والشعر و"علم اجتماع سكان فلسطين المحتلة"، والركون إلى التاريخ الشفوي، الذي يستنطق جيلاً من الفلسطينيين في طريقه إلى الأفول. أراد هذا التعبير، في أشكاله المتنوعة، أن يكون ذاكرة تخبر الأحفاد عما عاشه أجدادهم وما انتهوا إليه، وسعى، أحياناً، أن يكون تاريخاً موثّقاً يسجل سلب الأرض وكفاح أصحابها قبل أن يستقرّوا في الخيبة والخسران. انطوت الذاكرة ـ التاريخ على هوية فلسطينية امتدت في أرض سليبة، عطف عليها الإرهاب الصهيوني أبعاداً لا سبيل إلى زوالها.

أنجز الفلسطيني منار هـ نحول ـ ٢٠٢٠ ـ كتاباً عنوانه: المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل ـ تاريخ روائي ١٩٤٨ ـ ٢٠١٠. لا يثير الكتاب الفضول في شقّه الأول، فوضع الفلسطينيين الباقين في أرضهم يشتق من عنصرية الدولة الصهيونية، قبل أن يأتي من "أحوال اللاجئين في أرضهم"، يتيح الشق الثاني فضولاً أكثر وضوحاً، ذلك أن روايات المهزومين سجل مكتوب لما عاشوه قبل الهزيمة وبعدها، أقرب إلى الوثائق التاريخية منها إلى الرواية، لولا تلك "الرقابة الذاتية"، التي تحذف كلاماً وتترك غيره معلقاً في الهواء، مشيرة إلى متخيّل محاصر، يتداخل فيه الواقع

* كاتب وناقد - فلسطين

والصمت في آن. لذلك لا تعطي "الرواية" في العقد الأول، الذي تلا الاحتلال الاستيطاني، معرفة غير متوقعة، وفي الرواية، نظرياً، شكل معرفي، وتكتفي بمعرفة محدودة مرجعها الكلمات المطموسة، التي لا يجرؤ المحاصرون الخائفون على الجهر بها.

هوية الإنسان المغلوب:

أعلنت الحداثة الفلسطينية، في شكلها الأكثر تقدماً، عن إنسان مركزه في ذاته، لا ينفصل عن التاريخ والعلاقات الاجتماعية المتبدّلة، التي تحيل على وعي مستمر يوحّد بين الماضي والحاضر معاً. اعتمدت هوية الإنسان الذاتية، في هذا التصوّر، على ذاكرة تساوق ما تعيشه وتسائله وتدرك، بعد حين، ما كسبته وما خسرته، وتعي وجوه الكسب وأسباب الخسارة. تتطلع إلى مراكمة الكسب وتفادي الخسارة، كما لو كان في الذاكرة المتسائلة ما ينوس بين المكافأة والعقاب الضروري.

تلبّي الكلمات السابقة، إنساناً لم تضربه كارثة واحتفظ بزمنه التاريخي موحداً، ولا تلائم فلسطينياً عرف "نكبة" مزّقت تاريخه وعلاقاته الاجتماعية. فهوية الفلسطيني اللاجئ في أرضه سقطت منها: الاستمرارية التاريخية، داخلها وضوح ماض عاشت ثقافته، والتباس حاضر لم تدرِ، في البداية، إلى أين يسير. حمل اللاجئ الفلسطيني هوية منقسمة زمانياً، أطاح الاحتلال ببعدها الماضي، وترك حاضرها مفتوحاً على احتمالات لا يراهن عليها. توطّد الانقسام الزمني بآخر ثقافي، نقل الفلسطيني من عمله في أرضه، وهو الفلاح تعريفاً، إلى "المصنع الإسرائيلي" الذي يمحو العفوية القديمة، ويأمر بـ"النظام" والانصياع. دخل جدل المكافأة والعقاب إلى حيّز معتم، فالفلسطيني خسر أرضه مرغماً، قاتل من بدايات وعد بلفور ١٩١٨ ـ الاستعمار البريطاني وقوى صهيونية مسلّحة جيدة التنظيم. تكشّفت هوية اللاجئ في مأساة: الاعتراف، حيث الدولة اليهودية الوليدة تعترف بـ"عرب" تبقوّا في فلسطين، و"الفلسطيني المتبقي" كيان وليد هجين، لا هو بالفلسطيني الذي كانه قبل ١٩٤٨، ولا هو بالإسرائيلي الواضح النصر والحقوق. اختصر المهزوم في صيغة إسرائيلية تسكنها المفارقة:

الحاضر ـ الغائب؛ إذ الفلسطيني الذي رفض الفرار حاضر بجسده، وغائب مع أرضه الغائبة، التي أصبحت من "ممتلكات الدولة".

تراكم الانقسام في هوية مهزومة، عربية بلا نعت فلسطيني، انضوت فيها أقلية كانت أغلبية تتحكّم بأقدارها أغلبية كانت أقلية. ترجمت العلاقة بين الطرفين الفرق بين منتصر مرجعه "شعب الله المختار"، ومهزوم انتسب إلى عروبة غير منتصرة، وما فرق اللغة بينهما إلا الفرق بين الحداثة، التي جاءت بالتفوّق داخل الحرب وخارجها، والتخلّف ـ وهي مقولة مضطربة ـ المستظهر، عارياً، في انتصارات أنجزتها دولة ظفرت بأرض خاصة باليهود وحدهم، وأخذت اسماً يوطّد بعدها الديني وغدت: دولة إسرائيل.

عانى "عرب إسرائيل" ضروباً من التمييز العنصري، قبل أن يقتربوا من صفة "المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل"، التي أقام منار هـ مخول دراسة تسمح للصفة بهوية ثنائية النقص إذ لا هوية، نظرياً، لمن لا أرض له، ولا هوية لإنسان غير يهودي يعيش فوق أرض تخص اليهود وحدهم. تبدو الهوية، في الحالين، قسرية، مصطنعة لغوياً، قَبِل بها الفلسطينيون بعد أن انقشع وهمهم، وأدركوا أن "العودة إلى فلسطين القديمة" باتت مستحيلة. أصبح الفلسطيني المهزوم "مواطناً عربياً في إسرائيل" كما لو أن تغييب فلسطينيته شرط مواطنته، وجزئية مواطنته شرط وجودها؛ لأن المواطنة السويّة، أو المتعارف عليها، تتضمن تساوي الحقوق والواجبات بين المواطنين، وهو ما يتعارض مع صهيونية عنصرية كاملة التسلّح.

يستدعي موضوع مقابلة العرب لليهود ثقافتين مختلفتين، وتضيف إليهما ثنائية الاستقلال والاحتلال بُعد "القوة"، فاحتلال أقدار الضعيف منهما ترجمة لإرادة القوي المسلّح، الذي يحاصر ثقافة آخر انهزم أمامه: تكون القوة حاضرة في لقاء كل ثقافتين، ويزداد حضورها إن كانت إحدى الثقافتين تمتلك قواعد اقتصادية وعسكرية "أكثر تطوّراً"، كما يقول جورج لارين، و"حيث ما وجد كان هناك صراع غير متكافئ القوى بين ثقافات مختلفة، أكان عن طريق الغزو أو الاستعمار، أو وسائل اتصال واسعة الأبعاد، فإن الهوية الثقافية تسارع إلى الظهور" ( ). ينطبق قول "لارين" على وضع ثقافة فلسطينية، أقل "تطوّراً" من ثقافة مغايرة

"هزمتها"، ويقع عليه "إرباك" جاءت به استثنائية الوضع الفلسطيني، ذلك أن الطرد والخوف والمصادرة أصمتت "الهوية الثقافية" وخنقت صوتها، ولو إلى حين. فإذا كان الاستعمار الكلاسيكي يصيّر الثقافة الوطنية قوة صدامية متصاعدة، فإن الاستعمار الاستيطاني، في شكله الصهيوني، أجبر شعباً بكامله على الخروج، تبقّت منه أقلية عالجها المحتلون بأساليب الترويع والمصادرة المختلفة، استبقت "هوية معتقلة"، أفضى بها عقد من الصبر والمعاناة إلى "مواطنة مجزوءة"، سردت أحوالها "رواية فلسطينية" تكوّنت بين ١٩٤٨ و١٩٦٧.

رواية وثيقة ذاتية المراقبة:

في مدخل جزئي عنوانه: "الحذر والتكيّف في السنوات الأولى"، يشير الباحث منار إلى روايتين نُشرتا عامي ١٩٥٨ , ١٩٥٩، ربما يكون في كلمتي "الحذر والتكيّف" ما يضيء رسالة كتابة أملتها الفجيعة، تسرد ما تقدر على سرده وتتقي العقاب. الرواية الأولى هي: "مذكّرات لاجئ أو حيفا في المعركة"، التي تعطف وضع اللجوء، وهو محمّل بالسلب والإساءة إلى الأنا على كلمة المعركة، التي خاضها الفلسطينيون قبل أن "يلجأوا". ما يلفت النظر ماثل في تعبير "مذكرّات لاجئ"، التي تتوزّع على عنف التاريخ ومأساة الإنسان، ذلك أن في "المذكّرات" سرد وقائع معيشة، ما يعطي السارد موقع المؤرخ الفعلي قبل أن يعطيه ما تبقى من صفة الروائي، بل إن العودة إلى "تاريخ سقوط حيفا"، كما يشير مخول، يكشف عن ذاكرة مؤرخ لا عن متخيل روائي.

تتعيّن الرواية، التي أعقبت النكبة، وثيقة وطنية وثقافية الهدف، سجّلت، من ناحية، استباحة حيفا ونهبها، والهول الذي عاشته وهي تقاوم، بسلاح محدود، القوات الصهيونية، وأرادت أن تكون، من ناحية ثانية، واقعة على الأجيال القادمة ألاّ تنساها، بلغة المؤلف، وأن تضيفها إلى وقائع أخرى، زامنتها، أو جاءت بعدها، وتبني منها ذاكرة وطنية. ولعل حرصه على تسجيل دلالة النكبة هو ما أملى عليه أن يذكر عدد الحيفاويين الذين طردوا من مدينتهم (٧٠,٠٠٠) والذي كشف عن عمق المأساة بنسق من المترادفات: الحالك، البربري، النكبة،

الاجتياح، المحنة، المصاعب، الويلات، الدمار، الخراب والإبادة. أقنع المؤلف روايته بعنوانها، وابتعد عن العنوان وسجّل وقائع الكارثة من وجهة نظر فلسطينية، وعهد بها إلى ذاكرة لا تنسى الوطن، ولا طريقة ذبحه.

وإذا كان لـ"التكيّف" زمنه الغامض، فإن حذر المؤلف تكشّف بأكثر من إشارة: ذكر أن روايته تعبير عن "موقف شخصي" حرّضه على الإعلان عن "حرية التعبير" التي ينعم بها في إسرائيل، وأمله أن السلطات الإسرائيلية تشارك فولتير رأيه بالالتزام بالحرية، وأن غرض روايته تسجيل "رحيل" الفلسطينيين، وأنه "يرجو" أن تقبل إسرائيل بنقده للفظائع التي حصلت في عام النكبة،... لم تقترب كتابته من طريقة التعبير بـ"الحيلة"، التي يلجأ إليها الذين يحاذرون السلطة، وصف دمار حيفا كاملاً كالمؤرخين، وانخرط في سرد "بعض الكلام"، طارحاً سؤالاً ممضاً: هل يستطيع المستضعف أن يواجه بالحق عدوه؟

سردت الرواية الثانية "بت هون" أحوال الفلسطينيين في زمن الأحكام العسكرية العرفية المطبقة عليهم إبّان النكبة وما تلاها. في تعبير "بت هون"، المألوفة على لسان المضطهدين، ما يشكو من حاضر انتظر الفرج. بعد أن مرّ على النكبة أحد عشر عاماً، اختار الروائي مدينة الناصرة، وتاجر ماشية تنقله مهنته من مكان "فلسطيني" إلى "آخر" يعكس وجهه مخاوفهم في مناطقهم المراقبة، وتعرض تنقلاته وجوه وجودهم المحاصر.

استهل الروائي عمله بمقدمة ثنائية الهدف: إشعار الفلسطينيين المحاصرين برواية تحكي مآسيهم وقلقهم من مستقل غامض، لا يوحي بالراحة، وسؤال الإسرائيليين تخفيف الإجراءات المعوّقة لمعيش "الناس". يتكشّف "انضباط المحكوم" في أسلوب يحجب هويته ويتناسى ماضيه القريب، كما لو كان قبول الحال ـ المعلن عن الولاء للدولة، يفصح عن ذاته في "ضعف الكلام"، فلا مجال للحديث عن محتلين و"محتل" استعيض عنه بمفردة "العرب"، وتأخذ كلمة "الأهالي" مكان الفلسطينيين، ويرفد اسم فلسطيني تحت مسمى "البلاد"، وتختصر مآسي النكبة في "الأحداث الدامية" أو "الكفاح العربي"، يتلوهما "رحيل عرب فلسطينيين". فإذا مرت كلمة فلسطين، سهواً ربما، أشارت إلى حيّز جغرافي مطموس الدلالة السياسية.

إذا كانت اللغة إعلاناً عن الهوية، فإن لغة مبتورة آية على هوية "طي الكتمان"، تتوسل الاعتراف من هوية مغايرة مشبعة بالانتصار، يذيب السارد حضور الاحتلال في إناء "التمييز العنصري" بين أفراد المجتمع الإسرائيلي، مصرّحاً، ضمناً، بالاعتراف بشرعية الدولة، وبحق جميع "مواطنيها" في بنائها. يتضمن "خطاب القبول" التمييز بين الفلسطينيين خارج "الدولة" وداخلها، مقترباً من "انقسام الهوية"، الذي لن يستعيد لغة صحيحة إلا بعد أربعة عقود، حيث لن تبدو صفة الفلسطيني "تجاوزاً" لا يسمح به القانون.....

صرّحت روايتا "مذكرات لاجئ، و"بت هون" عن وقائع "بدت ملتبسة" في فترة، وانتقلت من الالتباس إلى الوضوح في حقبة لاحقة: لا وجود لهوية ثابتة عصية على التحوّل، فهي ظاهرة حياتية تتأثر بالبيئة ونمط الحياة، وتخضع بمقادير مختلفة إلى "القوة وميزان القوى"، ولعل التمييز بين الفلسطينيين الأصليين، الذين بقوا في أرضهم، والآخرين الذين انتثروا في المنافي، مدخل لواقع مأساوي متناتج عنوانه، الهوية الفلسطينية الشتاتية، التي يتداخل فيها المفرد والمتعدد؛ إذ "المفرد" ماثل في ما كان، في فلسطين السابقة على النكبة، والمتعدد أقدار فلسطينية غير متكافئة.

استمرت الهوية الفلسطينية مثقلة بالمفارقات، اخترقها أكثر من بيئة وثقافة ورفض وقبول، واستقرّت في صيغة مفتوحة على المستقبل، مرآتها، هوية الانتماء الموروث المضطربة، ذلك أن الهوية الفاعلة تصنع ولا تورّث.

روايات التحديث الإسرائيلي

أخذت رواية الفلسطينيين "المواطنين في إسرائيل" شكل حكاية أحادية النهاية قوامها "التكيّف والحذر". استمر الحذر والتكيّف بأقساط متغايرة، لم يرجع الفلسطينيون إلى ما كانوا عليه، واصطدم انتظارهم بأكثر من خيبة أمل، وأملى غياب الأفق على التكيّف، أن يمدّد أطرافه، فالاحتكاك بالإسرائيليين ضرورة حياتية لا طواعية فيها.

دعا منار هـ مخول دخول الفلسطينيين إلى المجتمع الإسرائيلي، بعد عقد من الاحتلال، "حقبة

التحديث"، وقرأها في ست روايات، رصدت آثار ثقافة حداثية منتصرة على فلسطينيين صودرت أراضيهم، واحتفظوا بقيم قراهم المبتورة الحركة. لن يترجم التحديث مهمة إسرائيل التحضيرية المزعومة، إلا إذا اعتبر الاحتلال في ذاته فعلاً حداثياً، إنما سيشرح بشكل آخر تلعثم المغلوب أمام المنتصر. ولهذا، فإن لجوء المؤلف إلى تعبير "صدمة الحداثة"، المأخوذ من أدونيس، لا معنى له، ذلك أن اللاجئ في أرضه أصمته قهره، قبل أن يسائل التحديث الإسرائيلي، الذي هو انتصار في شكل آخر. كانت في "صدمته" أشياء من الاضطراب ومساءلة "العادات" التي تصمد طويلاً قبل أن تراجع ذاتها.

لن تكون الصدمة المفترضة، مهما تكن أشكالها، أكثر من تناقضات العقلية الشرقية والغربية، التي تحدّث عنها المستعمرون طويلاً، المتمثلة في الفرق بين العقلاني واللاعقلاني، والعلمي والأسطوري، ثقافة المختبر والمصنع، وثقافة الحياة الزراعية، وممارسات المجتمع الأبوي الطاردة للفردية والخيار الفردي، وقد أضيف إليها جميعاً سيطرة مسلّحة تنظر إلى المستقبل.

لا غرابة أن تحدّث الرواية الأولى "وبقيت سميرة" ـ ١٩٦٢ ـ عن "أولاد القرية"، التي هي الترجمة الإنجليزية المفترضة "لأولاد البلد" التي هي قرية من الجليل. انتهى مؤلف الرواية إلى خطاب سياسي اجتماعي، متوسلاً لغة حذرة تتاخم "الامّحاء الذاتي"، كأن تأخذ النكبة صفة "الزوبعة" المنسوبة إلى الطبيعة المبرأة من السياسة، وأن تلوذ الشخصية الأساسية بـ"السلامة الذاتية"، التي لا ترى سبباً للموت "دفاعاً عن حيفا"، وأن تؤثر الرحيل، إلى لبنان، وأن تنقد صورة المرأة في المجتمع الفلسطيني،...

أرجع الباحث مخوّل أهمية هذه الرواية إلى دورها في "تبيان تحوّلات الخطاب الفلسطيني في تلك الفترة..."، ولقاء "ابن القرية" مع "ابن الكيبوتس"، ومع أنه اعتبر أن الرواية أضاءت، قبل كل شيء، اضطراب وقلق الشطر الفلسطيني كمحصلة للاختلاف الاجتماعي والثقافي بين الفلسطينيين والإسرائيليين، فإنه لم يتوقف، بالضرورة، أمام اضطراب نظر الروائي، أكان قد قبض على موضوعه أم أفلت منه، بشكل أو بآخر؛ أو لنقل: ألا يمكن أن يكون النظر الروائي إلى القرية قروياً بدوره؟

وسّع الباحث مجاله برواية أخرى "قلب في قرية" ـ ١٩٦٣، تصف تأثير الكيبوتس على العامل القروي بتبسيط يثير السخرية، كما لو كان الأول خالقاً رحيماً يعيد تخليق القروي الفلسطيني، ويرمي عليه بالنعمة والأمان. فالكيبوتس، كما جاء على لسان القروي، الذي كان مجرماً وقاطع طريق، صورة عن "اليد الإلهية"، تمد القروي بـ"النعمة والرفاهية". غدا "المجرم السابق" داعية للحضارة، يتعامل مع المجتمع الفلسطيني بصور سلبية متنوعة: الفقير، المتخلّف، البدائي، المثقل بالخلافات، وكل ما يجعله عاجزاً عن المساهمة في بناء البلاد.

أنتج كاتب "قلب في قرية" خطاباً أيديولوجياً خاضعاً، يبارك الفرق بين القرية والكيبوتس، ويعيّن الأخير معادياً إلى التمدن والتحديث، وواقع الأمر، ومهما تكن نواياه، وهي مؤذية في التحديد الأخير، أنه انطلق من خطاب أيديولوجي هامشي الأهمية، أسكن بؤرة روايته فرداً مرذولاً، أعاد الإسرائيليون خلقه بشكل مغاير، فرداً أنتجته القرية المشبعة بالسلب، وعجزت عن تأديبه، واعتبر زوال القرية أمراً "صحياً" فلسطينياً، ناسياً أو متناسياً أن إزالة القرية الفلسطينية، في تاريخها الكفاحي، مطلب إسرائيلي اجتهدت فيه إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ إلى اليوم. جمّل الهوية الخاضعة، التي هي في الشرط الفلسطيني المشار إليه، ليست هوية على الإطلاق، تلك الهوية التي تلفظها تقاليد القرية "المتخلّفة"، وترى فيها مروقاً لا يمكن التساهل معه.

أراد منار، في بحثه المنهجي الموضوعي، أن يقرأ تحوّلات الهوية الفلسطينية في فترة تعرّف الفلسطينيين على نمط الحياة الإسرائيلي، واختار روايات مختلفة، لا تقدس اللاجئين في أرضهم ولا تلعنهم. طرح في مقاربته الموضوعية دلالة الكتابة الروائية، التي تعطي شكلاً محدداً من المعرفة، التي إن سقطت في التبسيط الساذج تحوّلت إلى حكاية قاصرة تنتزع، بلا موهبته، صفة: الرواية. فوفقاً لمنطق رواية المضطهدين، يكون بين المحتل بالمحتَل صراع له شكل القانون، يحجبه الثاني بالمكر والمخادعة، كحالات روايات أفريقية، أو بشكل أقرب رواية إميل حبيبي "المتشائل"، الذي أخفت قهقهته المتطايرة قهره الكظيم. اطمأنت رواية "قلب في القرية"، مهما تكن مقاصدها، إلى منهج: الامتهان الذاتي المفعم بالغبطة، وقرأت

في "التحديث" حتمية يصعب نقضها، مفترضة، بسذاجة، أن تحديث الفلسطينيين غاية إسرائيلية، تصيّر مجرماً سابقاً "داعية مهمته إنسانية".

واجه الباحث منار هـ مخوّل الرواية الساذجة برواية لاحقة عنوانها: "في انتظار الفجر" ـ ١٩٧٥ ـ عاقبت بدورها "التحديث" الصادر عن الكيبوتس وأثره على "أهل البلاد"، منتهية إلى نتيجة أخرى: "الحزب الذي دعانا ـ والمقصود بذلك حزب المابام ـ إلى المشاركة في إنقاذ جماعتنا، كان بحاجة إلى القبول بنا كأعضاء، وحين تم إقناعه استبقى لنا حيّزاً خاصاً بالعرب..". أعاد "حيّز العرب" إنتاج نفسه في الكيبوتس، الذي طلب من العرب العاملين فيه العودة إلى قراهم ليسهموا في "إنقاذها"، ليعلّموها ما تعلموه من القيم الصهيونية الحداثية. أعلن المعتقد "الكيبوتسي" العنصري عن ذاته مرتين: مرة أولى في إقصاء العرب بحجة "رسالتهم الحضارية" في قراهم، وثانية في "الإنقاذ" الذي يحتاجه فلسطينيون لا يعرفون إنقاذ أنفسهم.

يتكشّف المتبقي العربي في وطنه وجوداً غريباً، ما يقيم مسافة بينه وبين اليهود ـ المواطنين الأقحاح ـ وما يطمس، كلياً، علاقته بـ"أرض الميعاد"، فلو كان يرتبط بها لما رأى فيه اليهود وجوداً غريباً. هكذا يكون الفلسطيني مواطناً في إسرائيل، ولا يكون في آن. له مواطنة شكلانية تبرهن للعالم أن إسرائيل بلد ديمقراطي، ومواطنة مستحيلة تسوّغها أرض يهودية خالصة، وفرق أيديولوجي لا يحتاج إلى تسويغ، ذلك أن "العرب" غريبون عن حداثة إسرائيلية ـ غربية تآلفت مع التقدم و"عصر التنوير". والمحصلة مواطنة زائفة ومساواة لا وجود لها، وإقصاء للفلسطينيين عن حقوق المواطنة والمساواة. هذا إلا إذا كانوا سذّجاً، وقبلوا أن يقايضوا هويتهم المحاصرة بهوية ساخرة عنوانها: الأسْرلة؛ أي أن يرى الفلسطيني نفسه مواطناً في مجتمع إسرائيلي، يقصيه خارجاً.

تترجم مواطنة العربي في إسرائيل سخرية سوداء، كما أشار السيد الباحث، مستشهداً بغيره، فإشارات الدولة الصهيونية جميعها قائمة على إلغاء الفلسطيني: الذاكرة التاريخية، المنهج المدرسي، أسماء الشوارع والساحات، اللغة، والأناشيد، ووظائف الدولة، والمناسبات الرسمية، والسياسة الإعلامية، والنصب التذكارية،..... أطلال القرى العربية، والأطلال التي قامت فوقها

بلدات جديدة. كل ما هو إسرائيلي يطمس الفلسطيني جسداً ولغة، ويؤكده لاجئاً "داخلياً" في إسرائيل.

اجتهد منار هـ مخول في تحليل "روايات التحديث"، التي كتبت في ستينات القرن الماضي بخاصة، التي داخلتها سذاجات فكرية تمسّكت، إلى حدود المغالاة، بثنائية التكيّف والمراقبة الذاتية، وطّدها مبدأ المغلوب الذي يحاكي المنتصر. وصلت هذه الروايات، بأقساط مختلفة، إلى نتائج يتمازج فيها الساخر بالمأساوي، كأن يتم إغفال "النكبة" طمعاً بالاندماج في المجتمع الإسرائيلي، الذي لا يستقيم إلا بتعايش لا ضغينة فيه، أو القول بأن الفلسطينيين مسؤولون عن تخلّف ذاتي، سوّغ انتصار اليهود على غيرهم، وأن قبولهم إسرائيلياً يستوجب تمثّل الدروس الإسرائيلية في العمل والتنظيم، وأن التسلّح بذاكرة حداثية جديدة يستلزم نسيان ما مضى، وأن الشأن الحياتي الموعود بالنعمة يقضي بنسيان واقع الاحتلال.

حافظت رواية الخمسينات على ذاكرة وطنية، مرجعها فلسطين محتلة وأخرى محتملة، على خلاف بعض روايات الستينات التي همّشت ثنائية المنتصر والمهزوم، واستعاضت عنها بثنائية: التقدّم والتخلّف، وتركت، تالياً، سؤال الهوية متطايراً في الهواء؛ كما لو كان "التحديث" نقيضاً للهوية يوجب نسيانها أو التخلي عنها.

أوغلت تلك الروايات، أو بعضها، في نقد التقاليد، وواجهت "العقلية القديمة بعقلية متقدمة"، منطلقة من ثنائية: القرية/ الكيبوتس؛ إذ الأولى تخلّف والآخر تحديث، ولعل "الوعي المنحني" الذي كان يخز دواخل هؤلاء "الروائيين" هو الذي دفعهم، غالباً، إلى كتابة مقدمات لأعمالهم، تشي باعتذار مهموس.

قرأ المؤلف روايات "التحديث والتخلّف" في "حب بلا غد" ١٩٦٢، و"الليل والحدود" ١٩٦٤، حيث في خطاب التحديث ما ينفي الانتساب القومي، ويمحو الكيانية الفلسطينية.

استظهر الوهم الروائي عارياً في عمل عطا الله منصور: "في ضوء جديد" ـ ١٩٦٦ ـ الرواية الفلسطينية الأولى المكتوبة باللغة العبرية، التي نسي صاحبها أن اللغة عنصر مسيطر في الهوية القومية، وفقاً لاجتهاد ساطع الحصري، رائد الفكرة القومية العربية الحديثة. الطريف أن

الرؤية "المتعبرنة" مستقاة من تجربة فعلية في "كيبوتس"، يطبّق معايير مجتمعه الإسرائيلي. واجه منار هـ مخوّل رؤية الوهم بسيرة ذاتية للصحفي فوزي الأسمر، الذي عرض بدوره تجربة الكيبوتس في حكاية موازية، وأخبر في "أن تكون عربياً في إسرائيل" ـ ١٩٧٥ ـ أنّ العربيّ غير مرحّب به، حتى لو أتقن العبرية و "صاهر المتحدّثين بها".

واجه عطا الله منصور "واقع التخلّف العربي" بوعي أكثر تخلّفاً، مذكّراً بدين الفقراء عند ماركس الشاب الذي يستنكر البؤس بوعي أكثر بؤساً، يوطّد الفقر ويدع أسبابه مجهولة. تتراءى القرية الفلسطينية في الوعي المغترب "مهجورة"، لا بسبب الإجراءات التعسّفية الإسرائيلية، فالمغترب إسرائيلياً يقطع مع "العقلية المتخلّفة" وحديثها السياسي، فقد هجرها أهلها وهجروا معها روابطهم القروية. يقلب هذا التصوّر العلاقة بين الضحية والجلاد، يؤثّم الأولى ويبرئ الثاني، وهو الوعي في أعلى مستوياته اغتراباً.

خالط العماء "روايات التحديث" في منتصف ستينات القرن الماضي، "أطبق على عيونها" نور التحديث المفترض، متجاهلة أن توطيد "التخلّف الفلسطيني" سياسة إسرائيلية مستمرة، وأن تحولات وعي الإنسان في شروط الاحتلال يخالطها الخلل والاعتلال، ترتبط بالسياق ويلازمها رد الفعل والارتجال، وتوزّع على الفلسطيني جملة صفات: عربي، عربي ـ إسرائيلي ـ إسرائيل/ عربي، عربي ليس يهودياً، عربي متمسّك بتقاليده وكارهاً للصهيونية أو "متأسرل" معتدل ينتمي إلى حزب إسرائيلي،...

ما بعد التحديث وانقشاع الوهم:

بعد رواية التحديث وصل الباحث إلى رواية "ما بعد التحديث" بصيغة الجمع، الممتدة من ١٩٦٧ ـ ١٩٨٧، التي شملت تسعة عشر عملاً. ومع أنّ السيد منار هـ مخوّل أجهد نفسه في "التنظير" والمصطلحات التقنية، اتكأ في هذا الطور من بحثه على مؤشرين سياسيين مباشرين: هزيمة ١٩٦٧ الأشد أثراً في الهزائم العربية منذ قرون، وانتفاضة ١٩٨٧ في المناطق المحتلة "الضفة وغزة" ، الأكثر تميّزاً بعد ثورة ١٩٣٦ـ ١٩٣٩.

أعقب التحديث ما بعده. بقيت الوقائع الاجتماعية الفلسطينية أضيق بكثير من "الكلمتين الكبيرتين" اللتين تحيلان عليهما. ربما هي فتنة العمل الأكاديمي والنظريات الكبيرة، ذلك أن تحديث الفلسطينيين لم يتجاوز أوهامهم، وأن ما بعد حداثتهم انقشاع الأوهام، بقوا في واقع إسرائيلي لا يمكن تجاوزه، وفي رواية لا ترى دائماً ما تكتب عنه. ولذلك فإن اللجوء إلى الكلمات الكبيرة يربك المعنى، حتى لو كان صحيحاً، كأن يتحدث المؤلف عن "سيرورة التحديث" التي يمكن اختصارها في لغة أبسط عن: التأثير الإسرائيلي أو المؤثرات الاجتماعية الإسرائيلية.

كُتبت رواية الخمسينات، وهي قليلة، عن النكبة القريبة، وجاءت رواية التحديث بعد عقدين، أو أقل، محوّطة بالأوهام، وتلتهما رواية تأملت الصهيونية والحياة في إسرائيل بشيء من الوضوح، وعملت وعياً سياسياً انتقالياً، كما هو الحال في رواية "الجثة المجهولة" ـ ١٩٧٣ ـ التي وصفت فردية متمرّدة على تربيتها الفلاحية حزينة المآل، استعاضت عن الأهل بحياة في تل أبيب، من دون أن تحسن التمرّد على "النظام الأبوي" ولا التأقلم مع مدينة غريبة. انتهت إلى غربة مزدوجة: غربة عن الأقربين و"غربة عن التقاليد"، ذلك أن "الغريب" أدمن على موبقات المدينة، كما لو كان خروج الفلسطيني من حيّزه الضيّق خروجاً على الدين والأعراف الدينية.

ولعل وضوح الإشارة الدينية الروائية في فترة زامنت تأسيس الحركة الإسلامية في إسرائيل عام ١٩٧٢، هو ما دفع بالباحث إلى الوقوف أمام رواية "حب عبر القارات" ـ ١٩٧٥ ـ التي عالجت النظام الأبوي بمنظور وطني علماني، لا يقيم تعارضاً بين الحرية الفردية والدفاع عن المصلحة العامة، ولا يرى في الاحتكاك مع الآخر طريقاً إلى التفكّك والانحدار، وهو ما ألمحت إليه رواية "القضية رقم ١٣"، بعد رواية "الجثة المجهولة".

تشير فترة "رواية ما بعد الحداثة" ـ وهو مصطلح من فراغ وضجيج ـ إلى هزيمة ١٩٦٧، التي رأت فيها "الأصوليات" المختلفة عقاباً لـ"العلمانيين"، وإلى صعود الحركات الدينية عربياً وفلسطينياً، كما لو كان الدين الشعبي المحتج على الأنظمة المهزومة أُعيد صوغه بمقولات

سلطوية تربك الوعي السياسي العربي، ولا تضير إسرائيل في شيء. انعكس معنى الهزيمة روائياً في "روح في البوتقة" ـ ١٩٨٦ ـ التي وضعت موضوع "الكيبوتس" جانباً، واستعادت لغة سياسية واضحة تتحدّث عن "طرد العرب"، و"تعطيل إسرائيل" لمحاولات "السلام".

أتاحت حرب ١٩٦٧ اللقاء بين "فلسطينيي إسرائيل" و"فلسطينيي الضفة"، وكشفت للطرفين أن ماضيهما المشترك ما يزال يقظاً، وأن عشرين عاماً من النكبة لم تغيّر في هويتهم إلا ما أجبروا على تغييره. ساعد على حضور الهوية المتغيّر الذاتي الفلسطيني، الذي أدخل كلمة الفدائي إلى رواية إميل حبيبي "المتشائل ـ ١٩٧٤"، ورواية توفيق فيّاض الصغيرة "مجموعةعكا ٧٧٨ـ ١٩٧٨"ـ وهي عمل توثيقي ـ والاندفاع الفلسطيني الكبير الذي رافق انتفاضة ١٩٨٧.

ملاحظة ضرورية: لغة لا تتسم بالوضوح:

أنهى الباحث الجزء الخاص برواية ما بعد الحداثة "بنتيجة" من صفحتين، استهلها بالسطور التالية: "كان لسيرورة التحديث التي عاشها الفلسطينيون في إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ نتائج بارزة على وجوه متعددة من حياة هذا المجتمع. تجلى التحديث، بشكل أساسي، في عملية تمايز المجتمع الفلسطيني، الذي ظهر واضحاً في "الفردية" نتيجة لضعف بنية العائلة الفلسطينية، وتشظّي المؤسسات الاجتماعية، كما التماسك الاجتماعي والدين، ص: ١٣٢". والسؤال هو: ما هذا التحديث الذي ساوق زمنياً فقدان الفلسطينيين أرضهم وإرادتهم، وتحوّلهم إلى "جزء هامشي" في الدولة الصهيونية المنتصرة؟ ولماذا الركون إلى صفة "سيرورة"، كما لو كان هذا التحديث المفترض فعلاً طوعياً يتحكّم به الفلسطينيون وفقاً لحاجاتهم؟ وهل يساوي التحديث الاستعمار الاستيطاني، وإذا كانت بينهما تلك المساواة العجيبة، ما الذي وصل إليه المجتمع الفلسطيني، المحكوم إسرائيلياً، بعد سبعين عاماً من التحديث؟ هل أصبح أكثر علمانية أو تحرّراً من عادات القرية القديمة؟ وإذا كان "التفريد"، بلغة المؤلف، أي تمتّع الفلسطيني بفردية تحكم سلوكه، بحاجة إلى حقل اجتماعي تتكامل فيه الديمقراطية والعمل السياسي الجماعي، فهل عرف الفلسطينيون المغتَصَب وجودهم، بعد النكبة حقلاً

اجتماعياً ديمقراطياً؟

سعى الباحث، الذي اجتهد في بحثه اجتهاداً جديراً بالثناء، إلى لغة نظرية حديثة ولم يقم بتمييزها، اعتبرها كونية وتصلح للمجتمعات جميعاً، فاته تمييزها، وهو العارف بقضيته جيداً، فأذاب عملية المعاناة والانتظار في عملية "التحديث"، وخَلُص إلى تحديث هجين يوائم المغلوبين ولا يمدّهم بشيء. أضعف العائلة وأوهن الهوية الفلسطينية بما يتفق مع سياسات إسرائيلية ويلبي أغراضها. ولن يكون حديثه عن رواية فلسطينية ما بعد حداثية إيجابي المردود، طالما أن الصهيونية مستمرة متصاعدة نظرياً وممارسة، وأن على الرواية أن تسجّل التعصّب الصهيوني ورهانات الفلسطينيين على واقع "أقل صهيونية"، أو أن تسجّل سقوط أوهامهم.

تعاملت رواية ما بعد الحداثة مع مواضيع جديدة، مثل الحنين إلى ما كان وابتعد، الذي غدا طاغياً في الرواية بعد الانتفاضة الأولى، لكأن الفلسطيني خرج من صندوق إسرائيليته الحديدي، وعاد إلى جذوره الأولى. ظهر هذا في خمس وأربعين رواية، نشرت بين ١٩٨٧ و ٢٠١٠، رسمت علاقة الحاضر بالماضي، وأوغلت في العودة فاستعادت الفولكلور والعادات والأسماء والأمثال، واستعارت حكايات من معيش الفلسطينيين ومخيماتهم خارج إسرائيل. تُرجم الواقع الجديد ـ الوطني النزوع والهوية ـ بتراجع نسبة الفلسطينيين الذين يكتفون بصفة "إسرائيلي"، وتزايد الفلسطينيين الذين يعرفون ذواتهم فلسطينياً، قبل الملحق الإسرائيلي، وبالتخلي عنه أحياناً.

ملاحظات أخيرة

تتيح الصفحات السابقة اقتباساً نسبياً من دلالة الهوية: فهي متحوّلة متغيّرة بعيدة عن الثبات، تعلو في سياق محدد وتتراجع في سياق آخر، بل إنها تصعد بصعود الروح الوطنية، وتتراجع إن أحس صاحبها بهزيمة طويلة. ولأنها علاقة اجتماعية حياتية، تتأثر بالمنفعة والمصلحة والخسارة، وتميل إلى محاكاة الأقوى والابتعاد عن العاجز المهزوم. غير أن تعددية

العلاقات التي تسهم في صَوْغ أحوال الهوية، لا تحجب العلاقتين الأكثر أهمية: الحوار السياسي المجتمعي، من حيث هو حديث في المتبدّل والمتغيّر، تشارك فيه فئات متعددة؛ إذ لا سياسة إلا بالمتعدد. والعلاقة الثانية هي الثقافة الجماعية التي تميل إلى الاستقرار، ما يفسّر، نسبياً، ديمومة الثقافة القرائية، وتجَانس، ذات مرة، بين ثقافة أبناء المخيمات الفلسطينية، قبل أن تضيق بهم حسابات سلطات غير قابلة للتعريف.

قرأ الباحث الهوية الفلسطينية بمقولتين تهمّشان: الذاكرة، هما التحديث وما بعده، علماً أن من لا ذاكرة له لا تاريخ له، وأن هوية بلا ذاكرة وتاريخ مجرد فولكلور فقير. بل إن في تعامله مع مفهوم "تحديث الفلسطيني" ما يثير الصدمة والعجب، ذلك أنه تحدث عن فلسطينيين نسوا سريعاً هزيمة ١٩٤٨، وهرولوا مسرعين إلى التحديث الصهيوني الذي تعقبه: "المواطنة".

إذا كان في مواطنة الطرف المنتصر ما يحذف المسافة بين: اليهودي والصهيوني والإسرائيلي، ويستولد من الأبعاد الثلاثة هوية خاصة "باليهود" لا بغيرهم، فمن أي السبل يتسلل الفلسطيني إلى "المواطنة الإسرائيلية"؟ هذا إذا دعاها حقبة إلزامية مؤسسية، أو مفارقة تاريخية كبرى تسخر من التاريخ وضحاياه، ثم تدع الضحايا يتصرفون كما يرغبون.

لا تأتي هوية الإنسان مما ورثه، فالهوية لا تورّث، وماضيها المجرّد لا معنى له، إنما تأتي من مواجهة مستمرة مع طرف آخر عبث بالهوية وصادرها. ما يجعل من بناء الهوية المحاصرة مشروعاً مستمراً، متجدّد الأزمنة.

إشارات:

•Manar H. Makhoul: Palestinian citizen in Israel. A History through fiction: 1948 – 2010 Edin Burgh university press 2020.

• Jorge Larrain: Ideology, cultural identity: Polity press London 1994. P: 141 – 167.

معاهدات السلام العربية مع إسرائيل
دراسة مقارنة

عبد الغني سلامة*

مقدمة

بتاريخ ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠، صرح رئيس مجلس السيادة الانتقالي في السودان عبد الفتاح البرهان، أن السودان ستقيم علاقات كاملة مع إسرائيل، وبموازاة ذلك أعلن الرئيس الأميركي دونالد ترمب أن السودان وافقت على تطبيع العلاقات مع إسرائيل، وأن الولايات المتحدة رفعت اسم السودان من القائمة الأميركية للدول الراعية للإرهاب، الأمر الذي سيؤدي إلى رفع الحظر عن المساعدات الاقتصادية للسودان. مؤكدا أن خمس دول عربية أخرى على الأقل تريد إقامة اتفاق سلام مع إسرائيل.

وفي ١٥ سبتمبر الماضي، كانت الولايات المتحدة قد رعت توقيع اتفاقيتي سلام بين إسرائيل وكل من الإمارات العربية المتحدة ومملكة البحرين، وجرت مراسم التوقيع في البيت الأبيض بحضور كل من رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو، ووزير الخارجية الإماراتي عبدا لله بن زايد ونظيره البحريني عبد اللطيف الزياني، وتتضمن الاتفاقية تطبيعاً كاملاً للعلاقات بما يشمل تعاوناً في الملفات العسكرية والتجارية والثقافية والسياحية.

وبذلك تنضم السودان والإمارات والبحرين لقائمة الدول الموقعة على معاهدات سلام مع

* كاتب وباحث فلسطيني

إسرائيل، حيث سبقتها في ذلك كل من مصر والأردن. وبالإضافة لتلك الدول، هنالك بلدان عربية أخرى تقيم علاقات سرية أو شبه علنية مع إسرائيل تتضمن تعاونا في مجالات عديدة، فمثلا قررت كل من المملكة المغربية وإسرائيل في سبتمبر ١٩٩٤ فتح مكاتب ارتباط في كلتا الدولتين، وأيضا اتفقت تونس وإسرائيل على فتح مكتبين للتمثيل التجاري في كل منهما في نفس الشهر، تبعتها جيبوتي لتوقع على تطبيع العلاقات في ديسمبر ١٩٩٤. وفي العام التالي في نوفمبر ١٩٩٥ افتتحت قطر مكتب تمثيل في غزة، ومكتب تمثيل إسرائيلي في الدوحة، ومنذ ذلك الحين والعلاقات قائمة بينهما، بما يشمل زيارات رسمية وزيارات لوفود رياضية وثقافية وسياحية وغيرها. وفي أكتوبر ١٩٩٩ أعلنت موريتانيا عن إقامة علاقات دبلوماسية بينها وبين إسرائيل.

وفي قمة بيروت (مارس ٢٠٠٢) تبنى الرؤساء والملوك العرب مبادرة السلام العربية، على أساس السلام الشامل وإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل في مقابل انسحابها من الأراضي العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧، وإقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس، وإيجاد حل لقضية اللاجئين.

في هذه الدراسة سنسلط الضوء على مضامين وحيثيات معاهدات السلام العربية، من خلال مقاربة كل من معاهدتي كامب ديفيد ووادي عربة مع معاهدات السلام الجديدة، وتبيان أوجه التشابه والاختلاف بينها، والسياقات التاريخية والسياسية التي أتت فيها كل معاهدة، وأثر ذلك على القضية الفلسطينية.

اتفاقية كامب ديفيد

بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٧٩، وبحضور الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر، وقع كل من الرئيس المصري أنور السادات، ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن، في منتجع كامب ديفيد في

الولايات المتحدة على اتفاقية كامب ديفيد، والتي مثلت أول خرق للموقف العربي الرافض للاعتراف بإسرائيل، أو التعامل معها باعتبارها دولة، وبموجبها أعلن الطرفان إنهاء حالة الحرب بينهما، والتي استمرت ثلاثة عقود شهدت خمسة حروب، أولها عام ١٩٤٨، وثانيها العدوان الثلاثي ١٩٥٦، حيث شاركت إسرائيل مع بريطانيا وفرنسا في حرب ضد مصر عقب إعلان الرئيس الأسبق عبد الناصر عن تأميم قناة السويس، ثم حرب الأيام الستة، يونيو ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف ١٩٦٧-١٩٧٠، وأخيرا حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وقد دخلت اتفاقية كامب ديفيد حيز التنفيذ بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٧٩، وتتضمن تسعة بنود رئيسة، من أبرزها انسحاب إسرائيل من سيناء، وعودتها للسيادة المصرية (تم في إبريل ١٩٨٢، بعد احتلال دام ١٢ سنة). ونصت المادة الثانية على أن تكون الحدود الدائمة بين مصر وإسرائيل هي الحدود الدولية المعترف بها بين مصر وفلسطين إبان الانتداب البريطاني، دون المساس بوضع قطاع غزة، كما تلزم الاتفاقية الطرفين بعدم إصدار أي فعل عدواني أو تحريضي ضد الطرف الآخر، مع التنسيق الأمني المشترك في المناطق الحدودية، على أن تكون محدودة التسليح وتخضع لمراقبة دولية من الأمم المتحدة.

كما منحت الاتفاقية السفن الإسرائيلية والشحنات المتجهة من إسرائيل وإليها حق المرور الحر في قناة السويس ومداخلها في كل من خليج السويس والبحر الأبيض المتوسط، واعتبار مضيق تيران وخليج العقبة من الممرات المائية الدولية المفتوحة لكافة الدول دون عائق. كما كان من نتائج الاتفاقية افتتاح سفارة لإسرائيل في القاهرة في عام ١٩٨٠، وافتتاح سفارة لمصر في تل أبيب.

ونتيجة لهذه الاتفاقية علقت جامعة الدول العربية عضوية مصر عشرة أعوام، (١٩٧٩-١٩٨٩)، وكان الموقف العربي الشعبي والرسمي مجمعاً على رفض الاتفاقية.

اتفاقية وادي عربة

بتاريخ٢٦ أكتوبر ١٩٩٤، وبحضور الرئيس الأميركي الأسبق بل كلينتون، وقع كل من ملك

الأردن الحسين بن طلال ووزير الخارجية الإسرائيلي شمعون بيريز اتفاقية وادي عربة (جنوب البحر الميت، على حدود الأردن الغربية). وكانت ثاني معاهدة سلام بين إسرائيل ودولة عربية.

هدفت المعاهدة إلى تخطي الحواجز النفسية بين الأردنيين والإسرائيليين، وتحقيق سلام بين البلدين، ضمن حدود معترف بها دولياً، وحددت الاتفاقية حدود البلدين وفق زمن الانتداب البريطاني، باستثناء أراضي الباقورة والغمر التي منحت الاتفاقية إسرائيل حق الانتفاع بهما لمدة ٢٥ عاماً، وقد انتهت هذه المدة في أكتوبر ٢٠١٩، وعادت الأراضي للسيادة الأردنية الكاملة.

كما تضمنت المعاهدة في موادها الـ ١٤ تطبيعاً كاملاً بين البلدين، يشمل فتح سفارة إسرائيلية في عمّان وأردنية في تل أبيب، ومنح تأشيرات زيارة للسياح، وكذلك فتح خطوط جوية بين البلدين، وعدم استخدام أي منهما دعاية مضادة في حق الدولة الأخرى، بالإضافة إلى التعاون في الملفات الأمنية ضد الإرهاب أو أي عمليات مسلحة على حدود البلدين.

وكذلك ضمنت المعاهدة التعاون الاقتصادي بين البلدين، والانفتاح الثقافي والعلمي، كما منحت المعاهدة الأردن أفضلية الإشراف على الأماكن المقدسة في القدس، كما نظرت هذه المعاهدة في ملف اللاجئين والنازحين للعمل على توطينهم، وكذلك سمحت لمواطني كل طرف بالتنقل بحرية في أراضي الآخر، بالإضافة لمرور سفن كل منهما في المياه الإقليمية للطرف الآخر.

كما أعلنت الاتفاقية إنهاء حالة الحرب بين البلدين والتي دامت منذ النكبة، جرى خلالها حربين (١٩٤٨ و١٩٦٧)، بالإضافة لمشاركة رمزية من قبل الأردن في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

معاهدات السلام الإماراتية/ البحرينية مع إسرائيل

النص التالي عن معاهدة السلام الإماراتية، وهو يتطابق إلى حد كبير مع المعاهدة البحرينية، وقد سميتا بِـ «اتفاقية إبراهام».

البنود:

١. إقامة السلام والعلاقات الدبلوماسية والتطبيع الكامل للعلاقات الثنائية.

٢. يسترشد الطرفان في علاقاتهما بميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي، ويعترف كل طرف ويحترم سيادة الطرف الآخر وحقه في العيش في سلام وأمن، ويطور الطرفان علاقات تعاون ودية بينهما وبين شعوبهما، ويحلان جميع الخلافات بينهما بالوسائل السلمية.

٣. إقامة سفارات وقنصليات وتبادل سفراء مقيمين في أقرب وقت ممكن بعد توقيع المعاهدة.

٤. يولي الطرفان أهمية للتفاهم والتعاون والتنسيق بينهما في مجالات السلام والاستقرار، باعتبار ذلك ركيزة أساسية لعلاقاتهما ووسيلة لتعزيز السلام والاستقرار في الشرق الأوسط. ويتعهد الطرفان باتخاذ الخطوات اللازمة لمنع أي أنشطة إرهابية أو عدائية ضد بعضهما البعض في أراضيهما أو انطلاقاً منها، وبرفض أي دعم لمثل هذه الأنشطة في الخارج أو السماح بمثل هذا الدعم في أراضيهما أو انطلاقاً منها.

٥. من أجل دفع قضية السلام والاستقرار والازدهار في الشرق الأوسط، وإطلاق العنان لإمكانات بلدانهما والمنطقة، يبرم الطرفان اتفاقيات ثنائية في المجالات التالية: الرعاية الصحية، العلوم والتكنولوجيا والاستخدامات السلمية للفضاء الخارجي، والسياحة والثقافة والرياضة، والطاقة، والبيئة، والتعليم، والترتيبات البحرية، والاتصالات والبريد، والزراعة والأمن الغذائي، والمياه، والتمويل والاستثمار، والطيران المدني، والتأشيرات والخدمات القنصلية، والابتكار، والتجارة والعلاقات الاقتصادية.

٦. تعزيز ثقافة العيش المشترك بين شعبي البلدين من خلال إنشاء برامج الالتقاء، وحوار الأديان، والتبادلات الثقافية والأكاديمية والشبابية والعلمية وغيرها، واتخاذ التدابير المتعلقة بالتأشيرات والخدمات القنصلية لتسهيل السفر الآمن لمواطني البلدين، ويعمل

الطرفان معاً على مواجهة التشدد الذي يحض على الكراهية والانقسام، والإرهاب، بما في ذلك منع التشدد والتجنيد ومكافحة التحريض والتمييز، وسيعملان معاً أيضاً من أجل إنشاء "منتدى مشترك رفيع المستوى للسلام والتعايش" مكرس للنهوض بهذه الأهداف.

٧. يقف الطرفان على استعداد للانضمام إلى الولايات المتحدة لتطوير وإطلاق "أجندة إستراتيجية للشرق الأوسط" من أجل توسيع العلاقات الدبلوماسية والتجارية والاستقرار في المنطقة وغيرها من أشكال التعاون الإقليمي.

٨. لا تؤثر هذه المعاهدة على واجبات وحقوق الطرفين بموجب ميثاق الأمم المتحدة، وتطبيق أحكام الاتفاقيات متعددة الأطراف التي يكون كلاهما طرفاً فيها.

٩. يتعهد الطرفان بالوفاء بحسن نية بالتزاماتهما بموجب هذه المعاهدة، بغض النظر عن أي عمل أو تراخ من أي طرف آخر، وبصرف النظر عن أي وثيقة لا تتوافق مع هذه المعاهدة. ويوضح كل طرف للآخر أنه لا يوجد تضارب بين التزاماته في المعاهدات التي يلتزم بها وهذه المعاهدة. ويتعهد الطرفان بعدم الدخول في أي التزام يتعارض مع هذه المعاهدة.

١٠. يتم التصديق على هذه المعاهدة من قبل الطرفين في أقرب وقت ممكن، بما يتوافق مع الإجراءات الوطنية الخاصة بكل منهما، وستدخل حيز التنفيذ بعد تبادل وثائق التصديق.

١١. تحل المنازعات الناشئة عن تطبيق أو تفسير هذه المعاهدة عن طريق التفاوض. وأي نزاع من هذا القبيل لا يمكن تسويته عن طريق التفاوض يمكن أن يحال إلى التوفيق أو التحكيم رهناً باتفاق الطرفين.

١٢. تُحال هذه المعاهدة إلى الأمين العام للأمم المتحدة لتسجيلها وفقاً لأحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الأمم المتحدة.

مقاربة بين معاهدات السلام العربية

إذن، لم تكن اتفاقيتي السلام بين الإمارات والبحرين مع إسرائيل الأولى من نوعها؛ فقد سبقتهما مصر والأردن، لكن طبيعة الاتفاقيتين وظروفهما وتوقيتهما ومضامينهما، يحملان فروقات كبيرة، بل جوهرية عن سابقاتها، بحيث أنهما قلبتا المعادلات في علاقات إسرائيل مع محيطها العربي، ودشنتا حقبة جديدة لصالح الإسرائيليين بشكل كامل.

السياق التاريخي

جاءت معاهدات التطبيع الإماراتي والبحريني بعد عقدين ونصف على آخر معاهدة سلام بين دولة عربية وإسرائيل، خلال هذه الفترة حدثت انتفاضة ثانية للشعب الفلسطيني قتل فيها الآلاف، وحربين مدمرتين في لبنان، وثلاثة حروب ضد قطاع غزة، مع استمرار حصارها، ولم تنسحب إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ ولم تخلِ أي مستوطنة، وتنكرت لمعظم تفاهماتها مع السلطة الوطنية، والتي تضمنتها اتفاقية أوسلو، أما القدس فقد سلّمها ترامب لنتنياهو، ونقل السفارة الأميركية إليها، وأعلن اعترافه بضم إسرائيل للجولان، وتم شطب حق العودة، وتغيير تعريف اللاجئين الفلسطينيين، وسحب الدعم الأميركي للأونروا، بالإضافة للعقوبات الاقتصادية والضغوطات التي تفرضها على السلطة الوطنية، وفوق ذلك ما زالت إسرائيل تعلن كل يوم عن استمرارها في مخططات الضم والتوسع الاستيطاني، ومصادرة الأرض.

ورغم كل ما سبق، أقدمت الإمارات والبحرين (وستتبعهما السودان) على التوقيع على معاهدات سلام مع إسرائيل، فبدلا من معاقبة إسرائيل على جرائمها، وتنكرها للقانون الدولي، وعدم احترامها لتعهداتها مع السلطة الوطنية، واعتدائها على جيرانها (بما في ذلك اعتداء على السودان نفسه)، عوضا عن ذلك تم مكافأتها على ممارساتها العدوانية.

فلماذا حصل ذلك؟ هل ثمة مصلحة وطنية لتلك الدول في إبرام تلك المعاهدات؟ أم أنها أتت استجابة لطلب من إسرائيل وأميركا في إطار ما يُعرف بصفقة القرن، فامتثلت تلك الدول للأمر؟ وما هي طبيعة تلك المعاهدات، وحيثياتها؟ وما الفروق بينها وبين المعاهدتين السابقتين؟

السياق السياسي

مع تراجع مكانة القضية الفلسطينية على الأجندة الدولية، وتراجع الاهتمام العربي بها، ودخول المنطقة العربية في أوحال الصراعات الداخلية، ومع استمرار حالة الانقسام الفلسطيني.. ظهر في عام ٢٠١٧ ما عُرف بخطة ترامب للسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، والتي سميت صفقة القرن، وهي خطة تقفز على كل المرجعيات الدولية السابقة، بل وتتناقض معها، وتكرس الاحتلال مقابل وعود اقتصادية للفلسطينيين ووعود بتحسين مستوى معيشتهم، دون النظر إلى حقوقهم الوطنية.

وقد أعلن عن الخطة ترامب في مطلع العام الجاري ٢٠٢٠ بحضور نتنياهو في مؤتمر صحافي بالبيت الأبيض، بغياب السلطة الوطنية، ودون أي تنسيق معها، وهذه الخطة هندسها صهر ترامب ومستشاره كوشنير، ويطلق عليها البيت الأبيض اسم "الازدهار على طريق السلام"، وتضمن الخطة استمرار سيطرة إسرائيل على معظم الضفة الغربية، وضم الأغوار والكتل الاستيطانية في الضفة، وبقاء مدينة القدس موحدة وتحت السيادة الإسرائيلية.

جوبهت صفقة القرن برفض فلسطيني كامل وصريح، وموقف عربي متردد، وفي هذا السياق تأتي الخطوة الإماراتية البحرينية لإنجاح صفقة القرن وتمريرها، بالنظر إلى سياسة ولي العهد الإماراتي فانها لم تكن مفاجئة، بل أتت تتويجا لسنوات من العلاقات السرية بين البلدين؛ فالإمارات تبحث عن دور ومكانة في خريطة الشرق الأوسط، تتنافس في ذلك مع جارتها اللدود قطر.

أوجه التشابه

تشترك معاهدات السلام التي وقعتها كل من مصر والأردن والإمارات والبحرين مع إسرائيل بأنها تمت تحت رعاية البيت الأبيض، وبإشراف مباشر من الرؤساء الأميركيين، وبتغطية إعلامية واسعة.

الوجه الظاهر لتلك المعاهدات هو قضية السلام في الشرق الأوسط، والحجة حل القضية

الفلسطينية، والهدف إنهاء حالة الحرب مع الدولة العبرية.

وبما أن قضية فلسطين تحتل رأس الأولويات دولياً، فقد درجت العادة من حكام البيت الأبيض على بذل جهود إعلامية ودبلوماسية لتحقيق اختراق في الصراع العربي الإسرائيلي، وصنع السلام في الشرق الأوسط لتخليد أسمائهم.

جميع تلك المعاهدات أتت على حساب القضية الفلسطينية، وبالضغط على الطرف الفلسطيني فقط (باعتباره الطرف الأضعف)، دون الأخذ بعين الاعتبار مصالحه القومية وحقوقه المشروعة.

أوجه الاختلاف

شكلت المعاهدتين المصرية والأردنية تفرداً من قبل كل من القاهرة وعمان خارج الإجماع العربي، ولكنهما لم تخرجا عن منظومة الصراع العربي مع إسرائيل باعتبارها احتلالاً يحتل أراضي عربية، باعتراف قرارات مجلس الأمن.

الفرق بين "معاهدة كامب ديفيد" و"اتفاقية وادي عربة وبين "اتفاقية إبراهام"، هي أن مصر والأردن تعتبران من دول الطوق، وتربطها مع إسرائيل حدود طويلة، ولكل منهما أراضٍ تحتلها إسرائيل، وقد خاضتا حروبا عديدة معها، وهنالك الكثير من القضايا المشتركة بينهما، مثل وجود اللاجئين، المياه، الطاقة، البيئة، المعابر..

بالنسبة للأردن وإسرائيل، يشكل الموضوع الديموغرافي أهمية حيوية لأمنهما، وأي تغيير ديمغرافي بالنسبة لتعداد الفلسطينيين وإقامتهم، يشكل تهديدا لهوية الدولة ومستقبلها، ولدى إسرائيل مخططات خفية بشأن الوطن البديل، وتنفيذ ترانسفير جماعي (قد يكون بطيئا، لكنه مستمر).

دعت المعاهدتان لإنهاء الاحتلال، وإعطاء الفلسطينيين حقوقهم الوطنية؛ في كامب ديفيد حكم ذاتي يفضي إلى دولة، وفي وادي عربة جاء في ديباجة المعاهدة أن البلدين يهدفان "إلى تحقيق سلام عادل ودائم وشامل مبني على قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ بكل جوانبهما"، وتستند المعاهدة إلى نتائج اتفاقية أوسلو (١٩٩٣)، وإلى المرجعية العربية لإنهاء

الاحتلال القائمة على مبدأ "حل الدولتين" وإقامة دولة فلسطينية، والتي أكدت عليها فيما بعد مبادرة السلام العربية (قمة بيروت ٢٠٠٢) التي اشترطت فيها الدول العربية الانسحاب الإسرائيلي إلى حدود حزيران ١٩٦٧، وإيقاف الاستيطان، وحق العودة، والقدس الشرقية عاصمة لفلسطين مقابل التطبيع.

رغم أن الموقف الرسمي لمصر والأردن يضع تلك النقاط كمبررات موضوعية للانخراط بعمليات سلام، باعتبار أن ذلك أشبه بهدنة لتأمين الحدود وترسيمها، واستعادة الأراضي المحتلة؛ فالأردن استعاد أراضيه (الباقورة والغمر)، ومصر استعادت سيناء، وتحسين الوضع الاقتصادي لهما، من خلال إنهاء حالة الحرب، بما يضمن تدفق الاستثمارات والمساعدات الدولية، سيما وأن البلدين تعانيان من وضع اقتصادي ضعيف.. رغم كل تلك المبررات إلا أن الموقف الشعبي والحزبي ظل رافضا لتلك الاتفاقيات، ولم تقم أي عملية تطبيع على المستويات الشعبية (الثقافية، الاقتصادية، السياحية..).

فتحت اتفاقية "وادي عربة" باب المساعدات الدولية للأردن، بعد توقف المساعدات الخليجية بسبب وقوف الأردن إلى جانب العراق في حرب الخليج الثانية. أما مصر فقد كسبت مساعدات عسكرية ومالية من واشنطن، وما تزال مستمرة، وبحسب تقرير لـ"معهد واشنطن" نشر في عام ٢٠١١، تتلقى القاهرة سنوياً مساعدات عسكرية أميركية قدرها ١,٣ مليار دولار ومساعدات اقتصادية تبلغ ٢٥٠ مليون دولار، وبلغ إجمالي ما حصلت عليه مصر ٦٩ مليار دولار من الولايات المتحدة. كما استفادت مصر والأردن من إقامة "المناطق الصناعية المؤهلة"، التي اعتمدها الكونغرس الأميركي عام ١٩٩٦، وتوفر إمكانية الوصول التجاري الحر لمنتجات هذه المناطق إلى الأسواق الأميركية من دون جمارك.

بسبب "كامب ديفيد" علقت عضوية مصر ١٠ سنوات في الجامعة العربية، كما اعتبرت معاهدة "وادي عربة" إضعافاً لموقف الفلسطينيين، لكن المصريين والأردنيين يستغلون أي فرصة للاحتجاج على "السلام" مع إسرائيل، أو يطالبون بتعديل الاتفاقيات.

لم تخلق المعاهدتان المصرية والأردنية إلا سلاماً بارداً وبروتوكولياً لم يترجم على أرض الواقع،

في ظل المزاج الشعبي الرافض للتطبيع، على عكس "السلام الحميمي" الذي نشهده اليوم في المعاهدات الإماراتية البحرينية الإسرائيلية التي تنطلق في أجواء احتفالية بينهما، واستعراض غير مبرر وغير منطقي لإظهار القبول الشعبي بها.

على عكس، اتفاقيتي كامب ديفيد ووادي عربة فقد أخرجت اتفاقيات الإمارات والبحرين القضية الفلسطينية من المعادلة الإقليمية، أو أن جوهرهما يؤديان إلى ذلك، رغم إدعاء الإمارات بأن تطبيعها جاء لوقف خطة الضم الإسرائيلية لثلث أراضي الضفة الغربية، إلا أن إسرائيل كذّبت ادعاء أبو ظبي، وأكدت أنها ماضية في خطة الضم. بل إن نتنياهو تفاخر بالقول إن "معادلة الأرض مقابل السلام انتهت"، وإن السلام مع الدول العربية لم يعد رهيناً بالرفض الفلسطيني.

تركز معاهدات إبراهام في بنودها على التطبيع الاقتصادي والتبادل التجاري، على حساب الجانب السياسي، بينما في الحالتين المصرية والأردنية بقي التبادل التجاري على مستوى الدولة ضمن اتفاقيات اقتصادية رسمية، ولم تنخرط فيها الشركات الخاصة ولم تنتعش التجارة البينية. ومع ذلك، لم تحصل الإمارات على مغريات اقتصادية، فهي ليست بحاجة إلى مساعدات، بينما تتجه أنظار الإسرائيليين إلى الاستثمارات والأموال الإماراتية.

ركزت المعاهدتان المصرية والأردنية على القضية الفلسطينية، وعلى أهمية إيجاد حل لها، وعلى ضرورة انسحاب إسرائيل.. بينما معاهدات إبراهام نفت عن إسرائيل صفة الدولة المحتلة، والغاشمة، واستبدلت الصراع العربي الصهيوني بصراع المحاور الإقليمية، واعتبرت إيران الخطر المركزي، وله الأولوية.

تعد مسألة إنهاء الحرب وعودة الأمور إلى سابق عهدها، وإرساء السلام جوهر معاهدات السلام بين الدول المتحاربة، كما حدث في الحالتين المصرية والأردنية، بينما لم تقم أي حرب بين إسرائيل والإمارات أو البحرين، وليس بينهما أية حدود، ولا توجد بينهما قضايا مشتركة، ولا عداوات مسبقة، ولا يهددان بعضهما، وفي المجال الاقتصادي لا تحتاج دول الخليج لمساعدات، فلديها اقتصاديات قوية، وبالتالي لا توجد مبررات سياسية أو أمنية لإبرام هكذا

معاهدة.

خلاصة

تعيش إسرائيل اليوم عصرها الذهبي، فهي القوة العسكرية الأولى في المنطقة، والأقوى اقتصاديا، والمتفوقة تكنولوجيا، والمدعومة كليا من الولايات المتحدة.. تنعم بالاستقرار الداخلي، تهيمن على المنطقة، وتعربد عليها، دون رادع.. وقد خرجت من عزلتها الدولية.. لم يكن لها أن تصل إلى هذا الحال لولا الدعم الأميركي والأوروبي اللامحدود، ولولا حالة الضعف العربي، والتواطؤ الدولي..

دعمتها بريطانيا أولا من خلال وعد بلفور، ثم سهلت عليها جلب اليهود، والاستيلاء على الأرض، وذللت كل السبل في سبيل إقامتها، ثم ساعدتها النازية بتحويل تعاطف العالم مع مأساة اليهود، وتركيز هجرتهم إلى فلسطين، وما زالت ألمانيا تدعمها ماليا تحت بند التعويضات، ثم اعترف بها الاتحاد السوفييتي، والذي سيمدها بمليون مهاجر (١٩٨٩)، وبعد قيامها، زودتها الأنظمة العربية بما تحتاجه من رصيد بشري، بطرد اليهود العرب إليها، ثم بنت لها فرنسا مفاعلات نووية، ثم قدمت لها أميركا كل الدعم الاقتصادي والعسكري والسياسي.. ومع كل ذلك، لم يتحقق لها الأمن والسلام، ولم تعترف بها دول المنطقة، وظلت مثل جسم غريب، وعدو مركزي للأمة..

اليوم، بفضل معاهدات السلام العربية، واعتراف معظم الدول العربية بها، تكون قد بدأت تستكمل آخر وأهم مراحل تثبيتها، وتكريس هيمنتها وتفوقها، وبما يضمن بقاءها وازدهارها اقتصاديا..

بالنسبة لنتنياهو فقد منحته معاهدات التطبيع أوراق قوة وطوق نجاة من الأزمات التي تقف في مسيرته السياسية، خاصة بعد ترنح حكومته الائتلافية، والتظاهرات ضده على وقع أزمة كورونا، وتهم الفساد التي تلاحقه. أما ترامب فهو أيضا يحتاج أي إنجاز، لدخول الانتخابات الأميركية، حاملاً بيده "اتفاقية سلام" من الشرق الأوسط.

تلك المعاهدات ستعطي إسرائيل المزيد للاستقواء على الشعب الفلسطيني وقيادته، وستستغلها لتسريع تهويد القدس، وتسريع الاستيطان والضم، والتغطية على عدوانها.

أما الدول المطبعة، فلن تجني من تلك المعاهدات شيئا، سوى الرضا الأميركي، وأوهام الازدهار، ومشاريع اقتصادية عملاقة ستكون على حساب شعب فلسطين وقضيته العادلة. السودان ستخرج من قائمة الإرهاب لتدخل قائمة التطبيع، وسيظل شعبها جائعا، وستظل غارقة في الفوضى والفساد، طالما أن السلطة بيد المستبدين، والجماهير مغيبة ومقموعة.

وأخيرا، صحيح أن الفلسطينيين أيضا يقيمون علاقات مع إسرائيل (أوسلو).. لكن أوسلو عبارة عن «إعلان مبادئ» وليس اتفاق سلام، ولا تطبيع، ولا اتفاق حل نهائي، وهو اتفاق انتهى رسميا بحسب النص في العام ١٩٩٩. والهدف منه التحرر والانفكاك عن الاحتلال، وقد أتى في سياق سياسي معين، في مرحلة صعبة، وجد فيه الفلسطينيون أنفسهم مجبرين على الانخراط في العملية السياسية، وأدركوا أن أي تأخر عنها سيكون له تبعات خطيرة على القضية ومستقبلها، وعلى حياة الفلسطينيين اليومية..

بغض النظر عن مدى دقة وصوابية تبريرات أوسلو، فهذا مجال خلاف كبير في الساحتين الفلسطينية والعربية، لكن السؤال: ما الذي يدفع الإمارات والبحرين للمسارعة في إقامة علاقات مع إسرائيل؟ بل والتطبيع معها، أي أن الأمر ليس فقط معاهدة سلام، بل وتطبيع أيضا! الجواب يكمن في فهم دوافعهما السياسية، وبالمصالح التجارية، وبالدور الوظيفي للإمارات..

وحتى لو وقعت كل الدول العربية اتفاقيات سلام، ستظل الشعوب العربية وفية لفلسطين، وسيظل الموقف الشعبي والرسمي الفلسطيني هو الأهم، وكلمته هي الفيصل.

الهوامش

١. المصدر: الجزيرة، ١٨-٣-٢٠١٥. https://gTv٨o/٢u.pw

2. شيماء الحديد، لماذا أبرم السادات وعرفات والملك حسين معاهدات سلام مع إسرائيل؟ عربي بوست، https://bit.ly/3kCWjgR

٣. شيماء الحديد، لماذا أبرم السادات. مصدر سبق ذكره.

٤. المصدر: الخليج أون لاين، ١٦-٩-٢٠٢٠، https://2u.pw/EqQWh

٥. خالد خليل، معاهدات السلام العربية مع إسرائيل، موقع سوريا، ٢٢-٨-٢٠٢٠. https:// cutt.us/o5QjY

٦. خالد خليل، معاهدات السلام العربية، مصدر سبق ذكره.

٧. خالد خليل، معاهدات السلام العربية، مصدر سبق ذكره.

الطريق الطويل من اللاءات الثلاثة إلى الجامعة الشرق أوسطية

مشيناها خطىً كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها

شذى يحيى*

"فيما يتعلق بفلسطين فإننا لا ننوي حتى الخوض الشكلي في إستشارة رغبات السكان الحاليين للبلد إن الدول الكبرى الأربعة ملتزمة بالصهيونية. والصهيونية سواء أكانت على خطأ أوصواب، وسواء أكانت جيدة أو سيئة ،فهي متجددة في التقاليد منذ الأزل، وفي الإحتياجات الحالية ،وفي آمال المستقبل ،وهي ذات شأن أكبر بكثير من رغبات وتحاملات سبعمائة ألف عربي يقطنون الآن تلك الأرض القديمة وفي رأيي أن هذا العمل صحيح".

مذكرة وزير الخارجية البريطانية جيمس بلفور للورد كرزون - ٢٣أغسطس ١٩٢٣م

"هدف إسرائيل المقبل يجب أن يكون الإنضمام للجامعة العربية ،أعتقد ان جامعتهم العربية يجب أن تسمى جامعة الشرق الأوسط وعندئذ من الممكن لإسرائيل أن تنضم لها ،نحن لن نصبح عرباً. ولكن الجامعة يجب أن تصبح شرق أوسطية ".

شيمون بيريز – فصلية الشرق الأوسط مارس ١٩٩٥م

"إنه سلام قوي ،تم الدخول من الباب الخلفي ،لكني أسميه الباب الذكي ... نحن لا نتحدث في موضوع حل الدولتين أو الضم ،نحن نتحدث عن إتفاق منصف وعادل وجيد لجميع من ينضم إليه"

---

* باحثة من مصر

دونالد ترامب – حديث للصحفيين في البيت الأبيض ١٥سبتمبر ٢٠٢٠م

في التاسع والعشرين من أغسطس العام١٩٦٧م عشية نكسة ٥مايو ١٩٦٧م عقدت الجامعة العربية في الخرطوم مؤتمراً للحكام العرب عرف بإسم قمة اللاءات الثلاثة وضعت هذه القمة ثلاثة ثوابت للدول العربية هي " لا صلح – لا إعتراف – لا تفاوض " مع العدو الصهيوني قبل أن تحل القضية الفلسطينية ،حضر هذا المؤتمر جميع الدول العربية عدا سوريا ووافقت على ما تضمنه البيان النهائي بثوابته. الآن وبعد مسيرة طويلة من مدريد لأوسلو ،ومن حل الدولتين لحل الدولة الواحدة ،ومن الركض وراء سراب الوسيط الأميركي العادل !! أطلقت رصاصة الرحمة النهائية على اللاءات الثلاث في العلن بعد عقود من وفاتها الإكلينيكية سراً بإعلان ثلاثة دول عربية التطبيع مع إسرائيل وهي الإمارات والبحرين والسودان، إضافة لمصر والأردن اللتين لديهما تمثيل ديبلوماسي مع الكيان الصهيوني منذ عقود .

الواقع أن العام ١٩٦٧م الذي شهد النكسة ومؤتمر اللاءات الثلاثة هو نفسه العام الحقيقي لميلاد الكيان الذي أطلق عليه دولة إسرائيل ،فيه أمنت حدودها وخلقت بعدها الاستراتيجي وارتبطت مصالحها بمصالح شركات البترول وبالتالي الممالك البترولية العربية ورويداً رويدا أصبح وجودها ضروري لإستقرار هذه الملكيات واليوم ينظر إليها على أنها المخلص من المد الشيعي والتطرف الديني ،هو العام الذي شهد أيضاً المولد الحقيقي لإسرائيل إقتصادياً وانطلاقها من اقتصاد إشتراكي مملوك للدولة إلى إقتصاد قائم على الاستثمارت ،فالاستثمارت الأجنبية والهجرات إنهالت بعد النصر المدوي وما صاحبه من دعاية .

لطالما نظر الصهاينة والإمبرياليون للصراع العربي الإسرائيلي على أنه صراع بين قوميتين "العربية – الصهيونية" وقد تحالف الجميع على القومية العربية وكانت ذروة المؤامرة عندما حاربت إسرائيل نيابة عن الولايات المتحدة بالوكالة حرب ١٩٦٧ ،الحرب الفصل التي كتبت بداية هزيمة القومية العربية ،حرب كانت فيها إسرائيل الصهيونية ككيان معاد للقومية العربية بمثابة أكبر بارجة أميركية في العالم أنشئت وصممت لهذا الغرض ،فكرة رعاها مارك سايكس وبلورها وايزمان في رسالة لبلفور العام١٩١٨م "نحن نريد مجتمعاً

يضم مابين أربعة إلى خمسة ملايين يهودي في فلسطين يستطيعون أن ينشروا إشعاعهم في الشرق الأدنى وأن يسهموا بقوة في إعادة بناء البلاد التي كانت في يوم من الأيام بلاداً مزهرة " ،أنشأتها الإمبريالية البريطانية ورعتها بعدها الإمبراطورية الأميركية ولخصها مردخاي بار أون مدير مكتب موشي ديان في الخمسينات في السطور التالية : "إن الصراع خلال قرن بين الحركة الصهيونية والحركة القومية العربية ،هو ليس نتاج خطأ ارتكبه أي طرف أو نتيجة لسوء فهم من قبل أي طرف للدوافع الحقيقية للآخر ،فالمواجهة المريرة كان لا يمكن تجنبها منذ اللحظة التي قرر فيها اليهود في نهاية القرن التاسع عشر استعادة سيادتهم الوطنية في فلسطين جزء أرض كانوا يشيرون إليها دائماً كأرض إسرائيل والتي يحتلها شعب آخر ،فجذور الصراع تكمن في الصدام المأساوي بين مجموعتين من الدوافع والعمليات التي في البداية كانت أساساً مستقلة عن بعضها البعض ولكنها مع الوقت صارت متشابكة لا يمكن فصلها، إنه صدام بين مجموعة أهداف ودوافع دفينة كل منها تبلور في ظروف وأماكن وأوقات مختلفة تماماً ،يدفع المتصارعين إلى حروب عنيفة مستمرة " ،كما قال شيمون بيريز يوماً "إسرائيل ستواصل الوجود وخصومها لن يستسلموا "... والحل؟!! من وجهة نظر إسرائيل وداعميها وقد نجحوا في فرضه إلى حد بعيد تحييد القضية وإنزالها من قمة الأولويات ثم تجاهلها وبعد ذلك إعتبارها عقبة في سبيل تحقيق الرخاء والتقدم فالتنازل عنها للصالح العام للجماعة والعيش برخاء وسلام ،رؤية بلفور التي صاغها منذ أكثر من مئة عام وجهة النظر هذه تتبنى رؤية أن إسرائيل التي تتبنى الفلسفة الصهيونية في خلق كولونيالية ناجحة للروح اليهودية ولأرض فلسطين التي هي أرض غير نقية منحرفة يقع عاتق تطهيرها على الصهيونية وهذه هي القضية المصيرية التي تقتضي ربط شعب مهجن بأرض وتقطيع أواصر الصلة بين شعب أصلي بنفس الأرض في إطار صراع ثقافي قائم من أجل تصحيح إنحراف تاريخي يتمثل في وجود الشعب الأصلي على هذه الأرض وإعادة التاريخ لمساره الصحيح بعودة أشتات الشعب الهجين إليها ليخلق حضارته الجديدة ولتحقيق هذه الغاية يصبح العنف مقدساً ونوع من ترويض الأشرار وأحد مراحل النضال من أجل الوصول للسلام

الحقيقي ، والحل الوحيد الذي يقود إلى كسر دائرة الشر (ترويض الأشرار) واضح في رأي شيمون بيريز ويكمن في سحق حواجز الكره والحقد ورفع شعار لاحروب بعد اليوم ولا سفك دماء.

أما على الجانب الفلسطيني فالرؤية كالتالي: لقد مررنا بعقود من اللاسلم واللاحرب ،الكثير من المعاناة والتشريد بلاذنب سوى أننا ننتمي لهذه البقعة من العالم ،عقود من الاكتئاب والمرارة والقلق والإحباط والانسحاق والمعاناة واليأس دون قيادة قادرة على الفعل حتى ،الصهاينة صنعوا المشكلة ،العرب تخلوا عنا ،العالم تجاوزنا واكتفى بمساعدتنا خيرياً وإنسانياً ،الجميع يتعامل معنا كأننا قبيلة نزحت أو هجرت من مضاربها والتعليم والثقافة ظلا الملاذ الوحيد للحفاظ على الهوية وحلم العودة ،مفاتيح بيوت الأجيال التي تورث في المهاجر من جيل إلى جيل ،الحفاظ على مشاعر الغبن وإثارة السؤال لماذا ينكرعلينا العالم حقاً أعطاه لليهود دون صفة ؟؟! حتى ولو سلمنا جدلاً بوجوده يوماً ألم يسقط بالتقادم بعد ألفي عام وخمسين جيل؟! كيف يطلب منا أن نترك أرضنا فقط بعد جيل أو إثنين أو حتى خمسة.

الحقيقة أن الفلسطينيين يتحملون جزءاً مما جرى فقد ظهر واضحاً للعيان منذ اللحظة الأولى لسقوط القدس في أيدي البريطانيين عشية الحرب العالمية الأولى عدم قدرتهم على إنشاء كيانات موحدة تتحدث عنهم وتدافع عن حقوقهم وغلبت الأسر الكبرى والعائلات من المدن مصالحها الشخصية ولم يبالي سكان الريف كثيراً بما يجري رغم إحساس الجميع القومي وإيمانهم بوحدة هويتهم لكنهم عجزوا عن ترجمة ذلك لفعل ملموس فأغلبية الشعوب في تلك الفترة كان لديهم ميزة العلم والثقافة والتواصل مع الآخر ،كما أنهم كانوا بأغلبيتهم أوروبيين بيض أقرب في الفكر واللغة والشكل والعلم لصانع القرار في تلك الفترة ،إضافة إلى أن القيود المفروضة على الفلسطينيين كانت مضاعفة بالإحتلال البريطاني والإستيطان الصهيوني معاً ،لابد من الإعتراف بأنه في وقت إعلان بريطانيا الإنسحاب من فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الثانية وجد الفلسطينيون أنفسهم أمام دولة أوروبية حديثة بكل أجهزتها وسلطاتها وأنظمتها يديرها أفراد على قدر عالٍ من التعليم ولديها وفرة في التمويل

إضافة لدعم أقوى دولتين في العالم في تلك الفترة وهما الإتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بينما كان الفلسطينيون أمام هذا كله شعباً أعزلاً فقد أغلب رجاله القادرين أثناء الحرب والمقاومة أثناء المذابح والتهجير والإبعاد.

كان هدف الحكومة الجديدة واضحاً منذ البداية دولة يهودية نقية كما أوضح يوسف فايتس مدير دائرة الأراضي التابعة للصندوق القومي اليهودي في ٢٠ديسمبر ١٩٤٠م "يجب أن يكون واضحاً فيما بيننا أن لا مكان في هذا البلد لشعبين، إذا ماغادرها العرب ستصبح البلد شاسعة رحبة لنا :الحل الوحيد هو أرض إسرائيل دون العرب، ولا مكان للمساومات ليس هنالك من طريق آخر نسلكه سوى القيام بترحيل العرب إلى البلاد المجاورة. أي أن نقوم بترحيلهم مع إبقاء أولئك ربما في بيت لحم والناصرة والقدس القديمة، يجب ألا تبقى قرية واحدة ويجب ألا نبقي قبيلة واحدة يجب أن يتم الترحيل (الترانسفير) بإتجاه العراق وسوريا، وحتى شرق الأردن. ومن أجل تحقيق هذا الهدف لابد من تدبير الأموال. بعد الترحيل فحسب سيصبح هذا البلد قادراً على إستيعاب ملايين من إخوتنا عندها لن تبقى هنالك مشكلة يهودية قائمة".

تحققت رؤية فايتس وحلت محل المشكلة اليهودية المشكلة الفلسطينية، الخطأ الحقيقي الذي وقع فيه الفلسطينيون على مدار المراحل السابقة كان الإحتكام الدائم للدول الكبرى كوسيط لإعطائهم حقوقاً يرون أنها عادلة متناسين في كل مرة أن مصالح هذه الدولة مدعومة برؤيتها الثقافية هي السبب الرئيس في إنشاء دولة إسرائيل، هنري كسينجر قال يوماً وكان محقاً في قوله "لإسرائيل سياسة داخلية ولكن ليس لها سياسة خارجية"، السياسة الخارجية تصنعها الدولة الراعية الولايات المتحدة ،منذ عصور الإمبراطوريات الرومانية والفارسية وعلى مرالقرون دائماً ما كانت هناك قوى عظمى لها مصالح كبرى في الشرق الأوسط إضافة إلى الارتباط الديني والعاطفي الذي يربط هذا الجزء من العالم بالديانات الإبراهيمية على الأخص الديانة المسيحية وأتباعها من الطائفة الإصلاحية البروتستانتية الذين يحلمون بصنع أساطيرهم الخاصة في مملكة الله، التي سبقهم إليها الأرثوذكس والكاثوليك من أتباع الديانة

الذين يريدون صنع مملكة الله على الأرض وهداية اليهود لتتحقق النبوءة، ولأن أغلبية الشعب الأميركي ينتمي للطوائف البروتستانتية المختلفة ولأنهم بمعظمهم هجروا أوروبا القديمة بحثاً عن الحرية والهروب من الظلم ولأنهم رأوا أن دورهم المقدس في إعمار الأرض الجديدة لا يتعارض مع إبادة السكان الأصليين لها لأنهم جهلة وكفار وقذرين وغير قادرين على إستثمار مواردها، فقد كان الفكر الصهيوني أكثر قابلية للإستيعاب في الولايات المتحدة عنه في أوروبا التي رأت فيه مجرد خادم وفيّ لمصالحها وبلورة لفكرها الكولونيالي، ولهذا كله إنغمس الأميركان في وقت مبكر جداً في شؤون الشرق الأوسط رغم قلة خبرتهم مقارنة بالأوروبيين الذين كانوا على مدار قرون مرتبطين بالشرق بعلاقات الحروب والغزو والتجارة والحج والزيارة، ومع فجر الثورة الصناعية والتطور الثقافي للدول الأوربية أنشأت هذه الدول المعاهد ومؤسسات البحث في ثقافة الشرق ولغته وديانته وكافة جوانبه الحضارية، الولايات المتحدة دخلت هذا المعترك بداية عبر الإرساليات التبشيرية والكنائس في فترة كان لمكتب الهند والشرق الأدنى - وهو فرع المخابرات البريطانية والدعاية – السطوة الكبرى في المنطقة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وإنشاء وكالة المخابرات الأميركية التي أصبح لها اليد الطولى فيما يدور وراء كواليس المنطقة.

السياسة الأميركية كانت واضحة جداً من البداية في إنحيازاتها، منذ عصر الرئيس الأميركي وودرو ويلسون صاحب المبادئ الأربع عشر التي يروج لها على أنها بداية عصور التحرر من الإستعمار في نهاية الحرب العالمية الأولى، ورغم أن الإتجاه العام في السياسة الأميركية كان متشككاً في قدرات الصهاينة وفي أن دعمهم قد يفيد الولايات المتحدة وضع الرئيس ويلسون اللبنة الأولى في سلسلة من الأساسات التي حكمت قرارات خلفائه في الدعم المطلق لإسرائيل التي كانت مجرد جيتوهات مشرذمة، في عصر ويلسون دعم وعد بلفور والتزام الإنتداب البريطاني بإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين رغم علمه التام بتقرير لجنة " كنج – كرين " التي أوضحت أن فلسطين أرض ماهولة بالكامل بمواطنين عرب وأنهم يعارضون تماماً إقامة دولة يهودية وأن نتائج الإصرارعلى هذا ستكون كارثية وهو ما حدث بالفعل، عمد ويلسون

لإخفاء تقارير اللجنة وانقلب على المبدأ الثاني عشر من المبادئ التي كان قد وضعها ونص على ضمان سيادة الأجزاء التركية من الدولة العثمانية المنهارة وإعطاء الشعوب الأخرى غير التركية التي تخضع لها حق تقرير المصير واعتبر ويلسون مافعله واجباً مقدساً ،وأصبح هذا النهج تقليداً أميركياً متبعاً بعده من خلفائه وصكت وصيغت مصطلحات من نوعية حق إسرائيل في الوجود مروراً بحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها إنتهاء بحق إسرائيل في إقامة علاقات طبيعية مع جيرانها.

المنعطف المفصلي الثاني الذي وضع أسس التقاليد الأميركية في التعامل مع القضية الفلسطينية قام به الرئيس هاري ترومان وهو يعترف بقيام دولة إسرائيل فور الإعلان عن ذلك في العام١٩٤٨م ضد رغبة مستشاريه وهو يقول لهم: "أنا آسف أيها السادة لابد أن أستجيب لرغبة مئات الآلاف من الناخبين المتطلعين لنجاح الصهيونية. وعلى حد علمي لايوجد لدينا مئات الآلاف من الناخبين العرب المتطلعين للعكس".

المنعطف الأهم للسياسة الأميركية تجاه القضية الفلسطينية والشرق الأوسط صنعته إدارة جونسون في ٥يونيو ١٩٦٧م – حرب الستة أيام – كما يطلق عليها كانت الفاتحة الحقيقية لما يجري اليوم ، هو نفسه ما أكده الباحث الإسرائيلي الأميركي مايكل أورين في كتابه – ستة أيام من الحرب ... يونيو١٩٦٧ وصناعة الشرق الأوسط الحديث – حين قال "حرب يونيو لم تكن فاتحة لكتابة شهادة وفاة القومية العربية والحرب على الإستعمار ودفنها في نفس القبر زعيم القوميين"، بل كانت النقطة الفاصلة في صراعين، الأول بين القوتين العظميين اللتين كانتا تخوضان حرباً آخرى في فيتنام ،والثاني هو صراع العالم الثالث وحركاته الوطنية ضد الإمبريالية والراديكالية ،منذ عام١٩١٩م تنبأ لورنس العرب أن إسرائيل هي الفرملة الوحيدة التي تستطيع إيقاف المد القومي في المنطقة العربية ،أميركا تبنت النبوءة وإسرائيل حققتها ،تم إستبدال المد القومي بالإسلام السياسي وبعد هزيمة الإسلام السياسي الذي هو في أساسه مشروع بلا رؤية واقعية فتح المجال فسيحاً أمام الشرق الأوسط الجديد. في إستراتيجية وضعها والتر روستو مستشار الرئيس كندي ومن بعده جونسون للأمن القومي وضعت

الملامح الواضحة للسياسة الأميركية القائمة من خلال إسرائيل ،هو إعادة صياغة مجتمعات الشرق الأوسط الماقبل حداثية في مسار الحداثة القائم على الإقتصاد الصناعي والمجتمع المستهلك للبضائع المنتجة من خلال إعادة صياغة المجتمعات ماقبل الحداثية عن طريق سياسات مستنيرة وتحديثها من خلال مزج أفكار نظرية الحداثة الأميركية بالبترو دولار العربي، فالشرق الأوسط الضعيف قليل الخبرة والمهارة والقدرة على حل مشكلاته وصولاً لطريق السلام والاستقرار والرخاء المنشود لابد له من شيئين ،الأول هو مساعدة الولايات المتحدة لشعوبه لكي يتغير ويرسي قواعد جديدة مستقرة للحوار ،والثاني حل مشكلتيه الرئيسيتين المتمثلين في النزعة القومية والميل لعدم الإكتفاء ،هذه الإستراتيجية تتطلب وجود إسرائيل بحدود آمنة وقدرة على الردع وأيضاً كمثل للإحتذاء لضمان إستمراريتها وتحقيق أهدافها بعد حرب ١٩٦٧ ثم حرب ١٩٧٣ التي كانت تهدف لترويض إسرائيل هذه المرة لتتخلى عن تعنتها وتخضع للسيد الأميركي وتقبل بشروط الهدنة التي رفضتها وقبلتها الدول العربية – الملاحظ كما يرى عزمي بشارة أن خطاب الهدنة وجه للدول العربية سوريا – الأردن – مصر ولم يكن فيه أي ذكر للفلسطينيين – لم يحدث أي تغيير في السياسة الأميركية سواء أفاز الحزب الجمهوري أو كان النصر من حظ غريمه الديمقراطي في الإنتخابات فعلى تعاقب الإدارات الأميركية في ثمانينات وتسعينات القرن العشرين ومع كثير جداً من الخلخلة والهزات والصراعات، ومع تنامي خطورة ما يسمى بالإسلام السياسي والرعب من المد الشيعي القادم من إيران ،وتقدم إسرائيل الثابت في تحقيق أهدافها الإستيطانية والتوسع في الرقعة المسموح لها باللعب فيها رغم أن صانع القرار الإسرائيلي لديه قناعة أنه قد أجبر مرة على إقتسام إسرائيل التاريخية مع الأردن فلماذا عليه إقتسامها مرة أخرى مع الفلسطسنيين؟! ورغم الإحساس بالغبن والتساؤل لماذا علينا قبول كيانات معادية لوجودنا في قلب دولتنا؟! ولماذا على دولتنا أن تكون بلا عمق إستراتيجي يجعلها مكشوفة أمام الأعداء؟!

مشت الدول العربية وإسرائيل صوب الإعتراف المتبادل والتعاون المشترك الطريق الذي تراه الولايات المتحدة السبيل الأوسط لحل الصراع الذي امتد على مدار قرن من الزمان،

إنتفاضتان -غزوان للبنان -حرب أهلية ومذابح في مخيمات اللاجئين – إتفاقيات في أوسلو ومدريد – سلطة مدجنة أشبه بقوة شرطة، كلها كانت علامات على طريق خاضته إسرائيل والإدارات الأميركية المتعاقبة لحرث الأرض وتمهيدها لزرع بذرة التطبيع، إستمر الحرث في عهود ريغان وبوش الأب والإبن مروراً بكلينتون وأوباما حتى ترامب الذي في عهده ظهرت الثمار الأولى.

في حديث أجرته القناة العبرية بعد مؤتمر بنيامين نتانياهو للإعلان عن الإتفاق مع الإمارات مع مهندس الإتفاق رجل الأعمال الأميركي من أصل مصري حاييم صبان ،قال صبان "لقد قلت لمحمد بن زايد إنكم تقيمون علاقات مع إسرائيل من تحت الرادار، لماذا لا تجرونها في العلن؟! فكان رده إن ذلك اليوم سيأتي لاحقاً – وأضاف صبان أعتقد أن السعودية ستنضم لهذه المبادرة لكن ذلك قد يستغرق وقتاً أطول" ،رشيد خالدي وصف يوماً الدول العربية بأنها مجموعة من الأنظمة تديرها شركات للعلاقات العامة للدفاع عن وجودها وهو لم يخرج كثيراًعن الواقع ،الشيء الوحيد الذي كان يمنع الدول العربية من الإعتراف بإسرائيل هو الحفاظ على وجودها أمام المد القومي العربي الذي كان يحرك الرأي العام الوطني ويعتبر القضية الفلسطينية قضية وجود بإعتبار أن أميركا بإمبرياليتها ومشاريعها الرأسمالية هي الموجد الأساسي للمشروع الصهيوني في منطقتنا وأنها به تسعى لإبتلاع المنطقة إقتصادياً. الأنظمة العربية تعرف أن وجودها يعتمد على الإمبريالية الأميركية كما إعتمدت نشأة أغلبها في أعقاب إنهيار الدولة العثمانية على تقسيمات الإمبريالية البريطانية وبعدم وجود معارضة شعبية للتعاون مع إسرائيل يصبح من المنطقي التحالف معها حتمياً من وجهة نظر هذه الأنظمة أمام أخطار تبدو أكثر واقعية مثل الطموح العثماني التركي والمد الشيعي الإيراني ،مسألة الحق الفلسطيني من وجهة نظرهم هي مسألة ثانوية لأن وجودهم نفسه مهدد كما أنه قد تم التغاضي عنها كثيراً ومنذ البدء ،فقبل حديث صبان وبن زايد بعقود بعد إعلان قيام الدولة العبرية في العام١٩٤٨ أرسل جورج مارشال صاحب المشروع الشهير لإعادة إعمار أوروبا ووزير خارجية الرئيس الأميركي هاري ترومان برقية شكر للحكومة السعودية

يثني على حيادها وتعاونها ومساعدتها ودعمها للموقف الأميركي فيما يخص فلسطين ، ليس هناك أية غرابة في الأمر فوجود كلاً من المملكة وإسرائيل ضروري للإقتصاد وللمصالح الأميركية ،الآن لم يعد من الضروري إخفاء التعاون والصداقة الإسرائيلية العربية فلم يعد الأمر مستهجناً بين الشعوب العربية ،جاءت اللحظة التي تحدث عنها بيريز واضع مشروع الشرق الأوسط الكبير "لقد آن الأوان للطرفين أن ينظرا إلى بعضهما ليس كخصمين تقليديين بل كشعوب وأن يعملا على تفهم الرغبات والشكوك والآمال والمخاوف على الجانبين ... إن كسر الحاجز النفسي يظل شرطاً أساسياً ومسبقاً للنجاح في عملية البحث عن السلام والرخاء في الشرق الأوسط ،أما هؤلاء الذين لا يستطيعون تكييف أنفسهم وتفكيرهم مع الحقائق فلن يتمكنوا من تأمين مستقبل آمن لبلادهم".

مازال الأمر صعباً بعض الشيء الطريق ليس ممهداً بالكامل فمازالت مواريث الحروب والقومية وأحلام العروبة والنهضة والإنتصارت متأججة في قلوب الكثيرين على الأخص في دول المواجهة ،وهذا ما قصد به ترامب الدخول من الباب الخلفي – باب الخليج – دول ليست في حالة مواجهة مباشرة مع إسرائيل وفي مواجهة عدو آخر يعتبرونه خطراً وجودياً - إيران والمد الشيعي – هذا الباب الذي يمول الفلسطينيين ويملك أوراق الضغط عليهم ليس لديه ثارات ودماء ونار مع الصهاينة لذلك كان الدخول منه سهلاً محملاً بالأغاني والأهازيج والتعاون العلمي والإقتصادي على عكس حالة البرود والجمود التي تسود إتفاقية سلام مر عليها أربعة عقود جليدية ،الحل في كسر الجمود من وجهة نظر بيريز كان الإقتصاد ،هو ليس فكر بيريز بالضبط بل فكر روستو ومن تلاه في الإدارة الأميركية في كيفية ربط الشرق الأوسط بعجلة الإقتصاد الأميركي "الشرق الأوسط لن يستورد البطالة ويصدر الجوع ،إن نشوء منظمة إقليمية لهو أمر محتوم هنا حيث بدأت الحضارة الغربية".

قدرنا هو أمركة العالم كما قال روزفلت وهذا ما يحدث بالفعل ،الذي ينظر إلى التطورات الحالية عليه أن يضع في إعتباره أن الكونجرس الأميركي وافق على قانون أمن طاقة شرق المتوسط الذي يجعل من الولايات المتحدة اللاعب الرئيسي في سوق الغاز في المنطقة

وصاحب ذلك توقيع قرار رئاسي يفرض عقوبات على كل من يساعد شركة غاز بروم الروسية في أي نشاط في ذات المنطقة ، ولذلك فإن ما صاغه بيريز وتحدث عنه وهو قيام هيكل إقليمي منظم يخلق إطراً جديدة للمنطقة ويوفر القدرة على النمو الإقتصادي والإجتماعي ويطفئ التطرف الديني ويبرد ما أطلق عليه رياح الثورة الساخنة لهو مطلب أميركي أكثر منه إسرائيلي، ويرى بيريز أيضاً في خطته "أن السلام بين إسرائيل وجيرانها العرب سيخلق البيئة الموائمة لإعادة تنظيم مؤسسات الشرق الأوسط ،بصورة أساسية أن التوافق وقبول العرب بإسرائيل ذات حقوق ومسؤوليات متساوية ،سينجب نوعاً جيداً من التعاون لا بين إسرائيل وجيرانها فحسب ،بل بينها وبين البلدان العربية أيضاً ،وذلك سيغير وجه المنطقة ومناخها الأيدولوجي" ،وحدد بيريز الهدف النهائي "بأنه خلق أسرة إقليمية من الأمم. ذات سوق مشتركة وهيئات مركزية مختارة، على غرار الجماعة الأوروبية وهذا الهدف يقوم على عدة محاور مركزية :

- الاستقرار السياسي
- الاقتصاد الإقليمي القائم على الإستثمار.
- الأمن القومي.
- إشاعة الديمقراطية حيث أن التخطيط لشرق أوسط جديد هو ممرالإنتقال لمستقبل جديد للجميع .
- الأمن الإقليمي بنزع السلاح المتبادل وفرض سلطة نظام إقليمي .
- الاقتصاد الإقليمي .

في هذا المجال كانت رؤيته "إننا لنحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى رجالاً ونساء يحملون أفكاراً جديدة وتصورات خلاقة غير هيابين من الصعاب التي تبرز في مجرى بناء عالم جديد جريء".

بن جوريون قال "إن كل الخبراء هم خبراء فيما كان. وأننا بحاجة إلى خبراء فيما سيكون".

كانت عوامل الوحدة التي رآها بيريز للمنطقة المختلفة حتى على الصعيد الإقتصادي والإجتماعي ومستوى المعيشة هي أربعة أحزمة:

- الأول : هو ضرورة تقليص الإنفاق على السلاح بدون المساس بالأمن القومي الكلي.
- الثاني: مكافحة فقر المياه والتصحر والحاجة للتكنولوجيا الحيوية.
- الثالث: هو تطوير الهياكل الإرتكازية للنقل والإتصالات والحدود المفتوحة.
- الرابع: السياحة: للسياحة قيمتها السياسية المذهلة لأنها تستلزم يل وتستوجب فرض السكينة فهي تضارع في قوتها واهميتها قوة بوليس دولي (مشاريع مثل نيوم ومشاريع الجزر في البحرين والسعودية والإمارات من الممكن أن تكون مثالاً جلياً على رؤية بيريز).

بعد ذلك أو قبله يرى بيريز "إن رخاء الأمم يأتي حصيلة تجميع المعرفة. فالمعرفة هي الثروة الحقيقية في القرن الواحد والعشرين، يقول بيريز "الواقع أن التعاون في التعليم مقترناً بالإعتراف المتبادل بالجيران ،والقبول بشرعية الوجود والخبرات المتبادلة من شأنها أن تضمن للأجيال القادمة كيفية الحفاظ على السلام ،فالسلام قادر على فتح الأبواب على الحقول المكتشفة حديثاً في مجال المنطق والقيم والمعرفة ، فالقوة الحقيقية بل وحتى القوة العسكرية لم تعد توجد في المعسكرات بل في حرم الجامعة ،وأصبح يترتب على السياسات أن تمهد الطريق بعيداً عن الإستراتيجية العسكرية إلى الذخيرة السياسية والإقتصادية المخصبة".

الصراع الحقيقي في الشرق الأوسط من وجهة نظر بيريز هو مكافحة الفقر في مجتمعات لم تدخل بعد إلى أعتاب الحداثة "نواجه أيضاً في الشرق الأوسط عدواً مشتركاً هو الفقر. إن الفقرهو أبو الأصولية، وهو خطر داهم على التقدم والتنمية والحرية والازدهار، سنخسر كثيراً إذا لم نؤسس إطاراً إقليمياً يهز كهنة الهلاك .... ولدينا الكثير مما سنكسب لو أننا عرفنا كيف نردم هوة الدم والدموع ... لو أننا تطلعنا إلى أفق الأمل الرحب ولم نلتفت بغضب إلى الوراء".

"في البلدان العربية كما في المجتمعات التي تفتقر إلى بنى عصرية وتوزيع منطقي للثروة

الوطنية ومستوى لائق للحياة ،قد لا تشكل الديمقراطية على النمط الغربي البديل المناسب عن الحكم العربي ... إن التحول من الحكم الفردي إلى الديمقراطية يتطلب مزيجاً من التنمية الإجتماعية وضمانات أمنية ... لأن غير ذلك معناه غياب الولاء للسلطة والنظام السياسي ومؤسساته الجديدة ... وفي غياب هذا الولاء تظهر الديماجوجية التي تجد في البؤس الجماهيري مرتعاً خصباً لها لتبرز الأزمة الناجمة عن التعارض بين شعارات حقوق الإنسان وشعارات الإسلام السياسي العاجزة عن تقديم بداية فكرية جديدة في سياسة المنطقة وتكون النتيجة عدم قدرة الناس على إستيعاب وهضم القيم الديمقراطية مالم تصاحبها عملية تحديث موازية وانفتاح على العالم وتحقيق الرخاء الإجتماعي.

حلم بيريز الذهبي أو وعده بالرخاء يرى أن "ما يصلح لبقية العالم يصلح لإسرائيل والعالم العربي فالقدر نقلنا من عالم تسوده الصراعات الإقليمية إلى عالم تحكمه التحديات الإقتصادية والفرص الجديدة التي وفرها التقدم الفكري الإنساني ".

الشرق الأوسط عليه أن ينتقل من إقتصاد صراع إلى إقتصاد سلام مما يعني حصر المصادر لتطوير بنية تحتية تلائم عصر السلام، وبناء الطرق وتمديد خطوط السكك الحديدية ،وتحديد المسارات الجوية وربط شبكات النقل وتحديث وسائل الإتصالات وتوفير النفط والماء في كل مكان وإنتاج البضائع والخدمات عن طريق الكمبيوتر ،وأن هذا سيكون بمثابة حياة جديدة للشرق الأوسط ، رقصة رائعة كما وصفها بنيامين ناتانياهو دخلها من الباب الخلفي كما قال ترامب ،يعارضها المتشددون اليهود ويرون أن لها خسائر كبيرة على المدى الطويل وأنها كرست عبودية إسرائيل للولايات المتحدة، ولا مكان فيها منذ اللحظة الأولى للفلسطينيين. إتفاق إبراهيم كما أطلق عليه ترامب بداية رقصة إسرائيل الرائعة نحو الشرق الآوسط الكبير.

بحسب الكتاب المقدس أن الرب خلق العالم والبشرية فخذلوه ولكن من خلال إنطلاقة جديدة، إختار شعباً واحداً ليؤمن به، وليعلم الأمم والشعوب (التكوين ١- ٥٠) هذا الشعب الذي حفظ طرق الرب من خلال معاناته، التي أعقبت خلاصه أصبح هو شعب الرب

المقدس الذي سيتقدم الأرض الموعودة والتي سيحتفظ بها على شرط الإيمان والإخلاص ،فكان على بني إسرائيل أن يطردوا السكان الأصليين ويحلوا محلهم بسبب شرورهم لكي ينفذوا وعد الرب الذي قطعه لإبراهيم وإسحق ويعقوب، هذا الميثاق والعهد المقطوع هو العيش في الأرض بسلام ورخاء والعفو عن العقوبة الأكبر وهي معاناة ضياع الأرض المقدسة التي يقيم الرب في وسطها.

قدر إسرائيل الديني من وجهة نظر حكامها أن تعلم شعوب المنطقة وتقودها للرخاء بعد أن تمنيها بهزيمة فادحة كما يقول إسحاق رابين "لقد شهدت منطقتنا مراحل من التغيير المثير منذ أيام الأجداد" ،"النبي إبراهيم كذلك ،عايش مراحل من الجوع والقحط وتوالت على المنطقة عهود صعبة سادتها الزلازل والفيضانات ناهيك عن الحروب وسفك الدماء لكن الزمن تغير" ،وعد إبراهيم يتحقق لعل إسم أول طائرة إسرائيلية تهبط في مطار إماراتي إحدى دلالات تحقق الحلم كريات جات إسم المستوطنة التي أقيمت على أنقاض عراق المنشية والفالوجة آخر موقع سقط في أيدي اليهود في حرب عام١٩٤٨، الزمن الجديد والحلم الجديد لا مكان فيه للفلسطينيين ،ومن البداية لا مكان لهم في العهد المقدس، الشرق الأوسط الجديد يقوم على فرضية أن "الفلسطينيين لن يهزموا إسرائيل ،وأن الأعمال الإرهابية المنظمة منها والعشوائية بما فيها من نسف وإختطاف بشر وخطف طائرات ،وطعن جنود لن تطفيء الشعلة الوطنية في إسرائيل، كما يقول بيريز "نحن شعب ذو حزم وما من قوة على وجه البسيطة تستطيع أن تحملنا على مغادرة هذه الأرض بعد خمسين جيلاً من العيش في الشتات والاضطهاد والعذاب والعبادة ،لن نتزحزح من المكان الوحيد في هذه الدنيا الذي نستطيع فيه أن نجدد إستقلالنا ونكفل سلامتنا ،ونعيش بإحترام وشرف مع جيراننا. إننا نريد إقامة جيرة صادقة مع جيراننا"، بهذا المنطق يصبح الفلسطينيون هم المعتدون والدخلاء وسبب تعكير الصفو ومنذ البداية تتفق السياسة الأميركية مع هذه الرؤية، فهذه السياسة بنيت على تجاهل الوجود الفلسطيني أو التعامل معه كقضية تخص الرأي العام العربي والإسلامي تجاه الولايات المتحدة ولذلك فإن إضعافها ومحاولة تفكيكها هو الحل وليس

تحقيق حل عادل لها ،لألكسندر هاملتون أول وزير خزانة أميركي مقولة شهيرة (النجاح لا يعرف الأخلاق) مازال هذا شعار السياسة الأميركية حتى يومنا هذا وعلى الفلسطينيين ألا يخدعوا أنفسهم بأوهام عكس هذه المقولة ما هو حق وعدل وخير محكوم بمصالح الدول والحكومات والإمبرياليات الغربية حكمت على الشعب الفلسطيني بالهزيمة منذ رفعت شعار "دع العرب يتشجعوا على الخروج ...عندها يدخل اليهود"، الآن الجميع يتعامل مع الفلسطينيين بإعتبارهم شعباً مهزوماً عليه القبول بالمال والتعويضات وربما ب٤٠٪ من الضفة الغربية وأغلب قطاع غزة مع أجزاء قاحلة من النقب وذلك من أجل تحقيق رخاء إقتصادي وتحسن في الحالة المعيشية للجميع ،أما عن الدولة والعودة والحق في الحياة الآمنة التي تحدث عنها بيريز لشعوب المنطقة فهيهات، غاية ما يحمله لهم المستقبل ذكره جاريد كوشنر المبعوث الأميركي للشرق الأوسط "نأمل أن يكونوا قادرين على حكم أنفسهم بمرور الوقت" ،مقولة إمبريالية متغطرسة تستدعي للأذهان ما قاله وينجت المندوب السامي البريطاني للوفد المصري المطالب بالإستقلال بعد الحرب العالمية الأولى "الطفل إذا أعطى أكثر من حاجته من الحليب يصاب بالتخمة " ، الجميع يرى الآن أن فرصة الفلسطينيين تكمن في تحسين ظروف أسرهم بحياة أفضل وإقتصاد أكثر رخاء.

إذا هل انتهت القضية الفلسطينية بوفاة الحلم القومي؟! وماذا بعد؟! ما الذي سيواجهه الفلسطينيون بعدما تخلى عنهم الجميع؟؟

بداية لابد من الإعتراف أنه لا يوجد حل سهل أو سريع سيشهده هذا الجيل وربما أكثر من جيل قادم للقضية الفلسطينية فما تشكل عبر عقود وأجيال وبني عبر مئة عام يصعب نقضه في فترة قصيرة، نحن لسنا في عصور طرد ممالك الإفرنج من بيت المقدس والشام ولا طرد العرب من الأندلس وإن كان هذا أيضاً استغرق عقوداً ،كما أن بيريز محق فاستعمال العنف في المقاومة يجعل من الظالم ضحية ومن المظلوم معتدياً، الحل يكمن في تفكيك المعادلة التي أدت إلى خلق الدولة الصهيونية وعلاج كل نقاط القصور والضعف التي شابت الكفاح الفلسطيني، بيريز كان محقاً مرة أخرى عندما قال أن ميدان المعركة الحقيقي هو

العقل، العلم ساحات الأكاديميات ،البداية في الوحدة والتخلص من إنقسامات الصف وأيضاً التخلص من الإعتماد على الآخرين، إحياء فكرة أن القضية ليست قضية فلسطين بل هو صراع عربي ضد المشروع الإمبريالي الذي يهدف لإستغلال شعوب المنطقة ،فهو رغم بريقه الذهبي لكن حقيقته تهدف إلى خدمة مصالح الولايات المتحدة على حساب المواطن العربي ،الحوار مع شعوب وأرض فقدتها القضية الفلسطينية في زخم الصراعات بين أطياف المقاومة وركض وراء الوسيط الأميركي ،مواكبة مصالح الشعوب الأخرى، السير في نفس الطريق الذي مشى فيه اليهود على مر قرون لإثبات قضيتهم ،وإنتهاز كل فرصة لإثبات الوجود ومقاومة كل محاولات الكيان الصهيوني لمحو الهوية وخلخلة الثوابت ،الحفاظ على التراث الثقافي والصمود والقومية والوحدة هم بداية الطريق الطويل نحو الحق ونحو العودة.

مشروع فلسطيني متكامل في الداخل والخارج للحفاظ على الهوية وبيان الحق هو البداية.

سِجِلّات محكمة القدس الشَّرعيَّة: فهرستها إنجاز وطنيّ

عزيز محمود العصا*

مقدمة

القدس مدينةٌ يقظةٌ عبر التَّاريخ، وهي في حالةٍ من الحراك الدّائمِ دينيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وعِمرانيًّا وحَضاريًّا. ومنذُ أنْ دَخَلَها الخليفةُ عمر بن الخطَّاب سلميًّا واستلم مفاتيحها من البطريرك صفرونيوس، أخذتْ تعجُّ بالعِمرانِ والتَّطورِ على الأصْعِدَة كافَّة. وفي جميع الحقب والمراحل، منذُ الفتح العمريّ، كان هناك توثيقٌ للأحداث يقومُ بهِ القائمونَ على المدينةِ، إلا أنَّ الأحداثَ الكبرى التي مرَّت بها عبر الزمن، كانت السّبب في قِلّة -ندرة- ما وصَلَنا من الأخبارِ المكتوبةِ عنها وعن الأحداثِ الَّتي وقعت فيها، وكانت مخطوطات الرَّحَّالة المُعين الرَّئيس للمؤرِّخين للمدينة.

سنة ١٩٧٤م اكْتُشِفَتْ وثائق في إحدى الخزائنِ في ساحةِ الحرمِ الشّريف بالقدسِ قُربَ بابِ المغاربةِ، يتراوح مجموعها ما بين (١٣٠٠-١٥٠٠) وثيقة تقعُ في (٨٨٣) ورقةً أو مادَّةً، تغطي جزءًا من الحقبتين الأيوبية والمملوكية، يعود أقدَمُها إلى سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، وأحدثُها إلى سنةِ ٨٦٦هـ/١٤٦١م، وتبيَّنَ كذلك أنَّ ٨٠٪ من الوثائق المؤرَّخة ترجع إلى السّنين العَشْر الأخيرةِ من القرنِ الثَّامنِ الهِجْريّ. وفيها عدد من الوثائق الخاصّة بالوقفيّات؛ كالعقارات والدُّورِ، وأجزائها والطرق والأبنية المجاورة(١).

* باحث فلسطيني

ومن أكثرِ المصادرِ شموليَّة عن القدس والخليل كتابُ «الأُنسِ الجليل بتاريخ القدس والخليل» لمؤلّفه مُجير الدّين الحنبليّ، المولود في القدس عام (٨٦٠هـ/١٤٥٦م)، وكان قاضيًا في محكمة القدس الشَّرعيَّة، في أواخر الحقبة المملوكيَّة. ويؤكّد الحنبليّ أنّه ذكر غالب ما في بيتِ المقدس من المدارس والمشاهد ممّا هو مجاورٌ لسور المسجد الأقصى المبارك وغيرِه، وأسماء من عرفه من الواقفين، وما اطّلع عليه من تواريخ أوقافهم. كما أنه استند إلى من سبقه من المؤرّخين، الذين يغطّون الحقب العبَّاسية والفاطمية (والحقبة الصليبية) والأيوبية، وصولًا إلى معاصريه في الحقبة المملوكية(٢). وقد استغرق في جمع كتابه هذا أربعة أشهر مبتدئًا من (١٥ ذي الحُجَّة ٩٠٠هـ/١٤٩٥/٠٩/٠٦م)(٣).

جاء جهد الحنبلي في أواخر الحقبة المملوكية، في حين كانت الدَّولة العُثمانيَّة -تأسَّست سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)- توجِّه ما يُطلق عليهم «كُتّاب التّحرير» إلى الوَلايات العثمانيَّة، يُعيّنون أوضاعَ سُكّان تلك المناطق من مختلف النواحي، وفي أثناءِ التَّسجيلِ يتمُّ تصنيف الأراضي إلى كلٍّ من: خاصّ، زعامت، تيمار، أوقاف وأملاك. ويتمُّ تدوينُ ذلك في دفاتر منتظمة حين عَودَتِهم إلى عاصمة الدَّولة، وكانت السِّجلّات تُنَظَّمُ كلَّ ثلاثين سنة لحصر المرضى والموتى(٤).

في أواخرِ عام ١٥١٦م، أصبحت فِلَسطين تحت السَّيطرة العثمانيةِ، فشمَلتها منهجيَّة الإحصاء والتَّوثيق في دفاترِ التَّحرير الموصوفة أعلاه. وفي عام (٩٣٥هـ/١٩٢٨-٢٩م) شَرَعَتِ الدَّولة العثمانيَّة بتنظيم سِجِلّاتٍ للتَّوثيق في المحكمة الشَّرعيَّة بالقدس، إلى جانب الاستمرار في استخدام دفاتر التَّحريرِ. واستمرَّ العملُ بها إلى يومنا هذا.

سنتناول في هذا المقالِ وصفًا لهذه السّجلّات وأهمِّيَّة ما تختزنه من معلومات، كما سيتطرَّق المقال إلى الجهود المتعلِّقة بفهرستها، وجعلها سهلة المنال للباحثين في شأن القدس ومحيطِها بشكل خاص وفِلَسطين وبلاد الشَّام بشكل عام.

سِجِلّات محكمةِ القُدْسِ الشَّرعيَّة- لحظة الانطلاق والتَّتابع:

هناك خطأ شائع بين الباحثين، وهو «اعتبار تاريخ أوَّل سجلّ في محكمةِ القُدْسِ الشَّرعيَّة يعود لعام (٩٣٦هـ/١٥٢٩-٣٠م)»، وأما الحقيقة فهي ما اكتشفته الباحثةُ عبلة المهتدي، بإشراف

البروفيسور عدنان البخيت، عندما قامت عام ٢٠٠٨م، بتحليل السِّجِلّات، بأنَّ السّجلّ الأوَّل يبدأ عام (٩٣٥هـ/١٥٢٨-٢٩م) فحمل الرَّقْمُ (١أ) وغطَّى الفترة (٧ شعبان ٩٣٥هـ/١٦ نيسان ١٥٢٩م-٢١ شوال ٩٣٦هـ/١٦ حزيران ١٥٣٠م)(٥).

منذ ذلك العام أخذت السّجلّات تتتابع في محكمةِ القدسِ الشَّرعيَّة حتى مغادرة الدَّولة العثمانية فلسطين عام ١٩١٧م، فأصبح عدد هذه السّجلَّات (٤١٦) سجلًّا، وفق أغلبية الباحثين، إلا أن الباحث محمد العلمي يشير إلى أنَّ عددها (٥٨٥) سِجِلّا، كما يلي: (٤٣٧) سِجِلًّا مرقَّمًا، و(٥) سِجِلّات أخرى لم يتمُّ ترقيمُها، و(١٣٥) سِجِلًّا آخرَ، تمَّ تعريفُها كسِجِلّات ضَبْطٍ، إضافةً إلى (٨) مجموعات من أوراق المحكمة المتفرِّقة تخصُّ الفترة التي تَلَتْ عام (١٢٨٣هـ/١٨٦٨م)؛ أيِ السَّنة التي بدأ فيها العملُ بالتَّنظيماتِ(٦).

موضوعاتُ السّجِلّاتِ:

كانت الوثيقة التي تسجَّل فيها القضية في السّجلّ تُسمّى «حُجَّة»؛ وذلك لصلاحها للاحتجاج بها، وكان القاضي يمضي في أعلاها ويوقّع عليها إذا طلب صاحبها، وفي نهاية الحُجَّة يوقّع الشهود(٧). وبمتابعة الدراسات المتعلقة بسجلات المحكمة الشَّرعيَّة في القدس، يتبين أنها تتوزع على نحو (١٤) موضوعًا رئيسيًّا، منها: الحُجَج الوقفيَّة، وحُجج حصر الإرث للأهالي، وتعداد النفوس لأحياء المدينة، وتوزيعات الصّرّة على الأهالي، والدّعاوى التي نظر بها قضاة النواحي، والفرمانات والأوامر، ووكالات، وزواج، وطلاق، والسجلات العامَّة، وسجلّات القسام العسكري والقسام العادي... الخ(٨).

سجلَّات محكمة القدس الشرعيَّة قانونيَّة بكل المعايير

في العهد العثمانيّ، تألّفت محكمة القدس من الآتية ألقابهم: القاضي، ونوّاب القاضي، والكتبة، وشهود الحال، والمحضريّة(٩)، والتّرجمان، وأحيانًا يحضرها واحد أو أكثر من: الصّوباشيّ، ورئيس الشّرطة، والمعماري باشي، ومحتسب المدينة، وحاكم المدينة المدنيّ أو مير لوائها.

وأمّا مكان انعقادها فكان يُختار بعناية في إحدى المدارس، وفي التّنكزيّة في معظم الأحيان. وأمّا الزمّان فكانت تعقد طيلة أيام الأسبوع بما فيها الجمعة، ولا تغلق المحكمة أبوابها إلّا

ثلاثة أيام عيد الفطر، وأربعة أيام عيد الأضحى. وأمَّا تدوين الحُجَّة فكان يمرّ بسلسلة مراحل توثيقيَّة متتابعة، كما يأتي(١٠):

الأولى: تكتب على هيئة مسودّة وتكون مقتضبة.

الثّانية: كتابة حُجَّة أصليّة تسلّم لصاحب العلاقة في حال طلبه ذلك.

الثّالثة: تدوين الواقعة في سجلّات المحكمة.

الرّابعة: تدوين وإصدار نسخة عن الواقعة بعد مرور زمن عليها، وذلك بناءً على طلب من أحد الأهالي.

وممّا يعزّز القيمة القانونيّة لسجلّات المحكمة الشَّرعيَّة وما تحتويه من حجج أنّ الصّفحات البيضاء والفراغات في السّجلّ (لربما لم يتسنّ نقل مسودّات الحجج إليها) كانت تشطب من خلال كتابة كلمة (صح) أو (بياض صحيح)، وتكرّر عدّة مرّات؛ وذلك لمنع التّدوين عليها لاحقًا. وأمّا شطب الحُجج أو إلغاؤها فكان يتمّ بتعليمات من القاضي مع ختمها، وأحيانًا يدوّن القاضي سبب شطبها. كما أنّ سجلّات المحكمة الشَّرعيَّة لم تتعرّض لأيّ عمليّة تخريب متعمد ذي شأن أو تحريف لحججها بعد تسجيلها سوى ما جرى في سجلّ (١٣) من نزع ورقتين تحملان الصّفحات: ٣٠٠-٣٠٣(١١).

أهمِّيَّةُ سِجِلّات محكمة القدس الشَّرعيَّة ودَوْرُها التّوثيقيُّ

إنَّ دراسة السّجِلّات ترسم ملامحَ المستقبل، وتُمكِّن من التَّخطيط القائم على البيانات والبيّنات الصحيحة والدَّقيقة. وأمّا سِجِلّات محكمة القدس الشّرعيَّة، فإنَّها تتميَّزُ بمجموعة من الخصائص، والسِّمات التي تمنحها أهمِّيَّة خاصّة. ويمكن حصرُ أهمِّيَّة هذه السِّجِلّات بما يلي:

إنَّها من أقدم السّجِلّات المخطوطة، في العصر العثمانيِّ التي تكشف عن جوانب عديدة، من الحياة اليومية لسُكّان القدس. وهناك حُجَجٌ شرعيَّة من العصرين: الأيوبيّ والمملوكيّ أُعِيدَ نسخُها وتفعيلُها في هذه السِّجِلّات؛ ألقت الضَّوْءَ على أوضاع المدينةِ، وجوارِها من النواحي الاجتماعيَّة، والدّينيَّة، والعمرانيَّة... إلخ. وتمتدُّ أهمِّتها هذه إلى مُدُنٍ أخرى، في مختلف أنحاء

بلاد الشام، ومِصْرَ، ومكّة المكرَّمة والمدينة المنورة وغيرها، حتّى إنَّها مصدر لمعلومات هائلة تُشكِّلُ تاريخًا شاملًا لأكثرَ من مدينة، خلال العهد العثمانيّ(١٢).

إنّها مصونة وموقَّعة، أو مختومة من القضاة، في العهود المختلفة(١٣). وكانت اللغة المستخدمة في مداولات المحكمة الشَّرعيَّة في القدس باللغة العربية، حتَّى إنْ كان القاضي تركيًّا، كان يكتب الحُجَّة بلغة عربية متمكنة، كما أنَّ جميع القضاة -عربًا وغيرهم- كانوا ضليعين باللغة العثمانيَّة(١٤).

إنَّ سِجِلّاتِ المحكمة الشّرعيَّة، سواءٌ عقود البيع والشِّراء، أو الوقفيّات، أو تصاريح البناء، أو التَّأجير والتّحكير، أو النِّزاعات... إلخ، ترصد التَّغييرات بالدِّقَّة التي جَرَتْ في المدينة، بحيث نكادُ نجد مبنًى من المباني جرى تشييده دون وجود وثيقة حوله، وبهذا تتحوَّل هذه الوثائقُ إلى مصدر لا غنًى عنه لتتبُّعِ التَّغيُّرات التي طرأت على النسيج العمرانيّ، والتَّخطيط الحضريّ للمدينة(١٥).

أهمُّ الخرائط التي ترسمها هذه السِّجِلّات: التّنوّع العرقيّ، والعائلات، والخارطة الدّينيَّة والطّائفيَّة، وخارطة الطُّرُق والأزقَّة، وخارطة الاستعمالات، والأسواق، والمُسمَّيات، والمَحالّ، والأوقاف الخيريَّة والذّرّيَّة، والقناطر والمباني السّكنيَّة(١٦).

من جانب آخرَ، فإنَّ سِجِلّات المحكمة الشَّرعيَّة في القدس، تتضمّن العديد من الموضوعات، والقضايا التي تصلح لإجراء دراساتٍ، وأبحاث علميَّة رصينة، وحتّى مؤتمرات متخصَّصة على المستوَيَيْنِ: المَحِلّيّ والدَّوليِّ.

ولعلَّ ذُرْوَةَ أهمِّيَّة هذه السّجلّات تكمن في قيمتها القانونيَّة والتَّشريعيَّة؛ إذ وفق ما هو موصوف أعلاه من إجراءات انعقاد المحكمة والمستوى الرَّسمي لمتابعي جلساتها، تُشكِّلُ حاضنة آمنةً ومأمونة للوثائق المختلفة، وأنّه يُمكن الحُكمُ بمقتضاها في الحقوق، بالمحاكم النّظاميَّة والشَّرعيَّة، بلا بَيِّنَةٍ أخرى(١٧).

فهرسة سِجِلّاتِ محكمةِ القُدْسِ الشّرعيَّة:

كان الشيخ يعقوب العفيفيُّ (المتوفَّ نحو ١٩٥٠م) أوّلَ مَنْ وَضَعَ فِهرسة لحُجَجِ الأوقاف المدوَّنة في السِّجِلّات، والذي ما زال معمولًا به في محكمة القدس الشّرعيَّة. وهذا الفِهْرست

على درجة عالية من الدِّقَّة. وفي العقد الثامن من القرن العشرين الميلاديّ، جَرَتْ محاولة فِهْرسة جميع حُجَجِ السِّجِلّات، بَيْدَ أنَّ هذا الجهدَ قد توقَّف في منتصفه، وتَرَأَّسَ هذا المجهودَ الشيخُ أسعد الإمام الحسينيُّ الذي شَغَلَ، أيضًا، مَنْصِبَ القضاء في القدس(١٨).

عام ١٩٨٤م قام مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة بتصوير سجلّات محكمة القدس الشّرعيّة بين ٩٣٦هـ/١٥٢٩م و١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، إلى جانب تصوير وثائق ومخطوطات مقدسيّة، وصدر ذلك في كتيب من (٥٤) صفحة. وبمراجعة الكتيب المذكور، وجدنا أنّه يحتوي فهرسًا عامًّا لـ (٦٢٦) سجلّ تواريخها بين عاميّ (١٥٢٩م-١٩٨٤م)، ويورد الفهرس المعلومات الآتية عن كلّ سجل: رقم الفيلم، والرّقم المتسلسل للسّجل، وموضوع السّجل، وتاريخ السّجل(١٩).

ثمَّ شرع نفس المركز بفهرسة تحليليَّة قامت بها الباحثة عبلة المهتدي، بإشراف البروفيسور عدنان البخيت، أسفرت عن فهرسة سبعة من سجلّاتِ محكمة القدس الشّرعيَّة، ذات الأرقام: ١أ (مذكورة أعلاه)، و١، و٢، و٣، و٢٨٧، و٢٨٨، و٢٨٩(٢٠). فكان الفهرس التَّحليليّ لقيود الوثائق والحجج يبيّن: رقم الحُجَّة/ الصَّفحة، وتاريخ الحُجَّة، ومكان انعقاد مجلس الشَّرع، وخلاصة الحُجَّة، واسم المدَّعي واسم المدَّعى عليه، وهناك تفاصيل أخرى تختلف باختلاف السّجلّ(٢١).

وخلال القرن الحادي والعشرين، قام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا) بتصوير جميع سجلات محكمة القدس الشَّرعيَّة التي كانت متوفرة لدى المرحوم د. محمود عط الله، ذات الأرقام (١-٢٠٣)، وتم تحويلها من صيغة ميكروفيلم إلى صيغة (pdf) أو صيغة صورة (jpg). وقد قام الباحث إبراهيم ربايعة بتحليل عدد منها، بالاستناد إلى ما هو متوفر لدى إرسيكا، وفق منهجية تم التوافق عليها بينه وبين المركز(٢٢).

أجرى ربايعة (٣٥) دراسةً تحليلية لسِجِلّاتِ المحكمةِ الشَّرعيَّة في القُدْسِ، تناولت كلُّ دراسةٍ منها واحدًا من سجِلّاتِ محكمةِ القُدْسِ الشّرعيَّة، إذ تتمُّ فهرسة السّجِلّ، بما يجعله في متناول الباحثين الراغبين في الإفادة من معلوماته، في مختلفِ القضايا والمجالات الحياتيَّة، التي تصف واقع الحال في القدس ونواحيها. ويتبيَّن من الجدول (١) أدناه موجزًا مقتضبًا لكل سجلٍّ من السّجلَّات التي تمَّ تحليلها.

جدول (١): السجلّات الّتي حلّلها الباحث أ. د. إبراهيم ربايعة، بحسب: تاريخ السجلّ وعدد صفحاته وعدد حججه وسنة النشر ودار النشر(٢٣)

بيانات السّجل										بيانات كتاب الفهرسة		
	رقم السّجل	فترة السجل				عدد صفحات السّجل	عدد الحجج في السّجل	المتوسط خفّة/ صفحة في السّجل	سنة النشر	الناشر	عدد الصفحات
		من		إلى							
		هجري	ميلاديّ	هجري	ميلاديّ						
1	16	951	1544	952	1544	576	2080	4	2019	إرسيكا، سلسلة 18	311
2	19	954	1547	954	1547	517	2052	4		إرسيكا، سلسلة 17	280
3	28	961	1554	962	1554	491	1910	4	2017	إرسيكا، سلسلة 15	269
4	30	962	1554	963	1555	844	1800	2	2019	إرسيكا، سلسلة 23	242
5	31	963	1555	963	1556	216	3100	14	2019	إرسيكا، سلسلة 24	386
6	33	963	1556	964	1557	547	3000	5	2018	إرسيكا، سلسلة 21	381
7	35	964	1557	965	1558	264	1200	5	2019	إرسيكا، سلسلة 22	153
8	36	965	1558	966	1558	427	2350	6	2017	إرسيكا، سلسلة 13	286
9	37	966	1558	967	1559	665	3649	5	2019	إرسيكا، سلسلة 25	448
10	39	967	1559	968	1560	646	3015	5	2019	إرسيكا، سلسلة 26	320
11	40	968	1560	969	1561	576	2886	5	2019	إرسيكا، سلسلة 27	330
12	43	969	1561	970	1562	554	3020	5	2019	إرسيكا، سلسلة 28	329
13	44	970	1562	971	1563	578	3351	5	2019	إرسيكا، سلسلة 29	402
14	45	971	1563	972	1564	391	1813	5	2019	إرسيكا، سلسلة 30	267
15	46	972	1564	972	1565	662	1280	4	2017	إرسيكا، سلسلة 12	226
16	54	978	1571	979	1572	611	2680	4	2017	إرسيكا، سلسلة 14	320
17	67	995	1587	997	1588	452	2280	5	2016	إرسيكا، سلسلة 11	358
18	78	1005	1597	1006	1598	534	2520	5	2015	إرسيكا، سلسلة 10	370
19	88	1016	1608	1016	1609	373	1750	5	2017	إرسيكا، سلسلة 16	267
20	96	1023	1614	1024	1615	409	2213	5	2015	إرسيكا، سلسلة 9	295
21	101	1027	1618	1028	1619	461	2020	5	2018	إرسيكا، سلسلة 19	263
22	107	1032	1623	1033	1624	552	1331	5	2013	إرسيكا، سلسلة 1	218
23	112	1036	1626	1036	1627	477	2040	4	2018	إرسيكا، سلسلة 20	334
24	119	1041	1632	1042	1632	562		0	2014	إرسيكا، سلسلة 2	315
25	136	1055	1646	1056	1646	460		0	2015	إرسيكا، سلسلة 4	270
26	149	1064	1653	1065	1654	482	1900	4	2014	إرسيكا، سلسلة 2	234
27	150	1064	1654	1065	1655	487	2150	4	2010	دائرة المعارف الفلسطينيّة/ جامعة النّجاح الوطنيّة. سلسلة "بنك معلومات القدس. الكتاب الأول.	392
28	152	1067	1656	1068	1657	629	2550	4	2011	دار الشهباء للنشر والتّوزيع. رام الله. فلسطين.	440
29	155	1068	1657	1068	1658	417	1776	4	2013	جامعة القدس المفتوحة - عمادة البحث العلمي والدراسات العليا.	234
30	156	1068	1658	1070	1660	690	3203	5	2012	مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية. قبرص. نيقوسيا.	654
31	167	1077	1666	1078	1667	510	2220	4	2015	إرسيكا	363
32	172	1081	1670	1083	1672	221	1859	8	2014	جامعة القدس المفتوحة - عمادة البحث العلمي والدراسات العليا.[24]	455
33	183	1090	1680	1092	1681	481	2050	4	2014	إرسيكا، سلسلة 5	288
34	191	1099	1688	1101	1690	481		0	2016	إرسيكا، سلسلة 6	239
35	201	1113	1701	1115	1703	463	1260	3	2016	إرسيكا، سلسلة 7	213
المجموع						17707	72308	4	**مجموع صفحات الفهرسة**		**11152**

من الجدول (١) أعلاه، وهي معلومات قام كاتب هذه السطور باستقائها من المجلَّدات مباشرة، بعد أن وفَّرها الباحث ربايعة من استانبول بشقّ الأنفس، يلاحظ أن فِهرسته هذه قد سلَّطت الضوء على سجلَّات تضم نحو ((١٧ ألف صفحة، يتوزَّع عليها نحو (٧٠) ألف حُجَّة؛ بمعدل حوالى (٤) حُجَج لكل صفحة. وتوزَّع جهده هذا على ما يزيد على (١١) ألف صفحة من القطع الكبير. وقد تمَّ إنجاز هذا العمل «الضَّخم» خلال عشر سنواتٍ فقط، عشْر سجلَّات منها تمَّ إنجاز فهرستها عام (٢٠١٩)، والباقي توزَّعت على الأعوام (٢٠١٠-٢٠١٨)، وواحدً منها كان الباحث ربايعة ضمن فريق الفهرسة الذي يرأسه الباحث شامخ علاونة.

بالاطِّلاع على هذه الدِّراساتِ، وجدتُ أنَّ هناك جهدًا كبيرًا قد بذله الباحث في تحليل عشرات آلاف الحُجَجِ من أجل سَبْرِ غَوْرِ الأحداث، والقضايا التي تعالجها كلّ حُجَّة، والتي تُعَدُّ، في مجملها، تعبيرًا حيًّا وصادقًا، ودقيقًا عن الحياة اليوميَّة للمجتمع الفِلَسْطينيِّ، في القدس ونواحيها، في الحِقبة التي يُغطّيها السّجِلُّ. إذ قام ربايعة بتوفير مفاتيح لتلك الحُجج، تجعل القارئ في صورة محتوى الحُجَّة، وأمَّا بالنسبة للباحث المتخصّص فإنَّه يتَّكئ على هذا الأسلوب والمنهجيَّة من الفِهرسة في تحديد مساره البحثيّ؛ إذ يوفّر الفِهرس البيانات والبيّنات المطلوبة بوضوح وسهولة ويسر.

معضلات وصعوباتٌ تواجه الباحثين في سِجِلّات المحكمة الشَّرعيَّة في القدس:

تَبَيّنَ من خلالِ ملحوظاتِ الباحثينَ أنَّ هناك مجموعةَ قضايا ومُعْضلاتٍ تواجِهُهم، عندَ قراءةِ السِّجِلّات وتحليل الحُجَجِ، أهمُّها: صعوبة قراءة الخطّ، وتشابك خطوط بعض الحُجَجِ، وبعض الكلمات لا يوجد منها سوى إشارةٍ، أو رمزٍ مثل الأرقام، والحُجَجُ المكتوبة بلغة تختلط فيها العامّيَّة، وبعض المفردات التركيَّة، والفارسيَّة، والمختصرات المتعلِّقة بأسعار البضائع، أو الأمور المالية، وهناك حُجَجٌ توجد في نهايات الصفحات المتآكلة، كما أنَّ هناك بعضَ التَّلَفِ قد أصاب أطراف بعض السِّجِلّات بفعلِ الرُّطوبة، وسوء الحفظ(٢٥).

من جانب آخر، كان الكتبة أحيانًا ينتهجون أسلوب تدوين وقائع المحكمة على هيئة مسوّدات ممّا أدّى إلى حدوث خلل في التسّلسل التّاريخيّ للعديد من الحجج المدوّنة في

سجلّات الدّعاوى؛ إذ كانوا يعطون الأولويّة في التّدوين للحجج المنقولة عن الأصل المُسلّم لصاحب الدّعوى، والّتي بدورها لم تكن تدوّن في السّجل بتسلسلها التّاريخيّ(٢٦).

كما أنَّ هناك قلّة في الدّراسات الأساسيّة الّتي تتّصف بالعمق والشّموليّة بشأن هذه السّجلّات من حيث الجوانب التّشريعيّة، أو من حيث المضمون التّاريخيّ. وانعدام الفهرسة الإحصائيّة والمسحيّة لمضمون وثائق تلك السّجلّات(٢٧). إلّا أن الباحث يوسف النتشة تناول الجانب المعماري الذي تناولته هذه السّجلّات، في رسالته الدكتوراة عام (١٩٩٧م)(٢٨).

مصادر سِجِلّات محكمة القدس الشَّرعيَّة وأماكن وجودها:

توجد السّجلّات الأصليّة في محكمة القدس الشّرعيّة، كما أنّها أصبحتْ متاحة للباحثينَ في أكثر من مكان خارج المحكمة؛ فهيَ مُصوَّرَة على نسخٍ مِنَ المايكرو فيلمْ، ويوجد نسَخ مِنْ هذِهِ الصُّوَرِ في الأماكن الآتية: مَكتبةِ الجامعةِ الأردنيَّةِ، ومَركزِ الوَثائقِ والمَخطوطاتِ التّابعِ للجامعةِ الأردنيَّةِ، وفي مُؤَسّسةِ إحياءِ التُّراثِ الإسلاميِّ في (أبو ديس)، وبعضُ النُّسَخِ مُتناثرة بينَ أيدي الباحثينَ الَّذينَ يَهتمُّونَ بموضوعِ السّجِلّاتِ، والّذين حصلوا عليْها بِطُرُقٍ خاصّةٍ، وفي أماكن أخرى كجامعةِ هارفرد والجامعةِ العِبريّة. كما قامت الجامعةُ الأردنيَّةُ ومركزُ التَّوثيقِ والمخطوطاتِ فيها بتحويلِ هذِهِ السّجِلّاتِ بِمُختبراتِها الخاصّةِ إلى صيغة (pdf) من خلال مؤسّسة تركيّة في إستانبول، حيثُ يُمَكِّنُ الباحثَ منْ قراءةِ هذِهِ السّجِلّاتِ ودراستِها في أيّ مكان؛ دون أن يكون موجوداً في تلكَ المراكزِ(٢٩).

الاستنتاجاتُ

يتَّضح مما سبق أنَّ الدولة العثمانية عوَّضت الفقدان التوثيقيّ للحقب التي سبقتها؛ الأمويَّة حتّى المملوكيَّة، إذ التفتت مبكِّرًا إلى التوثيق، من خلال دفاتر الطابو، ودفاتر التحرير والمفصَّل التي، في مجموعها، تُوفِّرُ تفاصيل الحياة الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة للمجتمعات التي تخضع لها. وقد كانت مدينة القدس من أوائلِ مدن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة المترامية الأطراف، وأهمِّها التي حظيت بالتوثيق على مستوَيَيْنِ: دفاترِ الطابو، وسجلّات المحكمة الشرعيَّة.

أمّا سِجِلّاتُ المحكمة الشَّرعيَّة في القدس، فقد تأكَّد لنا أنَّ كلَّ ما وَرَدَ فيها من مئات آلاف

الحُجَجِ هي شهادات صحيحة، وموثَّقة حسب الأصول؛ وأنّه لا مجال للطعن فيها من أيَّة جهة كانت، كما أنَّ أيّ حُجَّة هي بمثابة مستند لا يمكن الطعن بصحَّتِها، وأنَّها ليست بحاجة إلى أيِّ مُعَزِّزاتٍ أخرى. وفي ذلك رسالةٌ واضحةٌ للاحتلالِ، عندما يسعى إلى تهويد العَقارات الوقفيَّة، أو مصادرتِها بحُجَجٍ واهية.

أما على مستوى الفهرسة، فبعد توقّف فهرسة الحسيني المذكورة أعلاه، وبعد أن أنجز مركز دراسات بلاد الشام فهرسة سبعة سجلّات، نجد أن الجهد المتواصل والحثيث الذي قام به الباحث ربايعة، ولا زال، بالتعاون مع مركز إرسيكا يشكّل إضافة نوعيَّة وكمِّيَّة في هذا المجال، لا سيما وإنَّها على مستوى فرديّ، الأمر الذي يدفع للتوصية بتحويل هذا العمل إلى عمل مؤسَّساتي على مستوى الدَّولة؛ إذ يتم تدريب وتأهيل طواقم من الموظَّفين المتفرّغين لهذا الشَّأن.

وعلى المستوى البحثيّ، فتبيَّنَ أنَّ هناك صعوباتٍ جمّةً تواجه الباحثين؛ منها ما يتعلَّق بصعوبة تحليل المحتوى، ومنها ما يتعلَّقُ بتآكل الحُجَجِ وضَياع بعض الأسطر، أو العبارات، أو الكلمات.

فلسطين، بيت لحم، العبيدية

٠٢ أيار ٢٠٢٠

الهوامش

١. العسلّي، كامل (١٩٨٣). وثائق مقدسية تاريخية-المجلَّد الأول. مطبعة التوفيق. عمان. ط١. ص: ٣٩-٥٠.

٢. الحنبلي، مجير الدين (١٩٧٣). الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. جزآن. مكتبة المحتسب. عمَّان. المقدمة، ص: ٩-١٨.

٣. الحنبلي (١٩٧٣). ج٢. ص: ٣٨٣.

٤. إبشرلي، محمد، والتميمي، محمد (١٩٨٢). أوقاف وأملاك المسلمين في فِلَسْطينَ في ألوية غزَّة، القدس الشريف، صفد، نابلس، عجلون حسب الدفتر رقم (٥٢٢) من دفاتر التحرير العثمانيَّة المدوّنة في القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي-. مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلاميَّة بإسطنبول. إستانبول. تركيا. ص: ط.

٥. مقابلة هاتفية مع أ. عبلة المهتدي بتاريخ: ٢٠١٩/١١/٠٢م. بالإضافة إلى الاطلاع على الفهرس الذي أنجزته الباحثة لهذا السّجلّ، وتوزَّع على ثلاثة أقسام: محمد عدنان البخيت (إشراف). عبلة المهتدي (إعداد) (٢٠١١). سجلّ محكمة القدس الشَّرعيَّة رقم (١أ). فهرسة تحليلية «قيود الوثائق والحُجج الشَّرعيَّة الصادرةِ من محكمة القدس الشرعية». مركز الوثائق والمخطوطات ودراسات بلاد الشَّام في الجامعة الأردنيَّة.

٦. العلميّ، «محمد علي» (٢٠١٩). قضاة القدس الشريف ومجالس حكمهم (١٥١٧م-١٩١٧م). الرعاة للدراسات والنشر. رام الله - فِلَسْطِيْن. جسور للنشر والتوزيع. عمان. الأردن.

٧. العسلي (١٩٨٣). ص: ١٣.

٨. العلمي (٢٠١٩). ص: ٢٠٧؛ السائح (١٩٩٤). مرجع سابق. ص: ٢٢؛ العسلي، كامل (١٩٨٣). وثائق مقدسية تاريخية - المجلد الأول. مطبعة التوفيق. عمان. ط١. ص: ١٣؛ البخيت، والحمود، وخريسات (١٩٩١). مرجع سابق. ص: ٦-٣٠.

٩. المسؤول عن استدعاء من له علاقة بالدّعاوى وتنفيذ أحكام المحكمة (عن: العلميّ، «محمّد علي» (٢٠١٩): «قضاة القدس الشّريف ومجالس حكمهم (١٥١٧م-١٩١٧م)». الرّعاة للدّراسات والنّشر. رام الله فلسطين. جسور للنّشر والتّوزيع. عمّان. الأردنّ. ص: ط١. ص: ١٧٥).

١٠. العلميّ (٢٠١٩). ص: ص: ١٧٥-١٧٦، ٢١٠.

١١. العلميّ (٢٠١٩). ص: ٢٢٣-٢١٩.

١٢. علاونة وآخرون (٢٠١٤). سجلات محكمة القدس الشَّرعيَّة العثمانية (سجل «١٧٢» -١٠٨١-١٠٨٣هـ/١٦٧٠-١٦٧٢م-). جامعة القدس المفتوحة. عمادة البحث العلمي والدراسات العليا. رام الله. فلسطين. ص: ٩.

١٣. السائح (١٩٩٤). مرجع سابق. ص: ٢٠.

١٤. العلميّ (٢٠١٩). مرجع سابق. ص: ٦٩.

١٥. الجعبة، نظمي (٢٠١٨). دَوْرُ الوثائق الوقفيَّة في استجلاء التركيبة الحضريَّة والمعماريَّة لمدينة القدس المدرسة التنكزيَّة كحالة. في «وقائع المؤتمر الأكّاديميّ الرابع «الوقف الإسلاميّ في القدس». مجموعة باحثين. تحرير: عزيز العصا وآخرون. الهيئة الإسلامية العليا-القدس. ص: ٣٩٢-٤٣٠».

١٦. يُنظر أيضًا: ربايعة، إبراهيم (٢٠١٣). سجلّ محكمة القدس الشَّرعيَّة. جامعة القدس المفتوحة. عمادة البحث العلميّ. رام الله. فِلَسْطِيْن. ص: ٨-١٢.

١٧. الجعبة (٢٠١٨). مرجع سابق.

١٨. السائح (١٩٩٤). مرجع سابق. ص: ٢٣.

١٩. العلميّ (٢٠١٩). مرجع سابق. ص: ٢٠٦؛ العسلي (١٩٨٣). المجلَّد الأوَّل. ص: ٢٢ (الهامش).

٢٠. السّائح (١٩٩٤). ص: ٢٣.

٢١. مقابلة هاتفية مع أ. عبلة المهتدي بتاريخ: ٢٠١٩/١١/٠٢م.

٢٢. محمد عدنان البخيت (إشراف). عبلة المهتدي (إعداد) (٢٠٠٨). سجلّ محكمة القدس الشَّرعيَّة رقم (١). فهرسة تحليلية «قيود الوثائق والحُجج الشَّرعيَّة الصادرةِ من محكمة القدس الشرعية». مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيَّة.

٢٣. مقابلة الباحث في بيته بتاريخ: ٢٠٢٠/١/٥.

٢٤. الجدول من تصميم كاتب المقال، من خلال مطالعته لكلّ مجلّد (كتاب) على حدة؛ علمًا بأن كلّ مجلَّد يختص بسجلّ كامل.

٢٥. علاونة وآخرون (٢٠١٤). مرجع سابق. ص: ٩.

٢٦. علاونة وآخرون (٢٠١٤). ص: ١٦-١٨؛ ربايعة، إبراهيم (٢٠١٩). سِجِلُّ محكمة القدس الشَّرعيَّة العثمانيَّة رَقْمُ (٣٠) (١٥٥٤/١٢/١٩م-١٥٥٥/١١/٢١م). مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلاميَّة (إرسيكا). إستنبول. تركيا. ص: ج، ٦.

٢٧. العلميّ (٢٠١٩). ص: ٢١٠.

٢٨. كانت المحكمة تستوفي رسومًا على الحُجَّة الأصليّة الّتي يستلمها صاحب الدّعوى، ورسومًا أخرى على تدوينها في السّجلّ، وعندما يتفادى صاحب الدّعوى دفع رسوم التّدوين في السّجلّ تبقى الحُجَّة على هيئة مسودّة.

٢٩. سرور، موسى (٢٠٠٩). سجلات محكمة القدس الشّرعيّة: إشكالية منهجية. في: «أوراق عائلية: دراسات في التاريخ الاجتماعي المعاصر لفلسطين. تحرير: زكريا محمد وآخرون». ص: ٢٣-٤١.

٣٠. Natsheh, Yusuf Sa'id (١٩٩٧). Sixteenth Century Ottoman Public Buildings in Jerusalem: A study based on the standing monuments and the evidence of the Jerusalem sijill. Unpublished thesis submitted for the degree of Ph.D. university of London.

٣١. علاونة وآخرون (٢٠١٤). ص: ١٧-١٨.

واقع الفلسطينيين في سوريا

علي بدوان*

(١ من ٨)

تقـديم

يُقدر عدد اللاجئين الفلسطينيين، الذين وفدوا إلى الأراضي العربية السورية اثر النكبة عام ٨١٩٤ بحدود (٩٠) ألف لاجئ(٣٠)، دخلوا الأراضي السورية من المناطق الحدودية المشتركة بين فلسطين وسوريا البالغ طولها (٧٩) كيلومتراً من زاوية جبل الشيخ شمال هضبة الجولان حتى جنوب بحيرة طبريا. فيما جاء بعضهم عن طريق الأردن، والبعض الأخر عن طريق لبنان عبر الممرات البرية شمال فلسطين، أوعبر الطريق البحري بين عكا، حيفا، يافا إلى صيدا، صور، بيروت، طرابلس، اللاذقية حيث شجعت ودفعت القوات المتبقية من الانتداب البريطاني قبل يوم (١٩٤٨/٥/١٥) المواطنين الفلسطينيين على المغادرة عبر المنافذ البحرية، وبعضهم وصل إلى الأراضي السورية عبر الأردن بعد اجتياز الضفة الغربية، خاصة من أهالي ومواطني قرى جنوب وشرق مدينة حيفا، ومناطق المثلث، واللد، الرملة، يافا.

ووصلت الدفعة الثانية من اللاجئين الفلسطينيين إلى سوريا بعد العام ١٩٥٦ قادمين من التجمعات الفلسطينية التي لجأت إلى الأراضي اللبنانية. ففي الفترة الممتدة بين أعوام (١٩٤٨ – ١٩٥٦) استمر قدوم اللاجئين الفلسطينيين إلى سورية من لبنان وبشكل أقل من الأردن، في سياق سعي العائلات الفلسطينية لتجميع شملها الذي تفرقت بفعل نكبة ١٩٤٨. واستكملت هذه الدفعة بعدة مئات

* باحث فلسطيني

من الفلسطينيين الذين طردوا من المناطق المنـزوعة السلاح على الحدود الفلسطينية/السورية في الشمال والوسط وعلى أجزاء من الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا على امتداد الحدود، وخصوصاً بعد تجفيف بحيرة الحولة، حيث تم مسح عشرات البلدات الفلسطينية.

ويعود معظم اللاجئين الفلسطينيين في سوريا الى مناطق شمال فلسطين، خصوصاً من مدن وأقضية: لواء حيفا، لواء الجليل (الناصرة، عكا، صفد، بيسان، طبريا..)، لواء اللد (يافا، اللد، الرملة، والمثلث) ...

وتبلغ أعداد المسجلين منهم في الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين في سوريا مايقارب (٥٢٠) ألف لاجئ فلسطيني مع نهاية العام ٢٠١٠، بينما تبلغ أعدادهم وفق سجلات الأونروا مايقارب (٤٩٥) ألفاً وفق التقرير الأخير للمفوض العام للوكالة والمقدم للأمين العام للأمم المتحدة، يتمتعون بحقوق المواطنية الكاملة في سوريا مع الاحتفاظ بجنسيتهم الفلسطينية، حيث يخضع منهم اللاجئون منذ عام ١٩٤٨ وحتى العام ١٩٥٦ فقط والمسجلون في سوريا ضمن قيود الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين العرب للقوانين السورية من حيث المساواة مع المواطن السوري في كل المجالات، ما عدا حق الانتخاب والترشيح للبرلمان السوري، والإدارة المحلية (مجالس المحافظات والمدن)، وذلك وفق القوانين والتشريعات التي صدرت في سوريا، وساعدت على تنظيم شؤون اللاجئين الفلسطينيين(٣١).

وعند إضافة أعداد الفلسطينيين من غير المسجلين في الهيئة العامة للاجئين في سوريا، والمقصود الفلسطينيين من حملة وثائق العراق، لبنان، مصر، والجواز الأردني، فان العدد الكلي للفلسطينيين في سوريا يقترب من (٦٠٠) ألف لاجئ فلسطيني. ومن الجدير بالذكر الإشارة الى وجود أكثر من (١٠٠) ألف مواطن سوري يعتبروا أيضاً بحكم اللاجئين الفلسطينيين، حيث غادروا فلسطين عام النكبة بعد أن كانوا من المقيمين في فلسطين تعرضوا للتهجير واللجوء كما تعرض الفلسطينيون، وخسروا أملاكهم في فلسطين من عقارات وأراضٍ ومصالح مختلفة.

وتبلغ نسبتهم إلى مجموع اللاجئين الفلسطينيين المسجلين في سجلات وكالة «الاونروا» (١٠,٣٪)، ونسبتهم إلى السكان في سوريا (٢,٤٪) من مجموع سكان سوريا. كما تبلغ نسبتهم

إلى المجموع العام لكل أبناء الشعب الفلسطيني (٦,٢٪) مسقط منهم أعداد ليست بالقليلة لم يتم اعتمادهم في سجلات «الاونروا» لأسباب متعددة، والحال فإنهم بقوا خارج كشوف «الاونروا» كما وقع مع أبناء القرى التي أحتلت بعد العام ١٩٤٨ على شريط بحيرة طبريا.

وحسب محددات النمو الطبيعي والتزايد السكاني (المواليد – الوفيات) فان زيادة واضحة طرأت على عدد اللاجئين الفلسطينيين ككل، وتضاعفت أعدادهم عدة مرات منذ سنوات النكبة . وفي ما يلي جدول مرفق بتطور مجموع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا خلال سنوات مختارة بين أعوام ١٩٦٠ – ٢٠٠٠ حسب الجنس والنسبة (٣٢):

السنوات	ذكور	إناث	المجموع
١٩٦٠	٦٥,٠٣١	٦١,٦٣١	١٢٦,٦٦٢
١٩٧٠	٩٢,٥٧٣	٨٧,٧٦٣	١٨٠,٣٣٦
١٩٨١	١٢٤,٧٢٢	١١٩,٤٧٦	٢٤٤,١٩٨
١٩٨٥	١٣٧,٨٠٣	١٣١,٩٧٣	٢٦٩,٧٧٦
١٩٨٨	١٤٧,٧٩٥	١٤١,٦٦٧	٢٨٩,٤٦٢
١٩٩٢	١٦١,٠٠٤	١٥٤,٥٤٧	٣١٥,٥٥١
١٩٩٣	١٦٤,٦٠٢	١٥٧,٩٩٧	٣٢٢,٥٩٩
١٩٩٤	١٦٨,١٥٣	١٦١,٦٨١	٣٢٩,٨٣٤
١٩٩٥	١٧٣,١٩٨	١٦٦,٥٣١	٣٣٩,٧٢٩
١٩٩٦	—	—	٣٤٧,٣٩١
١٩٩٧	—	—	٣٥٦,٧٣٩
١٩٩٨	—	—	٣٦٥,٨٠٥
٢٠٠٠	—	—	٣٨٣,١٩٩

ويعتبر المجتمع الفلسطيني في سوريا مجتمعاً فتياً تتسع قاعدته العمرية الصغيرة باضطراد مع مرور الزمن بفعل عامل الخصوبة لدى المرأة الفلسطينية، وظاهرة النمو الأسري حيث تزداد أعداد أفراد المجتمع الفلسطيني في سوريا بمعدل شبه ثابت في وحدة الزمن (في المتوسط ٣,٥٪ سنوياً)، ونتائجه في زيادة عملية الإنجاب والنمو الطبيعي لنسبة السكان، فنسبة (٤٣,٢٪) منه دون سن الخامسة عشرة، ونسبة (٦٢٪) منه دون سن السادسة عشرة،

لذا يتمتع اللاجئون في سوريا بكونهم مجتمعاً فتياً تكبر فيه قاعدة الهرم السكاني الممثلة بالأطفال والشباب ما قبل السابعة عشرة.

ففي التوزع العمري وفق أهرامات العمر يطغى طور الشباب، ويليه طور الإنتاج، وطور مابعد الإنتاج، ويتحدد شكل الهرم السكاني لمجتمع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا بمسقط مثلثي على المستوي أشبه بالمثلث المتساوي الساقين ذي القاعدة العريضة، مما يترتب عليه تراجع نسبة القوة البشرية العاملة، وازدياد أعباء الأسرة والإعالة تجاه متطلبات الحياة اليومية الصحية والاجتماعية والتعليمية.

أما نسبة كبار السن (٦٥ عاماً وأكثر) فتكاد تكون (٣,٢٪)، ومن هنا يتمتع مجتمع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا بخصوبة مرتفعة نسبياً وتكاد تماثل نسبة الخصوبة في المجتمع السوري. وتحدد الخصوبة القدرة الإنجابية للمرأة الواحدة في سن حياتها الاخصابية. و تعتبر التنمية البشرية بين اللاجئين الفلسطينيين في سوريا تنمية بشرية متوسطة وفق مقاييس برنامج الأمم المتحدة.

وبالنتيجة إن مرد اتساع قاعدة الهرم العمري السكاني وطغيان الطور الشاب في الهيكل العمري للتجمع الفلسطيني في سوريا يعود إلى :

١ ـ ارتفاع معدلات الخصوبة الكلية للمرأة الفلسطينية في سوريا مقارنة حتى بالمرأة العربية بالأقطار المجاورة وبالحدود النسبية . مع التراجع الملموس خلال السنوات الخمس الأخيرة «المحدود والمتدرج البطيء» لمعدلات الإنجاب تبعاً لتعقيدات الحياة الاقتصادية وضعف مردود الأسرة ودخول المرأة سوق العمل الإنتاجي . وبالإجمال فإن عوامل التأرجح في النمو السكاني للاجئين الفلسطينيين في سوريا لم تبرز على السطح بعد، ولم تسبب حتى بتجلياتها الأولية أية تغييرات حادة في النمو السكاني للفلسطينيين فوق الأراضي السورية .

وعليه، كان لارتفاع نسب التعليم عند المرأة الفلسطينية في سوريا، ودخول العديد من الإناث في سن العمل سوق الإنتاج، وفق وتيرة متزايدة، الأثر الكبير في التراجع المحدود لمعدلات الخصوبة للمرأة الواحدة للعام الواحد كما تم ذكره .

٢ ـ عدم وجود هجرة غير طبيعية (عدد الذكور ١٠٤ لكل ١٠٠ أنثى) أي أن نسبة الذكور تبلغ (٥١٪) داخل مجتمع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا وهي نسبة اعتيادية وطبيعية جداً في المجتمعات المستقرة .

٣ ـ وجود مقدرة حيوية على التزايد خلال وحدة الزمن بفعل وجود : مقدرة كامنة على التزايد، ومقدرة فعلية ضمن شروط وتحت ظروف الواقع المعاش .

إضافة لما تقدم، وصل العمر المتوقع عند الفلسطينيين في سوريا خلال الأعوام الأخيرة نحو (٦٨,٥) سنة للذكور، وحوالي (٧٢,٥) سنة للإناث . في حين يصل العمر في الدول المتقدمة إلى ٧٨ سنة للذكور. وتعتبر هذه المؤشرات هامة وضرورية لما تلقيه من رؤية لواقع التجمع الفلسطيني في سوريا . خاصة وأن العمر المتوقع للذكر والأنثى يحمل دلالاته بما يتعلق بدرجة تطور المجتمع ورقيه، ودرجة استفادته من الخدمات المقدمة له بجوانبها الصحية والاجتماعية والتعليمية عبر وكالة الأونروا، والحكومة السورية والجهات الفلسطينية المعنية.

وباختصار شديد، يعتبر التجمع الفلسطيني اللاجىء في سوريا مجتمعاً نشيطاً ومبادراً في كل مجالات الحياة، كما هو حال التجمعات الفلسطينية اللاجئة في البلدان العربية المختلفة. ولم يشكل في أية لحظة عامل إعاقة، أوعالة، إن كان على محيطه أو في مكان اللجوء الجغرافي.

(٢ من ٨)

المرسوم ٢٦٠ لعام ١٩٥٦ والإنتشار الفلسطيني

هنا، لابد من الإشارة لبعض المُعطيات الهامة، حيث من المعلوم بأن أعداد فلسطينيي سوريا المُسجلين في سجلات وكالة الأونروا وفي سجلات الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين العرب والمقيمين في سوريا منذ عام نكبة فلسطين ١٩٤٨ قاربت مع بداية العام ٢٠١٢ نحو (٥٤٥) ألف مواطن فلسطيني، وهم ممن يطلق عليهم تسمية (فلسطينيي سوريا) الذين يخضعون للقوانين المدنية السورية بإعتبارهم كالمواطنين السوريين حكماً وذلك منذ صدور التشريعات السورية النافذه بهذا المجال، منذ أن وطأت أقدامهم الأرض السورية بعد الخامس عشر من

أيار/ مايو ١٩٤٨، وخصوصاً (القانون/المرسوم) الرقم (٢٦٠) الصادر بتاريخ ١٩٥٦/٧/١٠، وهو (القانون/المرسوم) الذي تم إقراره بإجماع المجلس النيابي السوري سنتذاك، ووقعه الرئيس السوري الراحل شكري القوتلي، وفيه التأكيد على المساواة التامة للاجئين الفلسطينيين الذين دخلوا سوريا قبل صدور (القانون/المرسوم) المذكور، مع المواطن السوري من حيث الحقوق والواجبات، ماعدا حقوق الجنسية والمتمثلة بالهوية السورية وجواز السفر السوري والمشاركة بالإنتخابات النيابية والرئاسية، وانتخابات الإدارة المحلية (٣٣). لكن قوة وفعالية المرسوم ٢٦٠ بدت وكأنها تتآكل بفعل التعليمات الشفهية، واحياناً المكتوبة التي تمسه، ولو لفترات مؤقتة تبعاً للظروف السياسية وغيرها.

من جانبٍ أخر، يضاف إلى فلسطينيي سوريا نحو (٢٠٠) الف مواطن فلسطيني مُقيم بسوريا من فلسطيني لبنان والأردن وقطاع غزة والعراق، وقد انخفضت أعدادهم خلال العامين ٢٠١٢ ــ ٢٠١٣ لتصل نحو أقل من (٤٠) ألف مواطن وفق تقديرات عدة جهات، منها الجهات الفلسطينية الرسمية، ووكالة الأونروا، وحتى بيانات الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين العرب في سوريا (٣٤).

في هذا السياق، من المهم في إطار الأزمة السورية، وفي مسارات ماجرى ويجري في التجمعات الفلسطينية، التطرق لواقع الإنتشار الفلسطيني في سوريا.

فاللاجئون الفلسطينيون في سوريا يتوزعون ضمن خمسة عشر مخيما، وضمن تجمعات فلسطينية في المدن، لاتعترف الأونروا بجميع تلك المخيمات، لكنها تقدم لها خدمات الصحة والتعليم والإغاثة الإجتماعية باستثناء خدمات البنى التحتية التي تتكفل بها الحكومة السورية. وتقع أغلب المخيمات والتجمعات الفلسطينية في منطقة دمشق، وهي : أولاً مخيم اليرموك الواقع جنوب مدينة دمشق، والذي يُمثل اكبر تجمع فلسطيني في الداخل والشتات، ويضم بحدود ربع مليون لاجئ فلسطيني من أصول : مدنية /فلاحية/ من مدن وقرى صفد/ حيفا/يافا/عكا/الناصرة/اللد/طبريا/القدس/نابلس/غزة/بيسان .. وبنسبة أقل من أصول بدوية أو تنتمي الى منطقة غور فلسطين (غوارنة). ثانياً مخيم السيدة زينب (مخيم قبر الست)

جنوب شرق مدينة دمشق على طريق محافظة السويداء، وأغلبية سكانه تعود لأصول بدوية. ثالثاً مخيم جرمانا جنوب شرق مدينة دمشق على طريق المطار الدولي. رابعاً مخيم خان دنون جنوب مدينة دمشق على طريق أوتوستراد دمشق/درعا، وأغلبية سكانه تعود لأصول فلاحية من غور فلسطين ومنطقة الحولة. خامساً مخيم خان الشيح غرب دمشق على طريق القنيطرة/هضبة الجولان. سادساً مخيم الحسينية أقصى جنوب شرق مدينة دمشق. ومعظم سكانه كانوا سابقاً من اللاجئين الفلسطينيين في مخيم جرمانا. سابعاً مخيم السبينة جنوب دمشق، ومعظم سكانه من أصول بدوية. ثامناً مخيم الرمدان شرق دمشق على طريق بغداد، ومعظم سكانه من النازحين الفلسطينيين الذين نزحوا من هضبة الجولان بعد احتلالها عام ١٩٦٧، وكانوا أساساً قد لجأوا الى الجولان من فلسطين عام النكبة (٣٥).

إضافة إلى ذلك، فهناك تجمعات فلسطينية داخل مدينة دمشق من مدن وقرى صفد/حيفا/يافا/عكا/الناصرة/اللد/طبريا.. خاصة في أحياء : ركن الدين، دمر، حي الآمين (حي اليهود - الاليانس)، باب شرقي، مشروع دمر (الشام الجديدة)، ومنطقة دوما، كفرسوسة، جوبر، المزة القديمة، القابون، برزة (مخيم حطين)، تل منين. وهناك توزع مُتناثر ضمن أحياء مدينة دمشق وضواحيها المحدثة (الجديدة، قدسيا، صحنايا، حرستا، المعضمية ...) وبعض قرى غوطة دمشق (داريا، كفر بطنا، زملكا، عربين، حمورية، يلدا، المليحة، ببيلا...) (٣٦).

أما في شمال ووسط سوريا والساحل، فيتركز وجود اللاجئين الفلسطينيين من أبناء مدن وقرى صفد/حيفا/يافا/عكا/الناصرة/اللد/طبريا. في حلب حيث مخيمي : النيرب، حندرات (مخيم عين التل) . وفي مدينة حمص يوجد مخيم واحد (مخيم الوليد). وفي حماه مخيم العائدين. وفي اللاذقية مخيم الرمل الفلسطيني(غالبية سكانه من قرى حيفا ويافا). أما في جنوب سوريا فيقيم اللاجئون الفلسطينيون في مدينة درعا ومخيمي : درعا، مزيريب، فضلاً عن مخيم درعا للطوارىء، مع توزع لعدة مئات من العائلات الفلسطينية في قرى منطقة حوران جنوب سورية (جاسم، جلين، داعل، كفر ناسج، مزيريب، الشيخ مسكين، صماد، اليادودة، تسيل، تل شهاب...) (٣٧).

وتُشير المعطيات إلى أن المخيمات تضم نحو (٥٩٪) من اللاجئين الفلسطينيين في دمشق، ونحو (٧٥,٩٪) من إجمالي اللاجئين الفلسطينيين المُسجلين في كامل المخيمات الفلسطينية فوق الأراضي السورية. وفي المقابل يقطن نحو (٦٪) من مجموع اللاجئين الفلسطينيين في مخيمي درعا والمزيريب. و (٤,٧٪) في حمص ومخيم حمص. و (٢٪) في مخيم حماه. و (٢,٢٪) في مخيم الرمل باللاذقية. أما في حلب فيقطن (٧,٣٪) من إجمالي اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، بينهم (٧٣,٣٪) في مخيمي النيرب وحندرات. وهناك عدة عشرات من العائلات الفلسطينية (المدنية) الحيفاوية واليافاوية تقيم في مدن طرطوس وجبلة وبانياس على الساحل السوري، وثلاث عائلات تقيم في جزيرة أرواد المقابلة لمدينة طرطوس وتعمل في أعمال البحر قبل الخروج من فلسطين والى حينه (الصيد، بناء السفن ..). كما وتقيم بعض العائلات في بلدات : منبج، والباب، وتل رفعت شمال مدينة حلب، وتعود في أصولها إلى قرية عين غزال قضاء حيفا. اضافة لمدينة ادلب، حيث تقيم عدة عائلات فلسطينية تعود أصولها لمدينة حيفا (٣٨).

(٣ من ٨)

مواطن فلسطينيي سوريا في فلسطين

يعود فلسطينيو سوريا عموماً في أصولهم، إلى معظم القرى والبلدات التي دمرها الإجتياح الصهيوني عام ١٩٤٨، إضافة إلى المدن الفلسطينية الكبرى، خاصة الشمالية منها، وفق التالي :

قضاء حيفا : المدينة وأكثر من ستين قرية، منها قرى وبلدات : إجزم، ام الزينات، قيسارية، بلد الشيخ، الجلمة، صبارين، الصرفند، الطنطورة، طيرة حيفا، عين حوض، عين غزال، شفاعمرو، كفر لام، خربة المنسي، هوشة، الياجور، وعرة السريس، الفريديس، عرب الزبيدات، ابو زريق، عتليت، طبعون، حواسة، غبية، لد العوادين، ام راشد، السنديانة، غبيّات، ابطن، قبارة، قنّير، خربة السركس، صفر، سعادة، قنبازة، عرب السعادة، المزار، غبية الفوقا، عْبلّين، منارة، غوارنة، كساير، عرب الرمل، وادي الصليب، عِسفيا، جبع الساحل.

قضاء صفد : المدينة والعشرات من القرى، منها قرى وبلدات : بيريا، ميرون، جب يوسف،

الجاعونة، الحسينية، الخالصة، خربة الدوير، خربة المنطار، الخصاص، خيام وليد، دلّاتا، ديشوم، الرأس الاحمر، طوبا الزنغرية، الزوق، السموعي، سعسع، الصالحية، الصفصاف، طيطبا، ماروس، الغابسية، عرب الشمالنة، عكبرا، علما، عين الزيتون، فرّاضية، فرعم، قباعة، القديرية، المطلة، القيطية، مغار الخيط، المفتخرة، هونين، الحولة (مركز قرى الغوارنة)، جاحولة، الملاحة، جرابة، الزوية، المنصورة، فرادية، غرابة، الدوارة، الضاهرية، حمام طوبا، الناعمة، الدردارة، البوزية، الدفنة، قدس، زحلق، تليل، طوبا، مداحل، الجش (جيسكالا)، جيسي، زبيد، شوقا التحتا، سنبرية، خاطي، لزازة، هونين، خان الدوير، قديتا، الشونة، المالكية، ام الدروز، ريحانية، فاره، ماروس، عبسية، مزعا، الريحانية، كرازية، الدكة، القيسي، الحمراء، الصيادة، علمانية، وادي اللوز، منصورة الخيط، الدرجة، عموقة، الزرقاء، درباشية، صلحا، عين الأسد، حرفيش، كفرعنان، حامون، الدوارة، عرب التلاوية، حوشا...

قضاء طبريا : المدينة وأكثر من ثلاثين قرية، منها قرى وبلدات : حطين، الحمة، كراد الغنامة، كراد البقارة، الوعرة السوداء (عرب المواسي، عرب الهيب)، سمخ، عرب السمكية، الشجرة، الطابغة، عولم، غوير ابو شوشه، كفر سبت، لوبية، معذر، المنشية، ناصر الدين، نمرين، النقيب، وادي الحمام، تجمعات عرب الوهيب، وعرب السياد، غوير طبريا، وعرب الخوالد، السمرة، سرجونيا، وادي الحمام، مغار حروز، ياقوق، مزقة حطين، النقيب العربية، جب اللبان، وادي عميص، تلحوم، مطي، المنصورة، لحدين، سربة، سيبانة، حدثة، كفر كما، عبيدية، مغر الدروز، الرويسات، الدلهمية، جسر المجامع، المغار، المنارة، عيلبون...

قضاء عكا : المدينة وستة وعشرون قرية، منها قرى وبلدات : ام الفرج، البروة، البصة، الدامون، دير القاسي، الزيب، سحماتا، عمقا، الكابري، كويكات، النهر، نحف، شعب، ترشيحا، سخنين، دير الاسد، مجد الكروم، فراضية، البروة، الشيخ داوود، الشيخ دنون، الغابسية، الفاخورة، كفر عنان، ميعار، غوارنة، عين الست، الشيخ هود، طمرة، السميرية، كفر ياسيف، الرينة، عرابة البطوف، المرج، الرامة، الروية، الكردانة، الرشادية، كفر ياسيف، المزرعة، الشيخ بريك، البعنة، جت، منشية عكا...

قضاء الناصرة : المدينة والبلدات : أندور، صفورية، اكسال، دبوريه، المجيدل، معلول، يافة الناصرة، كفر كنا، كفر مندا، عيلوط، ومناطق المثلث القريبة منها (أم الفحم، اللجون ...) . سولم، عرب الصبيح، عين ماهل، ام قبي، حجيل، عرب الشرار، طرعان، الرينة، فسحا، ام الغنم، البعينة..

قضاء يافا : المدينة وخمس وعشرون قرية، منها قرى وبلدات : بيت دجن، سلمة، الشيخ مونس، المنشية، العباسية، يازور، الخيرية، ابو كشك، محلة الرشيد، وأحياء : العجمي، النـزهة، الحمام المحروق ...

قضاء بيسان : المدينة وتسعة وعشرون قرية، منها قرى وبلدات : السامرية، سيرين، كوكب الهوى، كفرمصر، البيرة، دنا ...

الخليل : بيت جبرين، السموع، الجلادية، دورا، بيت نتيف، الظاهرية، بيت أمر، بيت أولا، يطا، ترقوميا، سعير، بني نعيم ..

غزة : الفالوجة، السوافير الشرقية والغربية، بيت داراس، كراتية، اتسير، البطاني الغربي، بيت حانون، البطاني الشرقي، حمامة، المسمية، برير، القيطنة، وادي الحسي، كرشية، القسطينة، هربيا، أسدود، المجدل، عراق سويدان، عراق المنشية، دير البلح، خان يونس، عبسان .

الرملة : يبنا، بئر سالم، البرج، المحص، النعانة، السدرة، القبيبة، عاقر، زرنوقة.

رام الله : بيت لقيا، المزرعة الشرقية، كوبر ..

جنين : زرعين، كفرراعي، جلبون، اليامون، يعبد، عرابة، قباطية...

اللد : السافرية، دير طريف، جمزو، بيرنبالا..

طولكرم : زيتا، طيرة بني صعب، خربة بيت ليد، قلقيلية، عتيل، علار، دير الغصون، أم خالد..

القدس : بيت محسير، دير الشيخ، قالونيا، المالحة، عين كارم ...

نابلس : عزون، سيلة الظهر، كفرقليل، صانور، بيت فوريك، عصيرة، جماعين، دير الغصون، عوريف...

(٤ من ٨)

التهجير القسري خلال الأزمة

من الملاحظات العامة لحياة السكان في عموم المخيمات والتجمعات الفلسطينية في سوريا، وخاصة مخيم اليرموك، تلك الحالة الحيوية المفعمة بالضجيج الدائم، ضجيج الحياة، الحياة العملية التي حوّلت العديد من شوارعه ومواقعة الرئيسية لأسواقٍ عامرة معظم زبائنها من خارج اليرموك وحتى من سوط دمشق.

ضجيج الحياة العملية العامة، ترافق مع ظاهرة ملفتة للإنتباه عند كل الدارسين للواقع السوسيولوجي الإجتماعي وتحولاته في اليرموك ومحيطه، وهي الظاهره المدروسة والتي تشير بأن نسبة الفتيان تملأ المخيم وشوارعه وحاراته، في مجتمع فتي تطغى عليه نسبة من هم دون سن الـ (١٥).

وتُشير المُعطيات الديمغرافية المُتوفرة والصادرة عن عدد من الجهات الرسمية الموثوقة ومنها الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين العرب في سوريا، ووكالة الأونروا، والمركز الفلسطيني للإحصاء، بأن المجتمع الفلسطيني في مخيم اليرموك وفي سوريا عموماً مجتمع فتي، تكثُرُ فيه نسبة من هم دون سن السادسة عشرة، وتكاد تقارب نحو (٦٠٪) من السكان.

كما تُشير تلك المعطيات بأن المجتمع الفلسطيني في اليرموك، والفلسطيني عموماً، يُعد أقل المُجتمعات شيخوخة، مقارنة بالدول النامية والمُتقدمة، إذ لا تزيد نسبة كبار السن فيه (٦٠ عاماً فأكثر) عن (٤,٤٪) من المُجتمع.

وفي هذا المجال تُشير المعطيات أيضاً بأن مُعدل الخصوبة الكلي للفلسطينيين في اليرموك وفي سوريا عموماً يبلغ (٢,٥) مولوداً. فيما إرتفعت معدلات توقّع البقاء على قيد الحياة بمقدار (٤ إلى ٧) سنوات خلال العقد ونصف العقد الماضيين، إذ إرتفع من نحو (٦٧) عاماً لكل من الذكور والإناث عام ١٩٩٢ إلى (٧١,٠) عاماً للذكور و (٧٣,٩) عاماً للإناث .

وتشير بيانات وكالة الأونروا إلى الفئات العمرية للاجئين الفلسطينيين في سوريا ومنها مخيم اليرموك على وجه التحديد والمسجلين، والصادرة نهاية العام ٢٠١٣، في قيودها كما يلي :

(٣٦,٥١٪) من عمر (١٥) سنة وأقل، (٥٣,٨٢٪) بين (١٦ ـ ٥٩) سنة، (٩,٦٧٪) من عمر (٦٠) سنة وأكثر. بينما تُشكّل نسبة النمو السكاني وسط اللاجئين الفلسطينيين في سوريا واقعاً تزايدياً عن السنة التي سبقت بنسبة (٣,٣٪)، وبنسبة تبلغ (٣,٦٪) إلى مجموع اللاجئين الفلسطينيين بشكل عام، وتبلغ نسبتهم إلى مجموع اللاجئين الفلسطينيين المسجلين في سجلات وكالة الاونروا نحو (١٠,٣٪)، ونسبتهم إلى السكان في سوريا (٢,٩٪) من مجموع سكان سوريا، وتبلغ نسبتهم إلى المجموع العام لكل أبناء الشعب الفلسطيني (٧٪) مُسقط منهم أعداد ليست القليلة لم يتم اعتمادهم في سجلات الأونروا لأسباب متعددة، فضلاً عن وجود عدة آلاف من اللاجئين العرب السوريين الذين كانوا يقيمون في فلسطين لحظة النكبة عام ١٩٤٨، وتعرضوا للتهجير واللجوء كما تعرض الفلسطينيون، وخسروا أملاكهم في فلسطين من عقارات وأراضٍ ومصالح مختلفة، والحال فإنهم بقوا خارج كشوف وكالة الأونروا. وبشكلٍ عام فإن واقع العمل والحياة المهنية جعل من التواجد الفلسطيني يَتناثر فوق عموم الأراضي السورية بقصد العمل وظروف التوظيف الحكومي من أقاصي الجزيرة في محافظة الحسكة وصولاً إلى محافظة السويداء جنوب سوريا. ويغلب على هذا التناثر الطابع المؤقت بحكم ارتباطه بالعمل المهني، وفي حالات قليلة قد يتحول عند عدد من العائلات الفلسطينية إلى وجود شبه دائم.

على كل حال، وكما اشرنا، لا تعترف الأونروا بجميع المخيمات الفلسطينية في سوريا، وتعتمد فقط عشرة منها، بينما تقدم لجميعها الخدمات الصحية والتعليمية وخدمات الإغاثة الإجتماعية، حيث تنتشر مدارس الأونروا في كل مواقع التجمعات والمخيمات وداخل مدينة دمشق على حد سواء . والمخيمات غير المعتمدة هي : (اليرموك، الرمدان، الحسينية) في دمشق، وحندرات في حلب، والرمل في اللاذقية. وبالنتيجة فإن (٢٩٪) فقط من اللاجئين الفلسطينيين يقيمون داخل المدن في سوريا، والنسبة الأكبر (٧١٪) تقيم داخل المخيمات بما في ذلك مخيم اليرموك (٣٩).

الآن، وفي مسارات الأزمة السورية، يُمكن القول بأن التهجير القسري أصاب عدة مخيمات فلسطينية، وخاصة اليرموك، وسبينة في ريف دمشق، ودرعا، وحندرات شمال مدينة حلب،

وتهجير فلسطينيي مخيم اليرموك، تم هذه المرة إلى أحياء مدينة دمشق الداخلية كأحياء : حي الأمين، الميدان، الزاهرة، القاعة، البرامكة، المزة، ضاحية قدسيا، ودمر، مشروع دمر، صحنايا، الأشرفية، جرمانا، والمنطقة الصناعية بدمشق، وإلى أبنية المعهد التكنيكي التكنولوجي التعليمي التابع لوكالة الأونروا والمسمى بمعهد الـ (VTC) والقائم في منطقة المزة، والى مدينة أبناء شهداء ومجاهدي فلسطين والكائنة في منطقة عدرا في ريف دمشق الشمالي الشرقي. فيما نزحت أعداد إضافية منهم إلى مخيمات وتجمعات فلسطينية مُستقرة نسبياً (نقول نسبياً) كمخيم (خان دنون) الواقع على طريق دمشق درعا، ومخيم (جرمانا) الواقع إلى الجنوب الشرقي من دمشق، وهي مُخيمات وتجمعات فلسطينية تقع في مناطق ريف دمشق وتخضع لإدارة وخدمات وكالة الأونروا بجوانبها الثلاثة الصحية والتعليمية وخدمات الإغاثة الإجتماعية (٤٠).

وقد إمتدت تلك العملية التهجيرية الفلسطينية هذه المرة لتصل إلى لبنان (بحكم الإمتداد والتواصل الأسري والعائلي والقرابة والنسب بين فلسطينيي سورية ولبنان)، كما وصلت لمصر (بعد سنوات من إغلاق مصر لأبوابها أمام فلسطينيي سورية)، ووصلت أيضاً لعموم دول غرب أوروبا التي يقطن فيها بعضٌ من أبناء مخيم اليرموك بقصد العمل أو الدراسة أو الهجرة السابقة، فأنضم إليهم العدد القليل من أفراد عائلاتهم، فيما غادرت اعدادٍ كبيرة منهم نحو تلك الدول محمولة على قوارب الموت، التي إمتلأت على ظهرها بعشرات الشبان والشابات من أبناء الشعب الفلسطيني في سوريا، من الذين وطأت أقدامهم أرض مملكة السويد وعموم الدول الإسكندنافيه، وغيرها في أقاصي القارة الأوربية، وحتى أستراليا ونيوزيلندا شرقاً، في هجرة قسرية إغترابية بعد أن ضاقت بهم أرض العروبة على إتساعها، وقد نالوا الإقامة دون تعقيدات تُذكر، وذلك بعد هروبهم من جحيم الموت في سوريا بحثاً عن ملاذات آمنة، في رحلة آليمة ومؤلمة تختصر بين ثناياها تراجيديا مأساوية لـ «لاجئون يبحثون عن لجوء جديد»، بين هجرة قسرية للأجداد عام نكبة فلسطين من حيفا ويافا وعكا وصفد واللد والرملة ... وهجرة طوعية إختارها الأحفاد كفسحة أمل وحيدة للهروب من الواقع المرير تحت وطأت الموت المحيق بهم، فتقطّعت بهم السبل بين ميت وسجين ومنفي،

وعابر للبحار على ظهر قواربٍ إبتلع البحر بعضاً منها وعلى متنها شباناً في ريعان العمر وعائلات وأسر فلسطينية منكوبة.

لقد وصلت أعداد اللاجئين الفلسطينيين الذين غادروا سوريا حتى الآن الى حدود (١٥٠) ألف مواطن فلسطيني مُسجل بسوريا في قيود وكالة الأونروا، وسجلات الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين والتابعة للحكومة السورية من أصل نحو (٥٤٥) ألف لاجىء فلسطيني مُسجل في سوريا وفق معطيات الأونروا، ومعطيات الهيئة العامة للاجئين. وقد غادر منهم نحو (١٠٠) ألف مواطن بإتجاه بلاد الإغتراب البعيدة من نيوزلندا وأستراليا في أقاصي شرق المعمورة إلى الولايات المتحدة وكندا ومجموعة الدول الإسكندنافية في غربي المعمورة، وقد نالت منها السويد وحدها قدوم نحو (٨٠) ألف فلسطيني سوري إلى أراضيها حتى الآن، ومازالت المتوالية مُستمرة في هجرات يبدو بأنها متواصلة، فيما وصل منهم نحو (٥٠) الف مواطن الى لبنان بشكلٍ رئيسي، ومصر وغيرها (٤١).

الكتلة الأكبر ممن غادر سوريا من فلسطينييها هم من جيل الشباب، ومن أصحاب الكفاءات العلمية وخريجي الجامعات والمهنيين، الذين باتوا في تغريبة جديدة في بلدان المُغتربات والمهاجر البعيدة والممتدة من الدول الإسكندنافية إلى أستراليا ونيوزلندا ومابينهما حتى إلى الصومال وكمبوديا وجزر المالديف وماليزيا وروسيا، وإلى أكثر من ثلاثين دولة عبر العالم التي وصلوا إليها بسبب نيران الأزمة السورية التي أصابتهم في الصميم، في هجرة متتالية كل يوم دون جرس إنذار. فالمئات بل عشرات الآلاف من فلسطينيي سوريا تمكنوا من دخول العديد من دول أوروبا الغربية وغيرها من البلدان بطريقتين (٤٢) :

الطريقة الأولى قانونية أو شبه قانونية، على شكل دفعات أو موجات لم تكن جميعها على شكل هجرة مفتوحة لكل من يريد، بل كانت في إطار دعوات لم شمل أو أقارب، ومنها لبعض الحالات الخاصة التي تُرشحها المفوضية السامية للاجئين التابعة للأمم المتحدة، فضلاً عن وجود تسهيلات ما ولو كانت بحدود معينة تم تقديمها من بعض الدول الإسكندنافية لدخول دفعات من اللاجئين الفلسطينيين القادمين من سوريا والراغبين بالإنتقال إليها، وهذه

التسهيلات تتم بمعظمها من خلال الموافقات على الجمع العائلي أو إتباع طريقة (غض النظر) بدخول أعداد منهم عبر دول كروسيا وغيرها.

والطريقة الثانية غير قانونية، حيث الباب كان ومازال مفتوحاً مواربة أمام فلسطينيي سوريا للهجرة نحو أصقاع المعمورة، وخير دليل على ذلك ما يتم من هجرتهم في البداية عبر ميناء الإسكندرية على متن السفن بإتجاه إيطاليا واليونان ومالطا وغيرها، ومن مرسين في تركيا. وقد وقعت حوادث خلال تلك الهجرات على متن تلك السفن، وأودت بحياة المئات من فلسطينيي سوريا، فبعض من غادر منهم ساحات القتل والموت في مخيم اليرموك وجد نفسه على الساحل الإفريقي من الإسكندرية وغيرها بإتجاه سواحل إيطاليا ليموت هناك مع إرتطام وغرق بعضاً من تلك السفن. إن النزوح الفلسطيني الهائل والواسع من مخيم اليرموك والعديد من المخيمات والتجمعات الفلسطينية فوق الأرض السورية : مخيم اليرموك، مخيم درعا، مخيم السبينة في ريف دمشق الجنوبي، ومخيم الحسينية في ريف دمشق الجنوبي، ومخيم حندرات قرب مدينة حلب، تم بفعل قسري نتيجة الواقع القائم في مسارات الأزمة السورية (٤٣).

إن كل المؤشرات والمعطيات، غير مُبشّرة، وتشير بأن مُشكلة مخيم اليرموك وعموم المخيمات الفلسطينية التي وقعت في نيران الأزمة الداخلية في البلاد، طالت ازمتها بعد الدمار الكبير الذي لحق بها، وخاصة مخيم اليرموك.

(٥ من ٨)

محنة فلسطينيي سوريا ودور وكالة الأونروا

وبعيداً عن حجم التقصير والتراجع الذي يُسجل على عمل الوكالة في السنوات الأخيرة في مهامها المنوطة بها تجاه مجتمع اللاجئين الفلسطينيين في سورية ومناطق عملياتها الخمس، إلا أن دورها الملموس الأخير تجاه فلسطينيي سورية بات واضحاً، ويفترض أن يتطور أكثر فأكثر لجهة توفير ماهو مطلوب للفلسطينيين في سورية في ظل محنتهم الأخيرة. فوكالة

الأونروا معنية بتقديم كل المساعدات الممكنة للاجئين الفلسطينيين طبقاً لقرار إنشائها عام ١٩٤٩ بجوانبها المتعلقة بالإغاثة الإجتماعية والصحية والتعليمية.

لقد عَمِلت الوكالة على تقديم مساعدات مالية ومباشرة لكل أسرة فلسطينية لاجئة حسب عدد أفرادها بشكلٍ دوري كل ثلاثة أشهر، مع تقديم مساعدات عينية من مواد تموينية وغيرها لعموم اللاجئين الفلسطينيين في سورية، إضافة للملابس والبطانيات وغيرها، إلا أن تلك المعونات العينية والمساعدات المالية مازالت متواضعة قياساً لما هو مطلوب.

لقد تفوقت وكالة الأونروا بدورها في هذا الميدان من العمل الإغاثي والإجتماعي والصحي والتعليمي وعلى تواضعه، على عمل ودور عموم القوى الفلسطينية بما فيها القوى المؤتلفة في إطار الشرعية الفلسطينية ونعني بها منظمة التحرير الفلسطينية. فوكالة الأونروا أطلقت عدة برامج متتالية لمساعدة فلسطينيي سورية، وقدمت إلى الآن جهداً ملموساً في هذا المضمار، بينما مازال الدور الفلسطيني الرسمي وغير الرسمي متواضعاً إن لم نقل مفقوداً في العمل والفعل الملموس في الوسط الفلسطيني في سورية.

وعليه، ورغم ماقد يُسجل ويُقال من ملاحظات، فإن عمل وكالة الأونروا، هام وضروري، وإستمرار دورها أمرٌ لابد منه نظراً لما تحمله الوكالة في مضمون إنشائها من عنوان سياسي كبير وعريض يتعلق بحق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة لأرض وطنهم التاريخي في فلسطين، فعمل الوكالة ينتهي مع تنفيذ القرار الدولي الرقم (١٩٤) القاضي بحق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة.

في الواقع العملي الراهن، نستطيع القول بأن وكالة الأونروا تَعبُر مرحلة صعبة وحرجة في حياتها، بل ومنذ نشوئها وتأسيسها بقرار أممي عام ١٩٤٩ نظراً للظروف القاسية التي تَعمل من خلالها في أقاليم عملياتها الخمس (سوريا، لبنان، الأردن، قطاع غزة، القدس والضفة الغربية)، وفي سوريا على وجه التحديد في الوقت الراهن، نتيجة الأعباء المتزايدة على عاتقها.

إن الأعباء المتزايدة على عمل وكالة الأونروا، تظهر من خلال تراجع مداخيلها المالية المقدمة لها من الدول المانحة والجفاف المتواصل في إيراداتها، مع تزايد حاجات مجتمع اللاجئين الفلسطينيين، حيث يُعَدّ المجتمع الفلسطيني في سوريا على سبيل المثال مجتمعاً فتيّاً، تتسع

قاعدته العمرية الصغيرة بإطّراد مع مرور الزمن. كما في بروز الأزمات المتتالية في واقع اللاجئين الفلسطينيين عموماً، تارةً في قطاع غزة بسبب من حصار الإحتلال، وتارةً في لبنان (٤٤).

وفي التفاصيل المتعلقة بمخيم اليرموك، فهو بقعة جغرافية كبيرة نسبياً، يتبع إدارياً لمدينة دمشق، حيث يلاصقها من جهة الجنوب، عبر حيي الميدان والزاهرة. فيما تحيط به من باقي الجهات والجوانب أحياء سورية مكتظة، غالبيتها أحياء شعبية، منها أحياء عشوائية لكنها رسمية قامت على أراضٍ زراعية (طابو زراعي) تابعة لمناطق من غوطة دمشق الشرقية، ومنها أحياء (مخالفات)، ومنها مايسمى بأحياء (الطَبَب) التي أقيمت فوقها منشآت سكنية متواضعة دون شراء أراضيها بإعتبارها أملاكاً عامة (وهذا الفارق بين أحياء الطبب عن غيرها)..

والأحياء السكانية السورية (الأحياء الشعبية أو مابات يُعرف بالعشوائيات) التي تحيط بمخيم اليرموك، التي كانت أحياء مُلتهبة في سياق الأزمة الداخلية السورية، حيث تُحيط بمخيم اليرموك من كافة الجهات تقريباً عدا الشمال منه المفتوح على حيي الزاهرة والميدان.

فإلى الشرق من مخيم اليرموك، وعلى امتداد نحو كيلومترين طولاً، يتجاور مخيم اليرموك مع حي التضامن عبر شارع فلسطين، وصولاً للجنوب الشرقي من اليرموك حيث تقع بلدة (يلدا) التي تتجاور في تلك المنطقة مع مخيم اليرموك، وصولاً إلى الجنوب من اليرموك حيث تقع أحياء الحجر الأسود، والجزيرة. أما غربي اليرموك فَتَحِدَهُ بساتين منطقة القدم والجورة والعسالي والأعلاف التي يفصلها عن اليرموك أوتوستراد شارع الثلاثين.

إن تداخل مخيم اليرموك مع جيرانه، ليس تداخلاً جغرافياً فقط، بل هو تداخل إنساني بالدرجة الأولى، بين شعبين ملتصقين، وقد أدى وظائفه في ولادة (سوسيولوجيا) إجتماعية واحدة.

إن منبت تلك السوسيولوجيا، أنها قاربت أيضاً من الزاوية الطبقية الوضع «الطبقي والإجتماعي» بين حال الفلسطيني اللاجىء قسراً من أرض وطنه فلسطين وقد خرج من فلسطين وبين حال سكان تلك العشوائيات الذين كانوا إجمالاً من منابت طبقية فقيرة ومتواضعة (وبعضها من منابت طبقية مسحوقة) ومن فقراء الأرياف والمحافظات البعيدة ومن ومهمشي المدن (الذين كان يُطلق عليهم الماركسيون العرب في أدبياتهم مسمى

«البروليتاريا الرثة»)، ومن طالبي العمل والمياومة (العمل بالأجر اليومي) في سوق الرزق في المعامل والمنشآت والبنى التحتية في العاصمة دمشق ومحيطها.

إن تلك الحالة الإجتماعية السوسيولوجية للعشوائيات المحيطة بمخيم اليرموك ومنها حي التضامن على وجه الخصوص، دَفعت قطاعات من سكان تلك المنطقة للبحث عن الوظيفة الحكومية حتى المتدنية في سلم «الراتب والرتبة الوظيفية»، ونما معها ثقافة «ضارة» عنوانها «ترك الأرض الزراعية والبحث عن الوظيفة» وقد دفعت تلك الثقافة الأعداد المتزايدة من سكان الأرياف في المناطق البعيدة من مختلف المحافظات للقدوم لدمشق والإقامة في تلك العشوائيات. وقد تكون سنوات الجفاف التي مرت على المنطقة الشرقية في سورية قد أسهمت في تأجيج وتشجيع تلك الهجرات الداخلية، إضافة للتقاعس العام في تنمية الريف من قبل الجهات المعنية وإهمال أهمية توزيع المؤسسات الإنتاجية وحتى الوزارات على كامل بقعة الأرض السورية.

ومن بين تلك العشوائيات المحيطة بمخيم اليرموك، وغيرها البعيدة عنه والموزعة في عموم مناطق دمشق وباقي المحافظات، إزدهرت حالات التذمر الإجتماعي، وإحتقنت معها روح التمرد والتي باتت بعد حين تَحمل مضموناً سياسياً، بالرغم من توفر الخدمات الأساسية لتلك العشوائيات وخاصة في المجال المتعلق بالصحة والتربية والتعليم وإنتشار المدارس فيها وباقي المرافق الخدمية.

ومن المهم، الإشارة إلى أن المناطق المحيطة باليرموك تضم بين ثناياها خليطاً من عموم أبناء الشعب السوري من كل المحافظات وحتى من كل الطوائف، وهو أمر أوجد حالة غنية من الإلفة والتفاعل بين الجميع وساعد على حالة الإنصهار الوطني، وقد ساعد على هذا الأمر أيضاً الحالة الوطنية الفلسطينية التي كانت ومازالت على الدوام حالة جامعة لاتقبل بمنطق الطوائف، بل تذم وتَلعَنَ أَصحابَها. بل إن الزيجات المختلطة تميّز الحالة الفلسطينية في سورية، فهناك المئات من الشبان أو الشابات الفلسطينيات ممن إقترنوا بسوريات أوسوريين من كافة الطوائف والملل.

(٦ من ٨)

المحنة والموقف الفلسطيني الشعبي والرسمي

النظام الأساسي للموقف الفلسطيني العام من الأوضاع السورية بداية اندلاعها، تم تحت عنوان الحياد الإيجابي، الحياد الذي يساعد على لملمة الصف ومنع المساس بالدولة ومؤسساتها.

إن إنشداد الفلسطينيين لبوصلتهم الوطنية، والخصوصية الوطنية الفلسطينية، لعموم الفلسطينيين في سورية، لم يلغي دورهم الإيجابي إلى جانب الشعب السوري في أزمته الوطنية العامة، بل لعب فلسطينيو سورية وخاصة منهم فلسطينيو مخيم اليرموك دوراً هاماً وملموساً في المناطق المحيطة بالمخيم، وهي مناطق شعبية سورية مكتظة بالسكان، حيث وجد أهلها وسكانها ملاذاً آمناً وحضناً دافئاً بين إخوتهم الفلسطينيين من أبناء مخيم اليرموك الذي إستقبل أعداداً من النازحين السوريين. فقد دخل إلى مخيم اليرموك بدايات المحنة السورية نحو (٦٠٠) ألف مواطن سوري على الأقل من أحياء دمشق الجنوبية كأحياء (التضامن، والعسالي، والقدم، ويلدا، والحجر الأسود، والقاعة، والميدان, وحي الزهور، وغيرها من الأحياء) خلال إشتداد الأزمة قبل ثلاثة شهور مضت، وقد وجدوا في اليرموك كل مقومات وسبل الحياة التي توفرت لهم على الفور بفضل جهود الناس وعموم المؤسسات والقوى المجتمعية الفلسطينية العاملة في مخيم اليرموك.

إن ما قام به فلسطينيو سورية ومخيم اليرموك على وجه الخصوص تجاه إخوتهم السوريين لم يكن سوى رداً بسيطاً ومتواضعاً جداً جداً لجميل ووفاء كبير ومحبة وإخلاص أحَاطت به سورية وعموم السوريين الشعب الفلسطيني منذ عام النكبة ١٩٤٨ عندما دخل إلى سورية نحو (٩٠) ألف لاجيء فلسطيني من شمال فلسطين من مناطق الجليل وعكا وحيفا وصفد والناصرة والقليل منهم من يافا واللد والرملة ووسط فلسطين، فوجدوا في سورية ملاذاً آمناً وحضناً دافئاً بإنتظار العودة إلى فلسطين وطنهم الأزلي الذي لاوطن لهم سواه.

نبدأ القول، وكما اشرنا اعلاه، بأن الناظم الأساسي الذي حَكم الموقف الفلسطيني العام المتخذ على أعلى مستوياته عند جميع القوى الفلسطينية ودون إستثناء (من حركة فتح الى حركة حماس

ومابينهما) بالنسبة للموقف من الوضع السوري الداخلي وتطوراته، تمثّل في الحياد الإيجابي، وتَجنب الدخول في متاهات المشكلة الداخلية في سورية، إنطلاقاً من رؤية وطنية وقومية خالصة ومخلصة جداً جداً، فلسطينية وسورية في آن واحد، وتجنيباً للفلسطينيين من مغبة الدخول في مغامرة قد لاتحمد عقباها ونتائجها السلبية عليهم وعلى قضيتهم الوطنية نهاية المطاف.

وبالطبع فإن الموقف الوطني الإجماعي الفلسطيني المشار إليه أعلاه، لم يكن يعني البته بأن الفلسطينيين في سورية هم في موقف المتفرج على الأزمة السورية الداخلية، بل إن عبارة الحياد الإيجابي تتضمن في جوهرها موقفاً نبيلاً عنوانه أن دور الشعب الفلسطيني في سورية يتمثل في مد يد المساعدة الممكنة لسورية والشعب السوري، والمساعدة على بلسمة الجراح ووقف نزيف الدماء حيثما أمكن، وخير دليل على ذلك ماجرى في مخيم اللاجئين الفلسطينيين في مدينة حمص والمسمى بمخيم العائدين حين تحول هذا المخيم الى موئل لجميع الأخوة من الموطنين السوريين بكافة أطيافهم، كما تحول مشفى بيسان التابع للهلال الأحمر الفلسطيني الى مركز إسعافي للجميع دون تمييز.

ولكن، وبكل صراحة وشفافية، يجب أن نعترف ونقّر ومن موقع المتابع على الأرض، فإن غالبية القوى والفصائل الفلسطينية كانت غائبة بدرجة غير مقبولة في اوقات معينة عن ساحة الأحداث وسط مختلف المخيمات والتجمعات الفلسطينية في سورية، وتمثّل غياب الفصائل بشكل اساسي في مخيم اليرموك، الذي خرج أبناؤه وهم يطرحون الأسئلة القاسية ويتساءلون عن دور الفصائل أمام اللحظات العصيبة التي مرت على مخيم اليرموك. فالقوى الفلسطينية وعموم الفصائل موجودة في نسيج المجتمع الفلسطيني في سورية منذ العام ١٩٦٥، وموجودة عبر المئات بل الآلاف من كادراتها وعبر مؤسساتها وعبر مقارها السياسية والإعلامية والإجتماعية وغيرها، إلا أنها كانت غائبة بشكل عام عن ساحة الأحداث وعن القيام بدورها المنوط بها.

في هذا السياق، نشبت تباينات فصائلية في البيت الفلسطيني في سورية تجاه الدور الفلسطيني المطلوب، فقد تَبَنّت كل القوى الفلسطينية موقف الإجماع الوطني العام الذي يقول بخطوطه

العريضة بضرورة «الحياد الإيجابي والنأي بالنفس» عن مفاعيل الأزمة الداخلية السورية، والتركيز على الدور الإجتماعي الإيجابي للفلسطينيين في سورية تجاه عموم السوريين.

ولكن موقف الإجماع الوطني الفلسطيني إياه لم يستطع أن ينتقل بالقوى والفصائل الفلسطينية نحو خطوات أكثر تحديداً وملموسية تجاه بعض الأمور والمستجدات التي وقعت على الأرض ومنها تعرض المخيمات والتجمعات الفلسطينية من حين لأخر لأعمال عنفية من المناطق المحيطة بها، ومن تساقط متقطع لقذائف الهاون (المورتر)، ووقوع إشتباكات ذهب ضحيتها المئات من الفلسطينيين. فتضاربت ومازالت متضاربة مواقف عموم تلك القوى والفصائل تجاه التحديدات المطلوبة في برنامج العمل الوطني الفلسطيني، وقد إنقسمت تلك المواقف بين أربع إتجاهات :

إتجاه أول، وهو اتجاه قومي، على رأسه الجبهة الشعبية/القيادة العامة بزعامة احمد جبريل، منظمة الصاعقة، حركة فتح/الإنتفاضة، جبهة التحرير الفلسطينية، جبهة النضال الشعبي الفلسطيني (خالد عبد المجيد)، الحزب الشيوعي الفلسطيني الثوري، التي طرحت حماية المناطق الفلسطينية (مخيمات وتجمعات) عبر تشكيل لجان شعبية فلسطينية فدائية مسلحة تكون مهمتها حماية أمن المناطق الفلسطينية (مخيمات وتجمعات) ومنع دخول «المسلحين إليها» أو مجموعات «الجيش الحر» لتفادي وقوع صدامات بين تلك القوى وبين القوات السورية النظامية داخل المخيمات والتجمعات الفلسطينية وهو مايلحق الضرر بها وبسكانها (كما حدث في مخيم درعا الفلسطيني على سبيل المثال وقد لحقت به وبسكانه من المواطنين الفلسطينيين مصائب كبيرة). وبالفعل قامت (الجبهة الشعبية/القيادة العامة) بنشر لجان شعبية على شكل مجموعات فدائية مسلحة تتبع لها ومعها بعض القوى الفلسطينية وبعض الكوادر والأفراد المحسوبين سابقاً على فصائل من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وقد باتت أمراً واقعاً في العديد من المخيمات الفلسطينية، وقاتلت الى جانب الجيش السوري حتى اللحظة.

إتجاه ثانٍ، من القوى اليسارية، ومعها حركة فتح، وهو اتجاه كان ومازال يقول بضرورة تشكيل لجان شعبية فلسطينية من القوى الفصائلية ومن المستقلين، تكون مهامها إجتماعية

وإنسانية ووطنية عامة محضة، لكن دون تسليح (نكرر القول دون تسليح) على الإطلاق، خشية من تصنيف الفلسطينيين على أحد طرفي المعادلة السورية، وإنطلاقاً من رفض أصحاب هذا الإتجاه لما يسمى بـ «ظاهرة العسكرة» أو «التجييش» داخل التجمعات الفلسطينية، ومنها مخيم اليرموك، وهو المخيم الأكبر على الإطلاق. وقد نادى بهذا الموقف فصائل منظمة التحرير الفلسطينية (حركة فتح، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين/جورج حبش، الجناح الأخر من جبهة التحرير الفلسطينية، الجناح الأخر من جبهة النضال الشعبي الفلسطيني، حزب الإتحاد الديمقراطي الفلسطيني/حزب فدا، حزب الشعب الفلسطيني، الجبهة الديمقراطية ..).

إتجاه ثالث، مثلته حركة الجهاد الإسلامي، قام بتشكيل لجانه الإجتماعية والإنسانية لوحده، وأشتق لنفسه طريق العمل الإغاثي وغيره، وقد تشكل هذا الإتجاه من أعضاء وأنصار وأصدقاء حركتي حماس والجهاد الإسلامي، حيث برزت حركة الجهاد الإسلامي في هذا الميدان، وأبدعت في توزيع المعونات الغذائية وفي تقديم يد العون للجميع من المواطنين السوريين والفلسطينيين على حد سواء. وفي هذا السياق يشار بأن حركة الجهاد الإسلامي التي إشتقت لنفسها الدور الإغاثي والإجتماعي، تَعاطفت بشكل أو بأخر مع مواقف الجبهة الشعبية/القيادة العامة بشأن ضرورة وجود لجان شعبية مسلحة لمنع دخول أي مسلح للتجمعات الفلسطينية حماية لتلك التجمعات من ردود الفعل، لكنها دعت في الوقت نفسه لتخفيف مضار وجود السلاح بين أيدي اللجان الشعبية عبر التوجيه والترشيد والإختيار المدروس لأعضائها.

إتجاه رابع، وهو مايمكن أن نسميه بـ «إتجاه العاجزين»، وهو إتجاه لايريد أن يَدفَعَ فواتير العمل الميداني بين الناس بمعناها السياسي والمادي البحت، فضلاً عن قصوره وتواضع حضوره على الأرض «بالرغم من البعبعة الإعلامية المحلية التي يطلقها»، ويفضّل الموقف الإنتظاري تجاه ماستؤول إليه الأوضاع العامة في سورية، وهو في حقيقة الأمر إتجاه (تعطيلي) بالنتيجة كما تشير مختلف مصادر فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وهذا الإتجاه وإن كان محدوداً لكنه يبقى مشاغباً على مساعي العمل المشترك من خلال رفضه كل الصيغ التي طرحتها

معظم الفصائل والمستقلين وتقديمه الأعذار والمبررات غير المقبولة أو المُقنعة.

الإتجاه الخامس، حركة حماس، التي اختلفت مع الدولة السورية سياسياً، ولم يكن عندها مقاتلين كما قالت بعض وسائل الإعلام، بل كان لديها مجموعات ليست بالكبيرة، وقد انتظموا مع مجموعات سورية واطلقوا على انفسهم اسم مجموعات اكناف بيت المقدس. وقد تورط منها، وكانت خلافاتها مع الدولة السورية سياسية اساساً، لأن حماس عادت لمرجعيتها الإخوانية (الإخوان المسلمين).

(٧ من ٨)

محنة حصار اليرموك

في اليرموك سقطت كل حسابات الانسانية والدين وقوانين الحرمة والعصمة واختبار المبادىء، فقد حوصر مخيم اليرموك، لأكثر من خمس سنوات، واعتبرت الجهات الحكومية من بقي فيه بمثابة «حاضنة للمجموعات المسلحة»، وفي حومة الحصار، فقد ممن تبقى من المواطنين داخل اليرموك الغذاء والدواء، فقدوا الطعام الذي يوفر الحد الأدنى من المقومات الغذائية حتى يُصبح الإنسان قادراً على البقاء والوقوف، أو ما يُعرف بعلم الأحياء بـ (حاجات الإستقلاب الرئيسية للجسم). فأبدع من بقي في إشتقاق (خبز الحياة) من العدس وغيره من الحبوب، وفي إبداع وإستحضار طعام الحياة من خشاش الأرض : (رِجل العصفور) أو (رجلٍ الجاجة) وهي نوع من النباتات التي تؤكل والمتوفرة في البساتين المحيطة بمخيم اليرموك، مقلوبة حبوب مع باذنجان، مقلوبة حبوب مع الزهرة او القرنبيط أو أي مادة عشبية تؤكل، وشوربة البهارات فقط، ومعها بعض أنواع الحبوب الشحيحة، اضافة لطهي بعض الأنواع من النباتات الطيبة وعلى رأسها (العلت) و(الخبيزة) والبقدونس، وعملاق السلطة المسمى بـ (البقلة) عند شوام دمشق وغوطتها، والمُسمى عندنا في فلسطين وجليلها المرتفع وسهول مرج إبن عامر بـ (الفرفحينة)، وهي التي (تُفرفح) القلب أثناء تناولها مع (السلطة).

بدأت عملية توزيع الكراتين الغذائية التي جهزتها وكالة الأونروا، بعد جهودٍ جهيدة، في

آذار/مارس ٢٠١٤، من بدايات مدخل مخيم اليرموك، وبالتحديد من بين زقاقٍ في حارة الفدائية عند تقاطع (صيدلية عفاف) حيث تعذر توزيع الكراتين من بوابات الشارع الرئيسي العريض، شارع اليرموك، خشية من أعمال القنص وإطلاق النار.

لقد نَجح فلسطينيو مخيم اليرموك في إمتحان المراحل الأولى، لكن حدثت إنزياحات مُكلفة في أزمة داخلية في بلد شقيق، كما وقع سابقاً في أزمات عربية داخلية دَفع الفلسطينيون في نهايتها فواتير باهظة جداً جداً جداً، كان منها على سبيل المثال الحرب الأهلية اللبنانية التي (تَورط أو وُرطَ أو أُستُهدفَ) الفلسطينيون فيها، فقدموا عبر سنواتها الطويلة ألوفاً مؤلفة من الشهداء والضحايا من خيرة الكوادر الشبابية والعسكرية والبشرية بشكل عام، لكنهم خرجوا في نهايتها وبعد إتفاق الطائف «مُدانين» عملياً، حيث طوقت تجمعاتهم في لبنان (مُخيمات ومناطق) وأصبحت جزراً خارجة ومتمردة على الشرعية عند الجهات اللبنانية الأمنية كما هو حال مخيم عين الحلوة على سبيل المثال، فيما بقي حال اللاجئين الفلسطينيين في لبنان سائداً وعلى المنوال ذاته حيث الفاقة والحرمان والتعامل العُنصري المقيت معهم.فالفلسطينيون لم يتورطوا بشكل عام بالأزمة السورية، بل كان موقفهم العام ايجابي وطيب، لكن المحيط السكني حول تجمعاتهم خاصة مخيم اليرموك، دفع الأمور نحو الإنفجار، مع وقوع مأساة مخيم اليرموك وغيره. وزاد من ذلك بروز مجموعات مسلحة من اطراف مختلفة سورية الجنسية، حملت اسماء عديدة، منها داعش والنصرة واحرار الجولان وابن تيمية وغيرها ...

لذلك لم تترك الحياة اليومية لأبناء مخيم اليرموك الفلسطيني في سورية بصماتها المعتادة على حياتهم اليومية فقط، بل تعدت ذلك لتَصنَعَ هذه الأيام نمطاً جديداً معاشاً في ظل واقع الأزمة العامة التي تمر بها سورية، وقد باتت فلسفة المخيم وأهله تتمحور حول الدور المنوط باللاجئين الفلسطينيين تجاه عموم إخوتهم السوريين في معمعان تلك الأزمة والمحنة التي تمر بها سورية والشعب السوري عموماً، وفي الوقت ذاته الحفاظ على وجودهم والتخفيف من الأضرار المتوقع لها أن تلحق به جراء مايجري، والحفاظ على إتجاه بوصلتهم الوطنية. فما الجديد في هذا الشأن ..؟

وفي هذا السياق خرجت مجموعات المسلحين من اليرموك ومن محيطه وخاصة منطقة الحجر الأسود، والتي كانت اعدادها قليلة قياساً بباقي المناطق ليجري بعد ذلك تدمير اليرموك دون مبرر، واستهداف كل مراكز وكالة الأونروا بما في ذلك المدارس، ما اثار حفيظة السكان والمواطنين من سوريين وفلسطينيين، وجعلهم يضعون الأسئلة المختلفة...

إن تبرير التفتيش عن رفات جنود اسرائيليين، ليس صحيحاً، بل المعلومات المؤكدة تقول بأن رفات الجنود الثلاثة تم نقلها عام ١٩٩٧ من اليرموك، بعد ان تم دفنها مؤقتاً في مقبرة اليرموك صيف العام ١٩٨٢ وهم جنود قتلوا في لبنان على يد منظمة الصاعقة. وبالتالي ليس لهم وجود في مقبرة اليرموك وبشكل مؤكد منذ العام ١٩٩٧.

اليرموك والنأي بالنفس أعاد الإعتبار لقوة الفكرة. فإذا كان مصير اليرموك مابعد الكارثة التي لحقت به في أيار/مايو ٢٠١٨ ودمار أكثر من ٨٠٪ منه، هو السؤال المفصلي الذي بات يَقُضُّ في تلك المرحلة مضاجع أبناء مخيم اليرموك من لاجىء فلسطين في سوريا، ومن عموم المواطنين السوريين، الذي كانوا يُشكّلون نسبة عالية من سكان ومواطني المخيم.

السؤال المفصلي أعلاه، تأتى الآن بعد الحجم الهائل من الدمار والتدمير الذي لحق بالمخيم، أكبر تجمعٍ فلسطيني خارج فلسطين، وعاصمة الشتات الفلسطيني، والذي كان في حقيقته مدينة كبيرة، عامرة بأهلها وسكانها، وأسواقها الإقتصادية والتجارية، المُتميزة حتى عن أسواق دمشق، وببنيتها التحتية المتطورة نسبياً، وبوجود مؤسسات خدمية متنوعة ومنتشرة، وقد أصابها الدمار شبه الشامل، بما فيها مؤسسات وكالة الأونروا كالمدارس التابعة لها والبالغ عددها ثمانية وعشرين مدرسة، والمستوصفات ومراكز التأهيل المهني والإجتماعي ومركز دعم الشباب.

دخلت لليرموك في حينها عشرات المرات، حيث المشاهد مُرعبة، حين تدوس أقدامك أرض المخيم، وحين تَشخَص بناظريك للواقع الراهن في شوارع وأزقة اليرموك وساحاته، كأنك تستحضر على الفور صور ووقائع مدينة هيروشيما الحرب العالمية الثانية، ومدينة درسدن الألمانية التي دمرها الحلفاء وجعلوها فوق بعضها البعض، فكلُ مابداخل مخيم اليرموك بات ركاماً فوق ركام، حيث الأبنية الإسمنتية الطابقية متهاوية فوق بعضها البعض، ومئات المنازل سويت بالأرض، حتى

المقابر، بما في ذلك مقابر الشهداء، في حين نُهبت المحال التجارية والمؤسسات، وسُرِقت ونهبت البيوت، وتم تحطيم ماعجزوا عن سرقته كالرخام والبلاط الجيد، واحرِقَت المنازل بعد ذلك، بما فيها مقرات جميع الفصائل الفلسطينية ومراكزها التابعةِ لها، ومراكز وكالة الأونروا، وقد جرى كل ذلك وكأنه عقابٌ قاسٍ ومقصود لسكان اليرموك وعموم مواطنيه.

مشاهد مأساوية، ضاع خلالها تعب وكدّ وشقاء سنين العمر، شقاء البحث عن المأوى ولقمة العيش التي سار على دربها البسطاء وعامة الناس من لاجئي فلسطين في سوريا واشقائهم السوريين من مواطني اليرموك، فكادت نكبة اليرموك أن تكون أقسى على لاجئي فلسطين من النكبة الكبرى عام ١٩٤٨، حين دخلوا الى سوريا في رحلة اللجوء القسرية المؤقتة على أمل العودة السريعة لوطنهم الأصلي فلسطين التاريخية، في الجليل وعكا وحيفا ويافا وصفد وطبريا واللد والرملة والناصرة ...

ومع هذا، كنت ومازلت من اللامنتمين للحرب وللمقتلة السورية إياها، كُنّت ومازلت أعوِّلُ على الحياد الإيجابي، وعقلانية النأي بالنفس، أن تشكِّلَ ارضية لرؤيةٍ تحاول بهدوء ان تُحلَّ لغة العقل، فالنأي بالنفس ليس هروباً بل إعادة إعتبار لقوة الافكار في زمنٍ سادت فيه الشيطنة، وضُيّعت الحقائق في سراديب الشكّ والاوهام. فالتحليل وجهة نظر، والتسريب يُعتبر رسالة، والتصريح يُخفي ويُغطّي اكثر مما يُبدي ويُظهر، وبالتالي لم يعُد لخطاب العقل من مكان في مسارات المقتلة السورية، وفشل بِلَعِبِ دورٍ إيجابي في إطفاء الحرائق ...؟

لكن، وفي المرحلة التالية، يُفترض بقوةِ الأفكار أن تزجّ بثقلها لضبط إيقاع الخطاب السياسي والثقافي والتربوي، وتعزيز الفكر الذي لم ينتمِ إلى هذه الحرب ميدانياً، بحثاً عن زمن تُحترم فيه الافكار التي تتفهّم القلق الانساني، وتؤثّر في مفاصل صنع الانسان (التربية والتعليم والتثقيف) ...؟

المعركة ليست معركتنا، وأصحاب فكرة الحياد الإيجابي والنأي بالنفس حُرموا سهواً، أو عمداً من الادلاء بدلوهم في صِيَغِ التصالح والتسامح، ويُفترض أنّهم الاقدر على ردم الفجوات الهائلة الناجمة عن تلك الحرب المجنونة.

(٨ من ٨)

خلاصات أخيرة

لقد شكلت مخيمات اللاجئين في سوريا وقطاع غزة والداخل وباقي الشتات مخاض ولادة الثورة الفلسطينية المعاصرة وفصائل العمل الفلسطيني، وخزاناً لاينضب رصف مسار الثورة الفلسطينية من أبنائها الذين التحقوا في صفوف العمل الوطني والعمل الفدائي الفلسطيني بمختلف فصائله.

فالقوافل الأولى من شهداء حركة فتح ومختلف فصائل الثورة الفلسطينية، كانت من أبناء المخيمات الذين دشنوا باستشهادهم المقبرة الأولى لشهداء الثورة الفلسطينية في مخيم اليرموك.

وخلاصة القول، إن المجتمع الفلسطيني اللاجىء على أرض سورية العربية يتمتع بمجموعة من الخصائص التي تؤكد على عمق انتمائه الوطني وتمسكه بحق العودة . فهو مجتمع يتأكد فيه : الهوية الوطنية التي تميزه كمجتمع فلسطيني يحمل أبناؤه الجنسية العربية الفلسطينية المندغمة في إطار العمل الوطني والقومي على أرض سورية العربية.

اعتباره جزءاً من الوعاء الحاضن للحركة الوطنية الفلسطينية في الشتات. فجميع قوى وفصائل الشعب الفلسطيني تنشط وسط هذا التجمع، فضلاً عن النقابات والاتحادات والمنظمات الشعبية.

حفاظه على الموروث الشفهي ولذاكرة الوطن في صفوف الأجيال التي نمت ونشأت خارج فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨.

ديمومة الحلم المشروع في العودة إلى أرض الوطن بين أبنائه، وحفاظهم على الكينونة الخاصة وتعبيراتها وترميزاتها التي تشير على تمسكه بحق العودة .

أوراق عربية

تجربة المثقفين المصريين في مقاومة التطبيع: أكثر من أربعين عاما من الرفض

محمود الورداني*

(١)

ارتقى شعار رفض التطبيع مع إسرائيل، الذي رفعه المثقفون المصريون منذ أكثر من أربعين عاما، في مواجهة توقيع السادات لمعاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٨، ارتقى وأصبح له مايمكن تسميته» المغزى الأخلاقي». حقق الشعار إنجازا غير مسبوق، وامتد تأثيره حتى الآن. وعلى سبيل المثال، كان كاتب هذه السطور مدعوا منذ بضعة شهور فقط لحضور مؤ تمر سنوي(أو ربما كل سنتين حسب الظروف) لأدباء مصر، وتنظمه وزارة الثقافة للكتاب المصريين في الأقاليم المختلفة، وكان من بين توصياته رفض كافة أشكال التطبيع الثقافي مع إسرائيل، وهي التوصية الثابتة المتكررة في كافة دورات هذا المؤتمر بلا استثناء، أكرر بلا استثناء منذ توقيع معاهدة كامب ديفيد.

وإذا كان المؤتمر تعقده وتنظمه وتنفق عليه وزارة الثقافة، فإن هذا قد يوضح إلى أي مدى بات رفض التطبيع الثقافي مطلبا لم يتحقق له الإجماع فقط، بل أيضا لايمكن الالتفاف عليه حتى من الجهات الحكومية، الملزمة بتنفيذ السياسة الرسمية تجاه دولة أقامت معها مصر الرسمية تمثيلا دبلوماسيا كاملا.

---

* كاتب وروائي - مصر

ليس هذا فقط، بل أن كافة الجمعيات العمومية للنقابات العمالية والمهنية بلا استثناء، ترفض التطبيع مع إسرائيل، وتحقق وتعاقب العضو الذي يثبت خرقه لقرارات النقابات. وقد أصدرت نقابة الصحافيين على سبيل المثال عددا من القرارات التي تدين إدانة رسمية من جرؤ على خرق قرارات جمعياتها العمومية على مدى أكثر من أربعين عاما.

وهكذا فإن رفض التطبيع ليس مجرد موقف يمكن اتخاذه أو يعاقب من يجرؤ على عدم اتخاذه، إنه موقف أخلاقي وليس مجرد موقف سياسي. ولهذا السبب عوقب الكاتب الراحل علي سالم عقابا صارما واستمر طوال حياته منبوذا ومرفوضا، حيث كان أول كاتب على الإطلاق يسافر إلى إسرائيل، بعد أن أعلن أن الحاجز الذي يحول بيننا وبين إسرائيل حاجز نفسي، وبادر بكسر الحاجز، وركب سيارته إلى إسرائيل برا. وعاش الأعوام الأربعين الأخيرة من حياته مكروها ومعزولا، بعد أن كان ملء السمع والبصر ككاتب مسرحي لايشق له غبار كتب مثلا المسرحية الشهيرة» مدرسة المشاغبين»، ومن المساخر أنه كتب أيضا مسرحية جميلة بعد هزيمة ١٩٦٧ هى» أغنية على الممر» التي ترفض الهزيمة وتتحدث عن المقاومة ودحر العدوان الإسرائيلي!!

أما من جرؤ من الكتاب والمثقفين على خرق القرار الذي حظي بإجماع شعبي برفض التطبيع، فهم نفر قليل ولاأهمية لهم في حقيقة الأمر ككتاب ولم يخلفوا أي أثر، مثل نعيم تكلا وغيره ممن غابت أسماؤهم عن الذاكرة. وعندما زار الرئيس الإسرائيلي مصر في أوائل الثمانينات طلب أن يلتقي بعدد من المثقفين فلم يوافق على طلبه إلا عدد محدود من أساتذة الجامعات المجهولين، وربما واحد أو اثنان ممن يتعاطون مهنة الكتابة ولكن لأهمية حقيقية لهم، فضلا عن حرص الجميع على التواري وعدم الإفصاح عن الأسماء التي حضرت اللقاء، وكأنهم يتبرأون سريعا من الفضيحة!!

(٢)

بالطبع هناك أسماء محترمة ومؤثرة مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزي تم الزج بها في هذا الخضم. وهنا ينبغي التفرقة الصريحة الواضحة بين أمرين. الأول هو تأييد

مايسمى بالسلام. والثاني الاشتراك في التطبيع مع إسرائيل سواء على المستوى الشعبي أو بين المثقفين والكتاب.

فيما يتعلق بالموقف الشعبي، فمن المقطوع به أن أجهزة الدعاية الجبارة لنظام السادات نجحت في تسويق فكرة السلام، والرخاء المتوقع بعد إحلال السلام. كان المصريون قد خاضوا عددا من الحروب وهزموا فيها من إسرائيل ويعانون من الفقر بشدة وتدني الخدمات وانهيار مستوى التعليم والرعاية الصحية، والسبب فيما بشّرت به أجهزة الدعاية هو أن إنفاقنا توجه بكامله للأغراض العسكرية. وأضافت أجهزة الدعاية إنه يجب استثمار انتصار ١٩٧٣ للصلح مع العدو واسترداد الأرض المحتلة.

صحيح أن أجهزة الدعاية نجحت نجاحا ساحقا، وغداة عودة السادات من زيارة القدس في نوفمبر عام ١٩٧٧، كان مستقبلوه من الشعب المصري بعشرات الآلاف مؤيدين له حقا. ولكن لاننسى في هذا السياق أن جانبا لايستهان به من المخاطرة التي قام بها السادات، كان وراءها الالتفاف على ماكان الشعب المصري قد أقدم عليه قبل مبادرته المشؤومة بعدة شهور ، وبالتحديد في ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ ، في واحدة من أكبر الانتفاضات العارمة في كل أرجاء البلاد احتجاجا على رفع الأسعار ، وعلى مجمل سياسات نظام السادات. كانت تلك الانتفاضة من أقسى مامرّ على النظام بكامله، فالرفض كان مدويا ونسف ماكان السادات يتيه به ويردده من أنه بطل الحرب وصاحب انتصار اكتوبر، وجاءت الانتفاضة لتحطم كل أوهامه، لذلك بادر بالفرار إلى أسوان بمجرد اندلاع الانتفاضة، كما أصدر في نفس يوم صدور القرارات بارتفاع الأسعار قرارات أخرى تلغيها.

لاأزعم أن هذا كان السبب الوحيد لمبادرته شبه المجنونة وزيارته لإسرائيل لكنه كان أحد الأسباب بلا شك.

وهكذا .. صدّق الشعب المصري وعود الرخاء، وزار الرئيس الأميركي مصر في زيارة نادرة كان لها دلالتها، وتم تنظيم استقبال شعبي له، وتردد أن السفن التي تحمل الغذاء والكساء والرفاهية والرغد وصلت للموانى فعلا!!، وسرعان ما سيتم توزيع ماتحمله على شعب تحمل

طويلا، ولم يعد قادرا على تحمل المزيد.

ينبغي إذن أن نفرّق بكل وضوح وحسم بين تأييد مايسمى بالسلام ووعود الرخاء، وبين الإقدام على التطبيع. هناك حاجز نفسي تشكّل عبر ثلاثة حروب عدوانية قامت بها إسرائيل . هناك مذابح ارتكبتها إسرائيل منذ عام ١٩٤٨، وعدواني ١٩٥٦ و ١٩٦٧. لذلك يمكن ملاحظة مقاطعة المصريين على وجه العموم ورفضهم للتطبيع على نحو تلقائي بوضوح، وهو ماسهّل للنقابات العمالية والمهنية اتخاذ تلك الخطوة الجريئة برفض التطبيع كما سبقت الإشارة، في الوقت الذي كانت فيه الحكومة المصرية قد أبرمت المعاهدة المصرية الإسرائيلية.

أعيد التأكيد هنا مرة أخرى. المصريون أيدوا معاهدة السلام بوصفها الطريق الوحيد، حسبما أكدت لهم أجهزة الدعاية الجبارة، لتحقيق الرخاء وانتشالهم من الفقر، وفي الوقت نفسه لم يؤيدوا التطبيع بل رفضوه بكل وضوح وعلى نحو تلقائي.. والآن .. وبعد مرور مايزيد على أربعين عاما مازال عموم الشعب المصري يرفض التطبيع، ومازال ماتحقق هو نوع من السلام أطلق عليه» السلام البارد» الذي استدار له المصريون، رافضين لكل أشكال التطبيع.

(٣)

أما موقف عدد من الكتاب مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزي ولويس عوض على سبيل المثال، فهو أيضا موقف من المعاهدة وليس من التطبيع. صحيح أنهم أيدوا معاهدة كامب ديفيد بوصفها معاهدة لإحلال السلام واسترداد الأرض المحتلة، لكنهم لم يشاركوا في التطبيع ولم يسافر واحد منهم إلى إسرائيل، والثابت أنهم اعتذروا عن المشاركة في اللقاءات والمؤتمرات وما إلى ذلك، وإن كانوا لم يرفضوها.

ولنأخذ في الاعتبار أيضا مواقفهم الفكرية والسياسية السابقة بل وقبل نظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فهم ينتمون للحقبة الليبرالية ذات التوجهات المختلفة. فنجيب محفوظ مثلا وفدي عريق ينتمي لمبادئ وأفكار ثورة ١٩١٩ التي قادها حزب الوفد، وموقفه من المعاهدة موقف سياسي وليس من أجل تحقيق مصالح معينة. فقد كان يرى أن مصلحة بلاده في إبرام السلام

.وتوفيق الحكيم إبن للثورة نفسها، وإن ظل يحلم بمستبد عادل ، وحسين فوزي كان له رأي ثابت ومعروف، وكان يؤمن بانتماء مصر لحضارة البحر المتوسط، وجميعهم يعتبرون المكون المصري القديم(الفرعوني) جزءاً أساسياً وأصيلاً من الهوية الفرعونية، والدائرة الحضارية لنا هي حضارة البحر المتوسط، في هذا السياق ينبغي الإشارة إلى أن التاريخ المصري يتضمن بضعة قرون حكم فيها البطالمة مصر، وكانت جامعة الإسكندرية منارة كبرى يدرس ويدرّس فيها كبار الفلاسفة والمشتغلين بالثقافة والأدب في العالم القديم، وأعقبها الحكم الروماني الذي استمر لقرون قبل الفتح العربي، ولم تكن مصر آنذاك مجرد مزرعة للقمح الذي يغذي الامبرطورية فقط، بل كانت أيضا واحدة من حواضر الدنيا.

بينما كان نظام ٢٣ يوليو على النقيض يتبنى موقفا قوميا وعروبيا، وأهمل المكونات الأخرى. لقد رأوا أنه لابأس من إبرام صلح، يتيح لمصر أن تنفض عنها غبار الحرب وتسترد أرضها المحتلة، وتغادر مكانها ومكانتها كبلد عربي طالما خاض المعارك العربية، وطالما خسرها أيضا!!

أود أن أؤكد أن كل هؤلاء المفكرين والكتاب لم يؤيدوا المعاهدة إلا اقتناعا وانسجاما مع قناعاتهم الفكرية والأيديولوجية، بينما لم يشاركوا في التطبيع لاتأييدا ولارفضا. ولنأخذ في اعتبارنا أن العديد من القوى السياسية في المجتمع أيد المعاهدة، ومن بينها قوى انتمت لليسار الدولتي، لكن هذه القوى ذاتها حرصت على عدم المشاركة في التطبيع.

(٤)

أنتقل هنا إلى القسم الرابع والأخير من هذا المقال، والذي أعرض فيه لواحدة من أهم التجارب وأكثرها تأثيرا على الإطلاق في إفشال مشروع التطبيع ودحره، وهي تجربة لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، والتي كان لكاتب هذه السطور شرف المشاركة في نشاطها من تأسيسها عام ١٩٧٩ . ولأن عمرا قد مضى، والوهن قد أصاب الذاكرة، فقد اعتمدتُ إلى جانب أوراق قليلة للجنة المذكورة على ماكتبه الراحل الكبير صلاح عيسى في كتابيه" شخصيات لها العجب" و" مثقفون وعسكر"، واعتمدتُ أيضا على سيرة الأستاذ حلمي شعراوي أمد الله في عمره الصادرة أخيرا بعنوان" سيرة مصرية وأفريقية".

وكان الكاتب الراحل ابراهيم منصور قد بادر بمفرده فور توقيع معاهدة كامب ديفيد في مساء ٢٦ مارس ١٩٧٩ بكتابة لافتة صغيرة، وهو جالس على مقهى ريش، علّقها على صدره مكتوبا عليها» لا لكامب ديفيد» وتظاهر وهتف وحده في شوارع وسط البلد حتى تم القبض عليه. وبعد ثلاثة أيام تمت الدعوة لعقد مؤتمر عام للمثقفين بحزب التجمع، حضره أكثر من مائة كاتب ومثقف أصابهم توقيع المعاهدة بصدمة شديدة، وطالبوا بإنشاء كيان ما ينظم الجهود ويتيح مواجهة المستقبل، الذي تحمل نُذره هجوما إسرائيليا سيستهدف بلا شك الثقافة والفكر. كانت معظم الأسماء التي حضرت لها وزنها وحضورها وتاريخها من كبار المفكرين والكتاب، وتم الاتفاق على إسم اللجنة وهي « لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» باعتبارها لجنة جبهوية تضم مختلف التيارات والاتجاهات التي يجمع بينها هدف أساسي هو مواجهة الهجوم الإسرائيلي على الثقافة الوطنية، على الرغم من وجود مادة صريحة في اتفاقية كامب ديفيد تقضي بمعاقبة من يحرضون ضد الاتفاقية. كما تم الاتفاق على أن تتولى الراحلة الكبيرة لطيفة الزيات رئاسة اللجنة على الرغم من أنها لم تكن عضوة في حزب التجمع، وقد نالت إجماعا تاما من الحاضرين، فهي واحدة من الشخصيات المعروفة منذ شاركت عام ١٩٤٦ في انتفاضة الشعب المصري ضد الاحتلال البريطاني، وكانت عضوة في اللجنة الوطنية للعمال والطلبة التي قادت الانتفاضة. وتم التوافق أيضا على أن يتولى حلمي شعراوي عضو اللجنة السياسية ومكتب الفنانين والأدباء بحزب التجمع أمانة اللجنة.

ومنذ الاجتماعات الأولى بدأ الخلاف بين الاتجاهات الإسلامية وباقي التيارات حول إسم اللجنة، فقد طالبوا بتغييره، وامتد الخلاف إلى بعض الأمور الأخرى، وهو ما أدى إلى خروج بعض الإسلاميين وتأسيس الكاتب رفعت سيد احمد لمركز يافا للدراسات.

من جانب آخر كان كثير من المؤسسين غير أعضاء في حزب التجمع، لكنهم يوافقون على العمل من داخله في لجنة جبهوية مستقلة عن الحزب، وبالتالي لاوجود قانونياً لها.

نجحت اللجنة على نحو غير مسبوق في توحيد الجهود، وكانت تعقد اجتماعاتها المفتوحة للجميع مساء الأحد من كل اسبوع لسنوات طويلة. وكان الهدف الأساسي بالطبع هو الوقوف ضد محاولات

التطبيع، والدعوة إلى المقاطعة الشاملة لجميع عمليات التبادل العلمي والثقافي والتربوي والفني مع المؤسسات الصهيونية. لذلك بادرت بإصدار نشرة شبه منتظمة باسم" المواجهة" لفضح وكشف كل محاولات التطبيع بالإسم وبالواقعة، خصوصا فيما يتعلق بمراكز الأبحاث أو الجامعات، وهو مالعب دورا محترما في قطع الطريق بالفضح والإدانة.و كان للجنة أيضا دور في دعم نظرة» أخلاقية» وليست سياسية فقط للتطبيع باعتباره شكلا من أشكال الخيانة.

وفي الوقت نفسه أصدرت اللجنة سلسلة بعنوان كراسات المواجهة، ومجلة نظرية بالعنوان نفسه للدراسات المعمقة حول القضايا نفسها، هذا إلى جانب عقد سلسلة من الندوات المدروسة والمعدّ لها جيدا حول موضوعات وقضايا غير مباشرة، إلا أنها كشفت عن أن اللجنة لاتنظر نظرة ضيقة للتطبيع، مثل المسألة الطائفية، والوافد والموروث في ثقافتنا، مواجهة المشروع الأميركي .. ومإإلى ذلك من قضايا تشير إلى اتساع أفق اللجنة وتصديها لهموم وطنية عامة، وإدراكها أن مقاومة التطبيع جزء من باقي مايتعرض له الوطن من مخاطر تهدد وجوده.

ومن بين مآثر سيرة الأستاذ حلمي شعراوي وأياديه البيض في كتابه السابق الإشارة له، أنه أورد في ملحق الكتاب قائمة بأسماء الأمانة الأولى للجنة عند تأسيسها عام ١٩٧٩ وقائمة أخرى ربماتكون غير متكاملة للمساهمين في نشاط اللجنة خلال الفترة من عام ١٩٨١ و١٩٩٤ ، فضلا عن قائمة بأسماء هيئة تحرير المواجهة، وقائمة بأسماء مستشاري التحرير. كذلك تضمنت الملاحق نص البيان الذي أصدرته اللجنة بمناسبة السماح باشتراك إسرائيل في معرض القاهرة الدولي للكتاب.

وهنا لايمكن إغفال واحدة من أهم المعارك التي خاضتها اللجنة في مقاومة التطبيع احتجاجا على اشتراك إسرائيل، للمرة الأولى والأخيرة أيضا، في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨١. قامت اللجنة بإصدار بيان حمل عنوان: لا للكتاب الصهيوني في معرض الكتاب وقّعه أمين الإعلام في حزب العمل وعضو اللجنة المركزية لحزب التجمع ونقيب الصحافيين وبعض الناشرين وسكرتير أتيليه الفنانين ورئيس لجنة مقاطعة السينما الصهيونية، وانتهى البيان بقائمة شرف تضم الهيئات والنقابات التي أعلنت مقاطعتها لأية علاقات مع إسرائيل

وهي نقابات الصحافيين والمحامين والأطباء والصيادلة والمهن السينمائية والمهن التمثيلية والموسيقية وجمعية المؤلفين والملحنين والاتحاد العام لعمال مصر وشعبة الهندسة الميكانيكية والنووية بنقابة المهندسين.

ومن بين ماورد في البيان الدعوة طبعا لمقاطعة الكتاب الإسرائيلي بل وعدم دخول الجناح، ومقاطعة كافة الحفلات واللقاءات التي يدعو لها الناشرون الصهاينة، وأن ترفع دور النشر المصرية والعربية العلم الفلسطيني على أجنحتها...

أما توزيعه فقد احتاج إلى خطة سرية محكمة، مع اتخاذ كافة الاحتياطات التي تحول دون وصول الخطة للأمن. لذلك تم الاتفاق على دقيقة محددة، يظهر فيها عدد من أعضاء اللجنة حاملين البيان ويقومون بتوزيعه، ويقوم عدد آخر بتوزيع العلم الفلسطيني الذي كان متوافرا بكميات كبيرة. ارتبك الأمن بشدة ولم يستطع مواجهة المفاجأة وكانت ضربة موجعة في الحقيقة. تم القبض على صلاح عيسى وحلمي شعراوي وأودعا سجن القلعة، كما تم القبض على عدد آخر فيما بعد، لكن اللجنة أثبتت أنها موجودة بقوة وتم إفشال اشتراك إسرائيل في معرض الكتاب..

استمر نشاط اللجنة لما يقرب من عقد ونصف العقد من السنين، ثم بدأ يضعف ويخبو. ويشير حلمي شعراوي في كتابه سالف الذكرإلى عدد من الأسباب التي أدت لذلك، ومن بينها الاصطدام بقيادة حزب التجمع التي طالبت بضرورة الإشراف على عمل اللجنة، وتعيين شخصية من الحزب تضع اللجنة أكثر في الإطار الحزبي، ومن بينها أيضا ضعف المجال العام وتضييقه، وكذلك اشتداد أزمة الفلسطينيين بعد أوسلو، مع ضعف حركة اليسار في مصر وتضييق المجال العام

(٥)

وأخيرا أود أن أؤكد مرة أخرى على ما أسميته» المغزى الأخلاقي» لمقاومة التطبيع الذي مازال هو الحائط والصد المنيع، حتى مع اختفاء لجنة الدفاع عن الثقافة القومية التي كانت رافعة جبارة ضد التطبيع خصوصا في بداياته.. وإعيد الإشارة هنا إلى مؤتمر أدباء مصر المنعقد في بورسعيد منذ بضعة شهور، وكانت أحدى توصياته رفض كافة أشكال التطبيع مع العدو الإسرائيلي..

السلام الإقليمي أم السلام الشامل ؟ الرؤية الإسرائيلية

عليان الهندي*

منذ بداية الصراع مع الحركة الصهيونية الاستعمارية، ومن بعدها وريثتها دولة إسرائيل، ساد فيها منطق ورواية، هدفها الالتفاف على حقوق الشعب الفلسطيني، بإقامة دولته المستقلة، من خلال تصوير الصراع مع العرب على أنه صراع إقليمي فقط، يحل في إطار المفاوضات المنفردة والمباشرة، التي تتضمن العودة إلى الحدود الدولية، مع إجراء تعديلات حدودية لصالحها، تضمن من خلالها ما يسمى بوجود دولة إسرائيل.

وتضمنت الحلول الإقليمية التي بحثت عنها دولة الاحتلال، حل القضية الفلسطينية، أو حل مشكلة عرب المناطق وفق تسميتها بتسليم السيطرة عليهم وعلى مدنهم وتجماعاتهم السكانية للمملكة الأردنية الهاشمية، الذين اعتبرهم وزير التربية والتعليم الإسرائيلي خلال عدوان ١٩٦٧ كالدجاج المشوي في الحضن، مضيفا أننا سنبكي لأجيال لو قررنا ضم هذه المناطق مع السكان ٤٥.

لكن اتفاقيات السلام المنفردة مع مصر والأردن، وفشل اتفاقيات أوسلوا، دفع إسرائيل إلى تطوير رؤيتها الإقليمية من حل يقضي بتسليم السيطرة على السكان، إلى حل يقضي بتطبيع العلاقات وتوقيع اتفاقيات سلام مع بقية الدول العربية، بهدف ضمان وتحييد هذه الدول من المشاركة الطبيعية في دعم القضية الفلسطينية، وتحويلها إلى قضية إسرائيلية داخلية،

* باحث في الشؤون الإسرائيلية ومترجم لغة عبرية.

ومحاصرة الحركة الوطنية الفلسطينية بهدف القضاء عليها كحالة فلسطينية جماعية تستحق حق تقرير المصير، كحل مؤقت

عليان الهندي، باحث في الشؤون الاسرائيلية ومترجم لغة عبرية وصحافي – رام الله

لحين توفر ظروف دولية مناسبة لها، لتطبيق الحل النهائي القاضي بطرد بقية الفلسطينيين من وطنهم التاريخي، أو طرد زيادات السكان على أقل تقدير.

المنازعات الاقليمية وطرق حلها

نتيجة نكبة الفلسطينيين عام ١٩٤٨، ونكسة حزيران عام ١٩٦٧، والدور العربي في محاولته منع إقامة دولة إسرائيل في الأولى، والتصدي لها في الثانية، نشأ صراع إقليمي في المنطقة، كان فيه العرب والفلسطينيون من جهة، وإسرائيل وحلفاؤها الغربيون من جهة أخرى. حيث سمي الصراع بين الطرفين بالصراع العربي-الإسرائيلي، أو الصراع الإقليمي.

وبعد إنشاء م.ت.ف والاعتراف بها ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطيني، أصبح هناك مسمى إضافي للصراع وهو الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، الذي اختارت إسرائيل التنكر له، واستخدام الوسائل العسكرية والأمنية لمواجهته، إلى أن وقعت اتفاقية إعلان المبادئ أو اتفاقيات أوسلو.

وحسب القانون الدولي :»لا توجد تعاريف محددة للنزاعات الإقليمية، سوى ما ذكرته محكمة العدل الدولية، بأن النزاعات ،ومن ضمنها الإقليمية، هي خلافات قانونية برزت وتشكلت قبل النظر بها من قبل المحكمة، وهي خلافات موجودة من الناحية الموضوعية». وأضافت المحكمة :» لا تنطبق النزاعات الإقليمية على حق تقرير المصير للشعوب، الذي اعتبر من القواعد الآمرة في القانون الدولي»٤٦.

ويشارك في النزاع الإقليمي ،الذي يصل في كثير من الأحيان إلى صدامات مسلحة، دولتين أو أكثر مثل النزاع المسلح بين اليابان والصين الذي شاركت فيه أطراف إقليمية متعددة، أو

النزاع المسلح بين ألمانيا وبولندا وفرنسا وبريطانيا، أو الصراع العربي-الإسرائيلي.

ويختلف الصراع الاقليمي عن الحروب الثنائية بين دولتين مثل الحرب بين الأرجنتين وبريطانيا للسيطرة على جزر فوكلاند أو الحرب بين العراق وإيران. كما تختلف عن الحروب التي شاركت فيها الكثير من الدول مثل الحربين العالميتين الأولى والثانية.

ويكمن جوهر النزاعات الإقليمية في استخدام القوة المسلحة لتغيير الوضع الإقليمي الراهن والحفاظ عليه. وهذا النزاع يختلف عن المنازعات المسلحة الأخرى كالتدخل المسلح في الشؤون الداخلية الذي لا يرمي إلى إحداث تغييرات إقليمية. ويعد النزاع العربي الإسرائيلي من النماذج البارزة على المنازعات الإقليمية، منذ بداية العقد الثاني من القرن العشرين.

وحول كيفية حل المنازعات الإقليمية، ذكرت محكمة العدل الدولية أنها تحل سلميا، وليس بقوة السلاح أو التهديد باستخدامه، وحددت تسعة معايير للحل من ضمنها المفاوضات المباشرة٤٧، التي وضعت لها شروط محددة هي :المفاوضات المباشرة والمنفردة ومن دون شروط مسبقة.

لكن إسرائيل، وكعادتها منذ نشأتها، تتعامل مع القانون الدولي بانتقائية مطلقة، حيث اختارت التعريف الإقليمي المتعلق بالنزاع بين الدول، لأن هذه النزاعات تدور حول رسم الحدود، وحول الاستفادة من عائدات مساحة معينة، ورفضت بشكل كلي الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني بتقرير المصير٤٨. واختارت المفاوضات المباشرة والمنفردة ومن دون شروط مسبقة، كوسيلة لحل النزاع مع العرب والفلسطينيين، معتمدة في ذلك على الدعم ،السياسي والعسكري، الأميركي والغربي المتواصل، ورفضت بشكل متواصل المعايير الدولية الأخرى للحل متطلعة إلى تكريس وقائع على الأرض تأخذ بعين الاعتبار مصالحها فقط.

ورغم توقيعها اتفاقيات أوسلو، والمفاوضات التي أجرتها مع السلطة الوطنية الفلسطينية للتوصل لحل نهائي وفق مبدأ حل «دولتين لشعبين»، إلا أنها لم تتخلى عن العناصر الإقليمية في الحلول النهائية المقترحة، عندما طرحت في كل مبادرات السلام والمفاوضات مع الاطراف العربية المختلفة، بمن فيهم الشعب الفلسطيني، دورا لجمهورية مصر العربية والمملكة

الأردنية الهاشمية في المفاوضات النهائية.

لكن رفض الطرفين العربيين، أية حلول إقليمية للقضية الفلسطينية، دفع إسرائيل إلى البحث عن حل منفرد للقضية الفلسطينية يجرد الفلسطينيين من الناحية العملية من حقهم في تقرير المصير، ويفتح لها الأبواب مشرعة للتوقيع على اتفاقيات السلام الإقليمي وتطبيع العلاقات مع الدول العربية، التي كان أخرها توقيع اتفاق السلام «أبراهام» مع الامارات العربية المتحدة وإعلان السلام مع مملكة البحرين، بهدف ترك الفلسطينيين من دون معسكر حلفاء أو أصدقاء، كي يسهل لها ولداعميها في البيت الأبيض تطبيق سياساتها بحق الفلسطينيين، في مقدمتها حشرهم في معازل وكانتونات، كحل مؤقت ومرحلي، مع ترك قطاع غزة على غاربه. أي أن السياسية الإسرائيلية القادمة، ستكون استمراراً لسياسة تقسيم الفلسطينيين إلى مناطق وملل وطوائف مختلفة، كي تستمر دولة الأقلية اليهودية بالسيطرة على الأغلبية الفلسطينية المقسمة جغرافيا وسياسيا في فلسطين التاريخية.

سلام اقليمي أم سلام شامل ؟

سادت في منطقة الشرق الأوسط، رؤيتان للحل هما :الأولى، عربية تشير بأن القضية الفلسطينية هي لب الصراع العربي الإسرائيلي، وبالتالي فإن حل هذه القضية بأبعادها المختلفة، مثل حل مسألة حق العودة للاجئين الفلسطينيين والحدود، يعتبر أساسا لحل النزاع، وإعادة الاستقرار إلى منطقة الشرق الأوسط الذي تزعزع بعد عام ١٩٤٨، وإقامة دولة إسرائيل.

وتم التأكيد على هذه الرؤية، على مدار العقود السابقة، حتى من قبل الدول الموقعة على اتفاقيات سلام مثل مصر والأردن. لكن التأكيد المهم للسلام الشامل، جاء من مبادرة الملك السعودي الراحل عبد الله بن عبد العزيز بمؤتمر القمة الذي عقد في بيروت عام ٢٠٠٢، عندما قدم خطته للسلام الشامل على أنها مبادرة عربية لتطبيع كامل للعلاقات بين الدول العربية وإسرائيل مقابل إقامة دولة فلسطينية على حدود الرابع من حزيران وعاصمتها القدس الشريف٤٩.

ونتاج الإصرار العربي، والدور الكفاحي الذي قام به الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ،إن كان في المجال العسكري أو السياسي، لقيت هذه الرؤية دعما دوليا على جميع الأصعدة، بما في ذلك الإدارات الأميركية المختلفة، التي بذلت جهودا غير عادلة وظالمة للفلسطينيين لحل الصراع لصالح دولة الاحتلال الإسرائيلي.

الثانية، مقابل الرؤية العربية، كانت هناك رؤية إسرائيلية، تعتمد في الأساس على القوة العسكرية وعلى الدعم الأميركي لها، التي تقول أن الصراع هو صراع إسرائيلي-عربي، ولا يوجد ما يسمى بالقضية الفلسطينية، وأن حل مشكلة «عرب المناطق» (الضفة الغربية وقطاع غزة) يأتي في السياق العربي، أي من خلال التنازل عن التجمعات الفلسطينية في الضفة الغربية للأردن، ولا يفترض أن يكون لهم مسار منفرد، أي أن السياسات الإسرائيلية، بحثت عن حلول للقضية الفلسطينية وللفلسطينيين خارج فلسطين التاريخية.

وأضافت الرواية الإسرائيلية، أن عدم الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط ناتج عن عدم رغبة العرب في حل القضايا المختلفة التي نتجت عن عدوان عام ١٩٤٨، أي اعتراف من الدول العربية بإسرائيل على أنها ليس فقط جزء من منطقة الشرق الأوسط، بل هي صاحبة الحق الوحيد في فلسطين التاريخية من ناحية دينية ووطنية وديموغرافية، وهي الوريث الطبيعي للانتداب البريطاني على فلسطين، وليس غيرها٥٠.

لكن الرواية الإسرائيلية المذكورة، واجهت عقبات وصعوبات، نظرا لوجود أكثر من نصف الشعب الفلسطيني في وطنه التاريخي، ونضالاته المختلفة في الداخل والخارج، والمعارك التي خاضها مع دولة الاحتلال الإسرائيلي، التي توجت بالانتفاضة الاولى، وفك الارتباط مع المملكة الأردنية الهاشمية، ما دفع إسرائيل، إلى بداية البحث عن حل منفرد للقضية الفلسطينية، من دون الحديث عن حق تقرير المصير وفق القوانين والشرائع الدولية.

لكن رؤية إسرائيل، بدأت تتراجع، بعد أن رفض الفلسطينيون منطق الحل القائم على تقاسم الضفة الغربية بين الشعب الفلسطيني وبين إسرائيل، ما دفعها للعودة إلى البحث عن الحلول الإقليمية، لكن هذه المرة، ليس البحث عن حل للقضية الفلسطينية في إطارها العربي، أي

عدم ايجاد حل للقضية الفلسطينية وفق لا الشرعية الدولية ولا المبادرة العربية ولا حتى التفاوض مع السلطة الوطنية الفلسطينية، بل من خلال توقيع اتفاقات سلام مع الدول العربية، تتضمن تطبيع العلاقات مع هذه الدول، من دون أن تتلقى هذه الدول أي مقابل من دولة الإحتلال، أو وفق تصريحات رئيس الوزراء الإسرائيلي «السلام مقابل السلام» وكأن بعض هذه الدول خاضت ولو معركة صغيرة ضد إسرائيل، من أجل التفرغ لحل القضية الفلسطينية التي تركتها لعنصر الزمن الذي تعتبره يجري لصالحها٥١.

واعتمدت إسرائيل في رؤيتها الجديدة، على تحقق رؤيتها وروايتها لمنطقة الشرق الأوسط، التي تقول أن عدم الاستقرار في المنطقة، لم يكن نتاج عدم حل القضية الفلسطينية، بل هو نتاج عدم انتشار الديمقراطية في الوطن العربي المليء بالحروب والاقتتال بين قبائله المختلفة التي لم ترتق لمستوى الدول المتحضرة، مستشهدة بذلك بالحروب الدامية في كل من اليمن وسوريا وليبيا، وحتى بالصراع الفلسطيني الداخلي الناتج عن انقلاب حركة حماس على الشرعية الفلسطينية ،التي اصبحت جزءا منها نتاج انتخابات ٢٠٠٥، وسيطرتها بالقوة المسلحة على قطاع غزة. إضافة إلى ذلك، وجود إدارة أميركية يقودها الرئيس الأميركي ذو الهوى والتوجهات والتصرفات الإسرائيلية بالمطلق، نتيجة سيطرة عناصر من يهود الولايات المتحدة المناصرين للحركة الصهيونية، على السياسة الأميركية الخارجية.

شروط السلام الإقليمي

بعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ومدينة القدس وغيرها من الأراضي العربية، بدأت إسرائيل في وضع شروط السلام مع الدول العربية التي لها حرب معها فقط، من دون الحديث عن بقية الدول العربية، شريطة أن يكون التوقيع على اتفاقيات سلام منفرد وليس جماعي، وفق رؤية إسرائيلية تقليدية لا ترى بالأمة العربية وحدة واحدة. وفي حين رفضت مناقشة موضوع الأراضي الفلسطينية تاركة الأمر للظروف، خوفا من حجم المشكلة الديموغرافية وخطورتها وتطورها، التي وصفها وزير المالية الإسرائيلي حينها بنحاس سابير

بالعيش فوق فوهة البركان منذ اليوم الأول لوجودهم في الضفة الغربية وقطاع غزة٥٢.

وتكونت الشروط الإسرائيلية للسلام من نوعين من السلام، الأول، مع الدول العربية المحيطة، التي تضمنت إعادة أراض وفق مبدأ الأرض «مقابل السلام» مع ترتيبات أمنية تضمن لإسرائيل حرية التحرك العسكري إذا تراجعت الدول العربية عن هذه الاتفاقيات التي وصفها مختلف وزراء إسرائيل بأنها لا تساوي الحبر الذي كتبت به٥٣.

أما النوع الثاني من العلاقات فهو مع بقية الدول العربية التي تضمن تطبيع العلاقات في جميع المجالات، الذي وصفته دولة الاحتلال بأنه ألحق بها خسائر فادحة قدرتها المصادر الإسرائيلية بعشرات مليارات الدولارات. وقبل عدة سنوات أضافت شرطا أخر للسلام مع الفلسطينيين وهو إقامة علاقات سلمية مع كل الدول العربية من دون استثناء ومع دول إسلامية مثل إيران وتركيا، التي لها أصلا علاقات دبلوماسية واقتصادية متنوعة مع إسرائيل.

أما الفلسطينيون، فلم يجري الحديث عن أي شروط للسلام الخاصة معهم، وتم تجاهلهم حتى عام ١٩٧٤، بعد اقتناع المجتمع الدولي أن لب الصراع هو القضية الفلسطينية، ما دفع رئيس الوزراء الإسرائيلي حينها إسحاق رابين إلى وضع شروط خاصة للتفاوض مع الفلسطينيين وطلب من الادارة الأميركية حينها تبنيها مقابل فك الاشتباك الأول المعروف باسم ١٠١، مع جمهورية مصر العربية. وتكونت شروط السلام مع الفلسطينيين من :نبذ الارهاب والاعتراف بحق إسرائيل بالوجود وبأن قرار ٢٤٢ هو أساس الحل في الشرق الأوسط٥٤». لكن الشروط المجحفة بحق الفلسطينيين دفعت قيادة منظمة التحرير إلى رفضها حتى عام ١٩٩٨.

غير أن حالة الحصار التي عاشتها القضية الفلسطينية وقياداتها بعد الخروج من بيروت، وفك الارتباط القانوني والإداري بين الضفة الغربية والأردن، دفعتهم إلى استغلال الانتفاضة الأولى التي اندلعت أواخر عام ١٩٨٧، إلى عقد المجلس الوطني وإعلان الدولة، ومن ثم الموافقة على الشروط الإسرائيلية-الأميركية للسلام في أواخر عام ١٩٨٨. لكن إسرائيل الرافضة لمنطق السلام، أضافت شروطاً جديدة للتفاوض مع الفلسطينيين كان من أهمها عدم التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية وأن تكون المفاوضات على إنشاء حكم ذاتي في الضفة الغربية.

وبعد التوقيع على اتفاقيات أوسلو، التي تم من خلالها تفكيك عقبة المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد فشل المفاوضات الفسطينية-الإسرائيلية في كامب ديفيد عام ٢٠٠٠، ونتيجة الانفصال أحادي الجانب عن قطاع غزة عام ٢٠٠٥، أضيف شرط جديد وهو الاعتراف بيهودية دولة إسرائيل، التي قال عنها داف فايسغلاس مدير مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق أريئيل شارون، أننا وضعنا شرطا لاستمرار مسيرة السلام لا يمكن للفلسطينيين قبوله، بالمختصر لقد وضعنا كل مسيرة السلام في قنينية وأضفنا عليها الأدرينالين٥٥.

ومنذ عام ٢٠٠٥ حتى اليوم توالت الشروط الجوهرية وغير الجوهرية من قبل إسرائيل وحليفتها الولايات المتحدة بهدف التسويف والمماطلة، التي استجاب الفلسطينيون للكثير منها مثل إجراء إصلاحات سياسية وبنيوية في السلطة الفلسطينية، لتكون مؤهلة لقيام دولة فلسطينية مستقلة وعاصمتها القدس الشريف -لكن من دون طائل.

لكن فشل مفاوضات السلام عام ٢٠١٤، بعد رفض إسرائيل التسويات الأمنية في غور الأردن، وفق خطة الجنرال الأميركي جون آلين، بعد إصرارها على الوجود الإسرائيلي الدائم فيه، أنهى بشكل علني وواضح مسيرة السلام التي بدأت في مؤتمر مدريد عام ١٩٩١. وجاء التأكيد على انتهاء مسيرة السلام، عندما طرحت الإدارة الأميركية برئاسة الرئيس دونالد ترامب خطتها للسلام في الشرق الأوسط المعروفة بصفقة القرن التي صاغ بنودها وتفاصيلها مكتب رئيس الحكومة الإسرائيلية وشخصيات يهودية صهيونية تعمل في البيت الأبيض، في مقدمتهم صهر الرئيس جيرارد كوشنير٥٦.

الواقع بعد السلام الاقليمي

الفشل الإسرائيلي-الأميركي في تطبيق صفقة القرن على الفلسطينيين، أعاد إلى الواجهة مسألة السلام الإقليمي مرة أخرى، لكن هذه المرة ليس بهدف حل القضية الفلسطينية في إطار إقليمي مثل التقاسم الوظيفي مع الأردن الذي رفضه الملك الراحل حسين بن طلال في ثمانينات القرن الماضي، أو ايجاد حل لمسألة قطاع غزة مع جمهورية مصر العربية، الذي

قاومته على مدار العقد ونصف الماضيين، بل من خلال توقيع اتفاقات سلام مع كل الدول العربية وتطبيع العلاقات مع هذه الدول، تاركة الفلسطينيين من دون حلفاء ومعسكر داعمين طبعيين لهم في الشرق الأوسط، كي تتفرغ لحل القضية الفلسطينية بالطريقة التي ترتئيها مناسبة لها، خاصة أن هناك موافقة أميركية تجدد كل عامين في مجلسي النواب والكونغرس الأميركي، بعدم فرض أي حل على دولة الاحتلال الإسرائيلي، إضافة إلى وجود تعهدات أميركية سابقة بعدم طرح أية مبادرة اميركية للسلام في منطقة الشرق الأوسط من دون استشارة إسرائيل٥٧.

وفي حال تحققت الرؤية الإسرائيلية بالسلام مع الدول العربية، من دون حل القضية الفلسطينية، ستمأسس إسرائيل سياستها القائمة منذ عام ١٩٦٧، على ثلاثة أمور جوهرية هي: الأول، استمرار التعامل الأمني والعسكري مع القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني لقمع آماله بالتحرر وإقامة الدولة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

الثانية، نتاجاً للسياسة الأولى، إجبار الشعب الفلسطيني على العيش في كانتونات ومعازل، تفصل بينها شوارع ومستعمرات ومعسكرات تقع كلها تحت السيطرة الإسرائيلية، مع غيرها من الإجراءات على الأرض.

الثالث، في المجال السياسي، حيث ستعمل إسرائيل على خلق قيادات محلية ذات أبعاد عائلية وعشائرية لإقامة وحدات حكم إداري في الضفة الغربية، مثل إقامة الإمارات الفلسطينية غير المتحدة ،أسوة بالامارات العربية المتحدة التي وقعت اتفاقية سلام مع إسرائيل مؤخرا، وربما جاءت إلى الساحة الفلسطينية لتسويق هذه الرؤية. وهو المشروع الذي يلقى قبولا كبيرا في أوساط اليمين الإسرائيلي والكثير من وزراء حزب الليكود، وهو جوهر صفقة القرن الأميركية-الإسرائيلية.

ويتكون المشروع من عدة بنود من أهمها :حل السلطة الوطنية الفلسطينية، لمنع قيام دولة فلسطينية بين البحر والنهر، وتشكيل ثماني إمارات فلسطينية تقاد بواسطة عشائر وحمايل فلسطينية كبيرة٥٨.

خلاصة

لم تكن آلية الحل الإقليمي التي سادت في أوساط الدول العربية حتى فك الارتباط بين المملكة الأردنية الهاشمية والضفة الغربية عام ١٩٨٩، للسلام مع دولة الاحتلال الإسرائيلي القائمة على العودة إلى حدود الرابع من حزيران، غير قابلة للتنفيذ. لكن الرؤية الإسرائيلية للحل الاقليمي وفي جميع مراحلها، كانت تختلف من ناحية جوهرية، عن الرؤية العربية والأردنية، حيث اعتقدت دولة الاحتلال الإسرائيلي، أن الحل الاقليمي يتطلب حكم السكان من دون السيادة على الأرض، أي حل القضية الفلسطينية في الأردن، وليس في الضفة الغربية.

وما انطبق على الضفة الغربية، سار عليه قطاع غزة، خاصة بعد التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨. حين ضغطت الولايات المتحدة وإسرائيل، من أجل اعادة مصر لقطاع غزة، كما أن كل الحروب التي اندلعت في قطاع غزة بعد عام ٢٠٠٧ كان هدفها تعميق التدخل المصري في قطاع غزة كمقدمة لحل مصري لقطاع غزة.

فشل المسار الإقليمي وفق الرؤية الإسرائيلية، لا يعني أنها نجحت في المسار الفلسطيني أو السوري، فبعد أقل من ثلاثة عقود على مؤتمر مدريد انتزعت اعترافا مريحا من البيت الأبيض بالسيادة الإسرائيلية على الجولان. وعرضت بالتعاون مع الولايات المتحدة، ما يسمى بصفقة القرن، التي لا يمكن تشبيهها سوى بمشروع المعازل والكانتونات الذي تحررت منه جنوب إفريقيا في الربع الأخير من القرن الماضي.

لكن الرفض الفلسطيني والدولي وبعض الدول العربية في مقدمتها المملكة الأردنية الهاشمية، دفعها إلى البحث عن المسار الإقليمي من جديد، وهو التوقيع على اتفاقيات سلام منفردة أو جماعية مع الدول العربية من دون ايجاد حل للقضية الفلسطينية، يتم من خلالها إخراج الدول العربية وشعوبها من الصراع العربي-الإسرائيلي، الذي اعتبرت فيه القضية الفلسطينية جوهره، ما يعني أن تلاقيا في الرؤى بين بعض الأنظمة العربية مع الرؤيتين الأميركية والإسرائيلية، في تحويل القضية الفلسطينية إلى قضية إسرائيلية داخلية تجد لها حلولا وفق ما يروق لها، من دون تدخل عربي أو حتى إسلامي.

إضافة أخرى لا بد من الإشارة إليها، وهي أن اتفاقيات السلام والتطبيع مع دولة الاحتلال الإسرائيلي، هي دعم سياسي رخيص لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو والرئيس الأميركي دونالد ترامب الأكثر عداء للعرب والمسلمين، وهي وثيقة استسلام عربية للشروط والإملاءات الإسرائيلية والأميركية، وهذا هو المعنى الحقيقي لما يردده نتنياهو في كل مناسبة بأن «إسرائيل تصنع السلام من منطلق القوّة أو أننا أقوياء نحقق السلام.

لكن القضية الفلسطينية التي بدأت، قبل أكثر من مائة عام، ما زالت حية، ليس بفضل الكثير من الأنظمة العربية المتعاونة والمهرولة نحو العدو الإسرائيلي مرة باسم السلام ومرة أخرى بحجة القرارات السيادية، ومرة باسم المصلحة الوطنية العليا، بل بفضل وجود وثبات ونمو الشعب الفلسطيني في وطنه التاريخي. ما حوله ويحوله إلى تهديد حقيقي للمشروع الصهيوني في فلسطين التاريخية، وهو الوجود الواجب المحافظة عليه وتعزيزه لحين نشوء ظروف أفضل لتحقيق آمالهم وطموحاتهم في فلسطين التاريخية، التي تشير معظم المعطيات الإسرائيلية أن الشعب الفلسطيني يتفوق على اليهود من حيث العدد والتوزيع، ما يؤكد أن السيطرة على فلسطين منذ ١٠٠ عام حتى اليوم ما زالت بالقوة المسلحة، وليس بقوة الحق الذي يملكه حصريا الشعب الفلسطيني.

الهوامش:

١. . الهندي عليان، الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة - قرارات وسياسات الحكومة الإسرائيلية في أرشيف جلسات العام ١٩٦٧، ص ٢٠٠، دراسة لم تنشر بعد، ٢٠٢٠.

٢. . د. جعفر نوري مرزة، المنازعات الإقليمية في ضوء القانون الدولي المعاصر، ص ٢٠، جامعة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٢.

٣. . نفس المصدر، البقية هي :لجان التحقيق ولجان التوفيق والمساعي الحميدة والوساطة والتحكيم ومحكمة العدل الدولية والمنظمات الإقليمية، وهيئة الأمم المتحدة.

٤. . نفس المصدر.

٥. . مؤسسة الدراسات الفلسطينية، قرارات مؤتمر القمة العربي الرابع عشر في بيروت آذار/مارس ٢٠٠٢، رابط المقال على الموقع الالكتروني A٤%D٨%٨٥%oldwebsite.palestine-studies.org/sites/default/files/%D٩.

٦. . البروفيسور أبراهام سيلع، يوم السلام- هل المسألة الفلسطينية هي جوهر الصراع في الشرق الأوسط، الموقع الاليكتروني لطاقم التفكير الاقليمي، رابط المقال ٩٥%D٧%٩٩%www.regthink.org/articles/%D٧%، ٢٠١٥\٦\٢٩.

٧. . نوعاه لاندو، بنيامين نتنياهو :إذا انتظرنا الفلسطينيين من أجل صنع السلام، سننتظر إلى الأبد، رابط المقال في الموقع الاليكتروني لصحيفة هأرتس ١,٩١١٣٥٥٠-www.haaretz.co.il/news/politics/.premium ، ٢٠٢٠\٨\٣٠.

٨. . عليان الهندي، الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة - قرارات وسياسات الحكومة الإسرائيلية في أرشيف جلسات العام ١٩٦٧، بحث لم ينشر بعد، ص ١٩٩، ٢٠٢٠

٩. . نفس المصدر، ص ٩٦.

١٠. . غولد دوري، الحدود التي يمكن الدفاع عنها، رئيس مركز القدس لشؤون الجمهور والدولة وسفير إسرائيل السابق في الأمم المتحدة. كلمة غولد في مؤتمر هيرتسليا السادس الذي عقد عام ٢٠٠٦ .

١١. . المحامي، دوف فيسغلاس، عشر سنوات على الانفصال عن غزة –المنطق السياسي، يوم دراسي عقد في مركز أبحاث الأمن القومي في جامعة تل أبيب، ٢٠١٥/٧/٢٢.

١٢. . محرران، يهودا بن مئير وليمور سمحوني، الالتزامات الأميركية اتجاه إسرائيل - الأبعاد القانونية والسياسية وتطبيقاتها، ص ٧، مذكرة خاصة، مركز أبحاث الأمن القومي، ٢٠١٠.

١٣. . الهندي عليان، دور الأميركيين اليهود الصهيونيين في صفقة القرن وضم الضفة الغربية، المدونات، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رابط المقالة ١٦٥٠٣٥٦/www.palestine-studies.org/ar/node ، ٢٠٢٠.

١٤. . مركز بيغن السادات للدراسات الاستراتيجية، يوم دراسي بعنوان "بعد يوم من انتهاء حكم أبو مازن، محاضرة البروفيسور مردخاي كيدار.

قراءة في إعادة كتابة التاريخ الفلسطيني

أ.حسام أبو النصر *

ان فكرة إعادة كتابة التاريخ قديمة جديدة، تنبه لها كثير من المؤرخين خاصة بعد احتلال فلسطين، لمحاولة ربط المشروع الإستعماري بالتاريخ والوجود اليهودي في المنطقة، وهذا دعا لمراجعة كل التاريخ المتعلق بالمنطقة وليس فقط فلسطين بل تاريخ شبه الجزيرة العربية وصولا للعراق امتدادا لسوريا والأردن ولبنان لتصل لحدود مصر، ويعتقد أن أغلب الحضارات أرخت لتاريخ وجودها وهذا ظاهر في المعابد المصرية والمكتشفات الاثرية وفي باقي المدن البابلية والاشورية والسومرية والكتابات المسمارية، وصولا إلى حضارة الدلمون في الجزيرة وممالك اليمن التي إعتقد البعض أن التاريخ اليهودي والمدن اليهودية في الكتاب المقدس تصل إلى هناك أو وجدت هناك.

يقال ان التاريخ كان يكتبه المتمكن من امتلاك القوة على الكلمة وامتلاك الاقلام التي تكتب ما يملى عليها أن تكتب، والبسطاء عادة لا يمتلكونها ولكن يمتلكها أصحاب النفوذ والاقوياء وفي الحروب يكتبها المنتصرون، وقد يكون هذا احد أسباب ظهور التاريخ الاجتماعي في القرن الماضي والذي يكتبه البسطاء أو يدور حول الطبقة الوسطى والفقيرة او البعيدة عن النفوذ والقوة .

في كل المراحل التاريخية التي مرت بها فلسطين، كانت تحتاج في كل مرحلة إعادة قراءة لتلك

* باحث فلسطيني

الحقبة، لكن مجموع ما تعرضت له فلسطين من غزوات وهجمات واستعمار جعلها محطا للاحداث الدائمة، وكان آخرها الإحتلال الإسرائيلي الذي اعلن رسميا عام ١٩٤٨م، وطبعا أي استعمار في العالم يعمل على تطويع الشعب المستعمر ويحاول اسقاط هويته وتزوير تاريخه الطويل، لذلك عملت إسرائيل منذ احتلالها فلسطين على اسقاط هذه النظرية على الشعب والارض والهوية الوطنية، وبعد مرور اكثر من ٧٢ عاماً على الاحتلال كان يتوجب على المؤرخين تصحيح المغالطات التاريخية التي استعملها الاحتلال لصالح رؤيته الاستعمارية من التاريخ القديم وصولا إلى التاريخ الحديث والمعاصر، وبناء على ما سبق نستعرض هذه الحقب التاريخية والملاحظات التي يمكن للمؤرخين أن يأخذوها بعين الاعتبار لتصحيح المسار .

التاريخ القديم :

إن التاريخ القديم الذي يبدأ بالكابري والنطوفين وصولا إلى حضارة كنعان والفلسطينيين، والفينقيين والحضارات المتعاقبة اليونانية والرومانية والفارسية والبيزنطية وغيرها، والفتح الاسلامي لفلسطين في ١٥ هجرية، ثم الامويين والعباسيين والمماليك وصولا إلى التاريخ الحديث والحكم العثماني بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، تعرض هذا التاريخ لكثير من المغالطات واللبس، وهناك خطأ شائع بأن بداية الحياة الحضرية كانت في العهد الكنعاني الا انه حسب المكتشفات الاثرية فإن النطوفيين كانوا الاقدم، لكن بدأت تتشكل الحضارة وملامح المدن والقلاع والحياة المدنية في العهد الكنعاني، ويشكل التاريخ القديم مدة زمنية طويلة في عملية التأريخ امتدت لالاف السنين قبل الميلاد وصولا إلى الألف الثالث قبل الميلاد وحضارة كنعان، وقد تركت الكثير من علامات الاستفهام، إلا أن بعض الألغاز بدأت تنفك من خلال قراءات للحفريات، واكتشاف مخطوطات ومنحوتات رسائل تل العمارنة في معابد الكرنك في مصر التي ارخت ١١٩ مدينة كنعانية والتي شكلت دليلاً تاريخياً هاماً للمؤرخين، وكان يجب الاستناد عليها أمام المغالطات وعمليات التزوير التي جاءت خاصة

بعد وصول المستشرقين الى فلسطين ما بين القرن السادس عشر حتى التاسع عشر وأوجها من جاؤوا مع حملة نابليون بونابرت ١٧٩٩ على فلسطين وقبلها بعام على مصر وشكلوا مختلف الجنسيات على رأسها البريطانية التي تبنت الحركة الصهيونية ورؤيتها وتجسد ذلك بتأسيس صندوق استكشاف فلسطين ١٨٦٥م والذي ضم عدداً من الباحثين والمؤرخين وعلماء اثار وقد كثفوا عمليات البحث والتنقيب في محاولة لنسب المكتشفات الى ما جاء في اسفار التوراة تمهيداً لعملية الاستعمار، وهذا ما اخر عملية كتابة التاريخ بشكله الصحيح، لما تعرض له من عمليات تزوير طويلة وانتهاك للتراث الانساني والآثار الفلسطينية وعمليات النهب والاستحواذ بشتى الطرق، وعمليات تدمير ممنهج، ومحاولات إخفاء بعضها، جعل إمكانية جمع هذا الارث الفلسطيني مهمة صعبة، خاصة في ظل استمرار طمس ونهب المواقع التاريخية، ونبشها، والاستيلاء على الاثار والأوابد والمخطوطات وصل أوجه في عام ١٩٤٨م بعد احتلال ٧٨٪ من فلسطين، عملت خلالها قوات الاحتلال على جمع وسرقة أكبر كم ممكن من هذه الوثائق والاثار، وبعد عام ١٩٦٧م بدأت بتدمير ما تبقى وفق سياسات ممنهجة منها تدمير حارة المغاربة حتى حريق الاقصى في محاولة لتدميره عام ١٩٦٩م وصولا إلى اثار الضفة الغربية وقطاع غزة، التي يعرض جزء منها في المتاحف الاسرائيلية وجزء منها نهب على يد موشي ديان ولم ينكر ذلك في مذكراته. وأعتقد أن جزءاً كبيراً من المؤرخين الذين أرخوا لتلك الحقبة اعتمدوا على مراجع اجنبية ووقعوا في فخ التزوير، ومنها تغيير أسماء الامكان واطلاق الالقاب على الجماعات الفلسطينية، وفرض تصنيفات غير موضوعية، وربط الوجود الفلسطيني باليهودي، والخلط بين بني إسرائيل واليهود والعبرانيين والصهيونية، وإطلاق الفرضيات والنظريات التاريخية الغير قائمة على الثبوت العلمي والمنجهية العلمية.

ومن العوامل التي حالت دون استكمال عملية كتابة التاريخ القديم، قلة وندرة المصادر والمراجع والتي هي بالأساس تعتمد على الاثر والأوابد، والمخطوطات، فلم يترك الكنعانيون الكثير منها كما في الحضارات الاخرى ومنها المصرية التي تزخر بمخطوطات البردي مثلا التي لم تكن مستعملة في فلسطين بشكل واسع، وغالبا نحتوا مخطوطاتهم على المعابد والبيوت

والادوات وجلود الحيوانات التي نادرا ما تجدها، وقد أدعي أن الكنعانين كانوا مقلين في كتابة تاريخهم نسبة للحضارات الأخرى وقد يكون ذلك لأسباب منها كثرة الغزوات أو لأسباب أخرى، كل ذلك شكل للمؤرخ الفلسطيني والعربي والعالمي مشكلة حقيقية في إعادة الإكتشاف وربط الأحداث وتسلسلها بل أن هناك فترات كتبت بناء على علاقة الكنعانيين بالحضارات الأخرى التي أرخت ذلك وليس الكنعانيون أنفسهم.

وبما أن الصهيونية حاولت ربط استعمارها السياسي باليهودية حاولت أن تشوه وتزور التاريخ من خلال إعتماد الكتب المقدسة مرجعا لإدعاءاتها وليس الدلائل المادية المعتمدة عادة في كتابة التاريخ، وهنا تساوق كثير من المؤرخين والمستشرقين الغربيين مع ذلك وللأسف أخذه بعض المؤرخين العرب مرجعاً، مما خلق حالة جدلية قائمة حتى يومنا هذا، إلا أن ذلك لا يجعلنا نفقد الثقة بل أصبح لدينا مراجع هامة ومصادر ممكن جدا الاعتماد عليها إضافة للتطور التكنولوجي الذي ساهم في الإكتشافات وتأكيد أو نفي أي رواية تاريخية قديمة، لكن الاحتلال مازال يحاول منع ذلك، لأنه يدرك الأحقية التاريخية للفلسطينيين على هذه الأرض.

أيضا من الازمات التي وجدت في كتابة التاريخ دخول بعض غير المتخصصين إلى عالم التاريخ من باب الفلسفة والجدلية والنظرية، والاعتقاد، بفكرة مسبقة ومحاولة اسقاطها دون دلائل مادية أو استغلال الدلائل في غير موضعها، ونجد الان كثيرا من الكتب التي تطرح في السوق العربي والعالمي حول تاريخ فلسطين، دون تدقيق أو متابعة أو حتى الرد عليها مما يخلق جدلاً في الشارع، في وقت ذووا الاختصاص غائبون عنه، أو لا يكلفون نفسهم عناء الرد من باب أنها هرطقات، فيما تجد هذه الكتب للأسف رواجاً وانتشاراً وتؤسس لمرحلة تشويه جديدة تحتاج لفترة طويلة لإعادة التصحيح.

أيضا من الأزمات التي تسببت في معضلة كتابة التاريخ القديم غياب المتخصصين والباحثين في الآثار وغالبا ما كانت تأتي لفلسطين بعثات أجنبية حتى قيام السلطة الفلسطينية ومنها فرنسيون وايطاليون أشرفوا على عمليات البحث والتنقيب، ولم يتم تأهيل باحثين فلسطينيين أو كفاءات بالشكل المطلوب للقيام بذلك، والمعضلة الثانية هي عدم الانتباه لضرورة ربط

المكتشف بالرواية التاريخية الطويلة والمتسلسلة لتاريخ فلسطين، وهنا يظهر ضعف التعاون المؤسساتي والافراد في ذلك بما يوجد تكامل بين المكتشف والاثري والمؤرخ ليخرجوا بالكتابة الصحيحة عن حقبة ما.

ان فترة التاريخ القديم طويلة جدا مقارنة مع الحقب الأخرى وكانت تحتاج لعدة تخصصات وعدم حصرها في تسمية واحدة أي ان الحقبة اليونانية لوحدها تحتاج لمؤرخين والرومانية والبيزنطية وصولا إلى التاريخ الاسلامي الذي يحتاج وحده تأريخاً منفصلاً، وقد سميت مثلا فترة صدر الاسلام الا أنها في الحقيقة ممتدة إلى الأمويين والعباسيين الخ، لكننا نقتصر على جمع جميع تلك الحقب في التاريخ القديم، ويتناول كل مؤرخ حقبة ما أو يجمل الحقب من خلال سرده التاريخي خلال تناول تاريخ مدينة أو منطقة أو قرية الخ.

التاريخ الحديث:

فعليا اعتبر المؤرخون أنه يبدأ بسقوط الدولة البيزنطية وفتح القسطنطينية ١٤٥٣م والذي امتد حكمها لدول عربية وغربية، وقد وصلت إلى فلسطين تقريبا ١٥١٧م، واستمرت حتى دخول الاستعمار البريطاني ١٩١٧م وأقرته عصبة الامم كإنتداب عام ١٩٢٢، أي نتحدث عن ٤٠٠ سنة تقريبا مرت فيها الدولة العثمانية بعوامل قوة وعوامل ضعف وصلت بها الى تسمية الرجل المريض، حملت خلالها كثيرا من الأرشيف الفلسطيني في سجلاتها، الموجودة الان في الباب العالي والمدن التركية، فيما توزعت مخطوطات فلسطين في عهدها على عدد من الدول الغربية التي كانت تحكمها الدولة العثمانية فكان نصيب بلغاريا ٣٠٠٠ مخطوط مثلا من فلسطين، فيما تحتفظ تركيا حتى الان بالاف وملايين الوثائق، التي تضم أوراق الطابو والملكيات الفلسطينية، والسجلات الشرعية والاحوال المدنية وغيرها، كما ارخت وثائق القناصل للدول التي كان لها تمثيل في فلسطين في عهد الدولة العثمانية لتلك الحقبة، وهنا ندخل في معضلة كتابة التاريخ الحديث، رغم وجود كتب عن تلك الحقبة لكنها بشكل متفرق وموزع على شكل مدن وقرى في الحقبة العثمانية أو شخصيات أو أحداث وغيرها، منها ما

صدر عن الدولة التركية والمؤرخين الاتراك ومنها ما صدر عن مؤرخين فلسطينيين وعرباً وما استطاعوا جمعه والوصول له في الخزائن التركية، وهنا يجد الباحث الفلسطيني أو المهتم بعض الصعوبة في الوصول لها فليست كل الوثائق مفتوحة للعامة، وهنا نستطيع القول أنه لم تكن هناك جهود حقيقية لاسترجاع نسخ من هذا الارشيف بالكامل وقد يعود ذلك لوجود الاحتلال وعدم ضمان حماية هذا الأرشيف من العدوان كما حصل في عدوانات سابقة.

كما نجد كثيرا من الكتب لدول أخرى تناولت تاريخها إلى جانب التاريخ الفلسطيني العثماني، مثلا العراق وفلسطين في العهد العثماني أو سوريا وفلسطين في العهد العثماني الخ، أي أنه تم تناوله ضمن تاريخ مشترك بشكل عام، إضافة إلى ذلك الأرشيف العثماني يحتاج متخصصين في اللغة التركية إلى جانب الانجليزية وهذا تخصص نادر في فلسطين، كما هو الحال بالنسبة لتخصصات تحقيق المخطوطات وترميمها، ولا توجد الكثير من الكفاءات لم يتم الاهتمام بتدريب جيل جديد يستطيع حمل هذا التخصص المهم واصبح المؤرخون يعتمدون اما على الترجمة الاجنبية للوثائق التركية أو على الترجمة التركية التي قد لا تكون واضحة أو هناك بعض الخلل في نقلها للعربية .

لذلك يجب توفر هذه المادة التاريخية من الأرشيف العثماني لدى المؤرخ الفلسطيني وعلى المسؤولين أن يقوموا على الأقل بجهود لإسترجاع النسخ التي تساهم في حفظ وكتابة هذا التاريخ، وتوفر جهداً كبيراً وعناءً يبذله الباحثون في الحقبة العثمانية والتاريخ الحديث للوصول لهذه الوثائق، ورغم محاولات مؤسسة بيت القدس للدراسات والبحوث الفلسطينية مع الرئاسة الفلسطينية لتأسيس المجلس الاعلى لاسترجاع الاثار والمخطوطات عام ٢٠١٣م، وكان يتطلب ذلك تعاوناً من الوزارات المختصة كوزارة الآثار والأوقاف والثقافة، لكن حتى الان لم يتم العمل على ذلك.

التاريخ المعاصر:

رغم أن مصادره حاضرة وموجودة وجزء من شخصياته ما زالت على قيد الحياة، إلا أنه

تعرض أيضا لكثير من عمليات التزوير، خاصة بعد نكبة عام ١٩٤٨م والإحتلال وعمليات تدمير وتهجير القرى الفلسطينية، وما صاحبها من رواية إسرائيلية، إلا أن التاريخ المعاصر إصطدم بعدة عوامل ساهمت في تشتيته، منها أولا: دخول السياسة في عملية التاريخ، وصراع الايديولوجيات ثم الاحزاب وتنافسها، منذ ثلاثينات القرن الماضي، وظهور الإسلام السياسي أيضا أدى إلى شرخ كبير، في الرواية التاريخية المعاصرة نظراً للخلاف بينه وبين الحركات العلمانية واليسارية الاخرى، والخلط بين التاريخ الاسلامي والاسلام السياسي، وانعكس ذلك فيما بعد سلباً على تاريخ فلسطين أيضا.

ثانيا: استيلاء إسرائيل على الأرشيف الفلسطيني، ومن ضمنه أرشيف مركز الأبحاث وغيره من الوثائق والمخطوطات التي نهبت والتي تؤرخ لحقبة هامة من تاريخ فلسطين، وهنا علينا ذكر ثلاث مؤسسات عملت على التاريخ المعاصر والقضية الفلسطينية بكافة جوانبها كان أولها مؤسسة الدراسات الفلسطينية وهي مسجلة رسميا في لبنان ضمن المؤسسات اللبنانية عام ١٩٦٣م إلا ان أغلب من عمل فيها هم فلسطينيون ولبنانيون، ومركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية وإنطلق عام ١٩٦٥ بقرار من المجلس الوطني آنذاك والذي عمل بشكل علمي في توثيق تاريخ فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي وأصدر كثيراً من الكتب التي اثرت المكتبة العربية والعالمية، وتوجت بمجلة شؤون فلسطينية التي عالجت مختلف القضايا الفلسطينية منذ عام ١٩٧١م، ثم جاءت تجربة الاعلام الموحد التابع لمنظمة التحرير والتي ساهمت بشكل كبير في توثيق نضالات الشعب الفلسطيني والثورات التي قام بها ونشاطات حركات التحرر التي انضوت فيما بعد تحت لواء المنظمة وضمت أرشيفاً مسموعاً،ومقروءاً، ووثائق، وصحفاً، ومجلات، وملصقات، وكتباً، وغيرها شكلت في مجموعها مادة تاريخية هامة لتلك الحقبة خاصة فترة الستينات والسبعينات والثمانينات.

وقد ظهر عدد من المؤرخين الفلسطينين الذين ارخوا لهذه الحقبة منهم عارف العارف، ومصطفى الدباغ، قسطنطين زريق، فيما اثرت المذكرات بشكل كبير في كتابة تلك الحقبة، وأهمها محمد دروزة واكرم زعيتر، وبهجت أبو غربية واخرون وأضافت لعملية التأريخ،

فيما كتب عدد منهم ما بعد النكبة مثل عبد القادر ياسين، وسلمان أبو ستة، وبيان نويهض، ووليد الخالدي، وأنيس صايغ وآخرون.

وللأسف أن أغلب من شكك بالروايات التاريخية هم من خارج علم التاريخ ومنهم شعراء، وأدباء، وروائيين، وسياسيون، ومفكرون، وأحزاب ومتدينون حتى، لكن السؤال الجوهري ما الرواية المضادة ما بعد الإنكار؟! أم هو إنكار لمجرد الإنكار وتحقيق الذات على حساب المجموع، وأشبه ذلك بظاهرة عدم الوثوق بالطب الفلسطيني أو العربي أيا كان شكله والتغني بطب الغرب الذي تعلم من مخطوطاتنا العربية، وحسب المنهج التاريخي أي رواية تاريخية تخضع للبحث العلمي والمراجع وأمهات الكتب وآثار وأوابد وليست قصة أو سردية أوحكاية أو نثراً او عبثاً، تشكيكنا في كل تاريخنا زعزع ثقة الكل بالرواية الموحدة وكتابة التاريخ الواحد وسهل مهمة المستعمر الأجنبي في الوطن العربي وفلسطين للتسلل من خلالها، وكل أصبح يفصل التاريخ على مقاسه، بينما هو واضح محفوظ، إلا أن الجهل السياسي أرخى بظلاله السوداء على تاريخنا المحفوظ، فيما أدعى بعض الروائيين ملكيتهم للرواية التاريخية، فيما هم في باطنهم خلطوا بين فكرتهم المسبقة وسيناريوهات اليقظة بما تحمله الوقائع التاريخية، لذلك أقول أن كل مؤرخ يمكن أن يكون روائياً ولكن ليس من الممكن للروائي أن يصبح مؤرخاً فشتان بينهما.

وقد ظهر كثير من الكتاب غير المؤرخين وكتبوا في تاريخ المدن، والقرى، والشخصيات، ونظراً لخصوصية القضية الفلسطينية وشح المصادر وفي ظل العدوان المستمر، كان لابد لتقبل هذه العملية لتوثيق تاريخنا المندثر رغم أن جزءاً كبيراً من هذه الكتابات لم تخضع للرؤية البحثية العلمية وفق الأسس المنهجية، لكن تم تجاوز الكثير عنها وذلك لصالح القضية الأشمل، أما الآن فبات من الضروري إعادة النظر في كثير من هذه الكتابات وتصحيحها ومنهجتها بل وإحترام التخصص ومنهجيته وترك ذلك لكتاب التاريخ والمؤرخين والباحثين لمعالجة النواقص والثغرات في كتابة التاريخ بما يشكل مصداقية وإعادة الثقة لكتابة التاريخ. وقد صاحب فترة ما بعد النكبة لجوء المؤرخين إلى مدرسة التاريخ الشفوي الذي اعتمده الغرب في القرن

التاسع عشر واستعمل فيه شهادات الحرب العالمية الأولى والثانية، وكان له كبير الاثر في التاريخ الفلسطيني، وذلك بجمع عدد كبير من شهادات الناجيين من النكبة الفلسطينية ومن عايشوها، غطت نقصاً كبيراً في المعلومات عن تلك الفترة، وتمت مقارنة الوقائع والأحداث لإثباتها، وكان جزء كبير منها صحيحاً ودقيقاً، وبدأ اعتماد التاريخ الشفوي ضمن مناهج بعض الجامعات، فيما إعتمدت عليه بعض مؤسسات الدراسات في التاريخ الفلسطيني بشكل واسع.

وللأسف كثير من الشخصيات السياسية والمفكرين، والشعراء، والروائيين خلدوا بنصب تذكاري أو تمثال أو تسمية شارع أو حتى مؤسسات رسمية وخاصة حملت أسماءهم لو دققنا كم مؤرخ فلسطيني خلدت ذكراه؟!، كم كاتب للتاريخ كرم بوسام؟! ، كم شخصية تاريخية سميت شوارع بإسمه؟!، وهنا نجد أن الشعب الذي لا يحفظ جهد مؤرخيه لا تاريخ له، لان البلاد كما بنيت بسواعد ثوارها، ومناضليها، وأطبائها ومهندسيها، وعمالها، وفلاحيها، كان هناك مؤرخ يسجل كل إنجازاتهم ولم يحفظوا هم إنجازته، المؤرخين شكلوا عبر التاريخ جسراً بين الماضي والحاضر بأجسادهم التي كانت تسلم بعضها البعض الرسالة وعليه بنيت حضارات الأمم، إذا بداية كتابة تاريخنا الصحيح والموحد هي بإعادة الثقة لأصحاب التخصص من المؤرخين ووقف العبث وتقدير جهودهم الأصيلة منذ عصورنا القديمة حتى اليوم لأنهم الدليل نحو الحقيقة، وعلى وجود كل ما سبق.

أوراق ثقافية

في مئويته ... جبرا يتحدث عن جبرا! (١٩٢٠-١٩٩٤)
يا ولد..غداً احضر دفترك وقلمك، واكتب

بديعة زيدان

تحاول هذه القراءة الاحتفائية لمسيرة الأديب والفنان والناقد الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا، المولود في العام ١٩٢٠، بناء شهادة شخصية عبر تتبع عددٍ من اللقاءات والحوارات التي جرت معه منذ الستينات من القرن الماضي وحتى سنة وفاته في العام ١٩٩٤.

السياقات التي ذهبت اليها الحوارات تضيء بقوة على علاقة الكاتب بأعماله الروائية ومصادرها، والمؤثرات التي أحاطت به، وقراءته للمشهد الثقافي في حينه، كما تذهب الى علاقته بترجماته، أعمال شكسبير، على وجه الخصوص اضافة الى أفكاره وملاحظاته النقدية، كذلك العودة الى الطفولة كمصدر عميق للكتابة.

المحرر

«ما سعيت إليه لم يكن عبثاً، فأنا لستُ بذلك الكاتب الذي يشبه وضعه من يصرخ في غرفة مغلقة، وهو إحساس كثيراً ما يراود الكتّاب. إننا بالفعل نصرخ، لكن هناك أيضاً هؤلاء الرائعين الذين يُصغون إلينا ويستجيبون لنا، ويخّيل إليّ، أن هذا صحيح، وأنه أمر واقع تفصح عنه عيون الشباب وتنطق به ألسنتهم، أحسست وأنا أصغي إليهم، أن حياتهم قد تأثرت

تأثراً حقيقياً بمئات الصفحات التي كتبتها ويكتبها أبناء جيلي من الروائيين والشعراء، لذلك فنحن في الحقيقة لا نصرخ في واد، ولم يذهب الجهد الذي بذلناه في الكتابة عبثاً».. هذا ما قاله الروائي والشاعر والناقد والمترجم والفنان التشكيلي جبرا إبراهيم جبرا، ذات لقاء صحافي، ونشر في مجلة «آفاق» الثقافية المغربية في العام ١٩٩٠.

يضيف في ذات الحوار «الكاتب يكتب في الواقع دائماً لجمهور مجهول لديه. وأزعم أنني أكتب لنفسي ما يرضيني وآمل أن يرضي الآخرين. أما عندما أرى ما أرضاني قبل ثلاثين سنة ما زال يرضي الأجيال الشابة، فالأمر عندئذ جدير بالتأمل. كنت فيما مضى أقول إنني أكتب لأجيال المستقبل، ويقول المرء أحياناً شيئاً من هذا القبيل تبريراً، ربما لأن كتابه لم يبع، أو لأن أحداً لم يقرأه، فيقول إنني أكتب للأجيال التي في رحم الزمن، وإذ بالواقع يثبت ذلك. فقد كتبتُ فيما مضى، وها هم الآن ما زالوا يقرأون ما كتبت، فهؤلاء هم المستقبل. وأستخلص من ذلك، أن الفكر العربي والخيال العربي أمران فاعلان في المجتمع، وكلاهما يفعل بصورة لا نستطيع تحديدها، إنهما يتفاعلان في دواخل النفس، ولا نعرف كيف سيغيّر المجتمع هذا التأثير والتفاعل الداخليين، وإذا أرى الشباب بهذا التفاعل يغمرني الاقتناع بأن الفعل الخلاق فعل مستمر الأثر ولا ينتهي رنينه من الأذهان.. الفعل قد يكون أحياناً مثل ضربة لا تُحدث رنيناً، وقد يكون خبطة قوية غير أنها لا تترك أثراً، لكل الفعل الخلاق هو ذاك النوع الذي لا يخبط فقط، وإنما يُبقي على رنينه المتواصل.. الأدب الكبير هو الأدب الذي يترك الأثر المولّد في النفس».

يافطة الفلسطيني

وفي جانب مثير للجدل رافق جبرا دائما حول جدلية «الإبداع والنضال»، كونه «أول من أخلّ بالمعادلة السائدة التي ترى أن الكاتب الفلسطيني مناضل في الأساس ومبدع بالدرجة الثانية»، قال بوضوح «أخذ يبدو واضحاً أن الإبداع نفسه يمثل نوعاً من النضال بالنسبة إلى الفلسطيني. فتجربة محمود درويش، وكل هؤلاء الشباب الذين يكتبون، وأنا من أوائلهم،

وقد بدأت مع الرواد في فترة صعبة جداً، وبعد عشرين عاماً على الكتابة والإبداع المتواصل ومجابهة الصم والبكم والعميان، بعد هذا كله أخذ يتبيّن أن الإبداع والكتابة الجيّدة هي نضال قد لا يقل أهمية عن أي نوع من النضال. وهذا شيء نؤكد عليه نحن الأدباء الفلسطينيون. إن النضال في سبيل أية قضية لا يمكنه سوى أن يكون مزوداً بهذا النوع من الفكر المتوالد باستمرار، والمؤكّد على التفاعل بين الفرد والحياة.

وأكد: نحن لم نصوّر الفلسطينيين بوصفهم أناساً لا يعرفون معنى أن ينظر إلى شجرة، أو معنى أن ننظر إلى الأفق فنراه بشكل ما، ما معنى أن ننظر إلى الصخرة فنرى الظل الأزرق الذي تلقيه على العشب الأخضر، هذا كلّ ما في الأمر، فما معنى أن يحبّ الإنسان، أو أن تحب امرأة حدّ الجنون، هذه كلها أجزاء من الحياة التي نقول نحن عنها إنها بعض ما نحارب من أجله، لأن حقنا نحن الفلسطينيين في الحياة هو حقنا في أن نرى هذه الأشياء كلها على طريقتنا، فنبدع على طريقتنا، ونؤكد بذلك حضورنا إنسانياً. وهذا في الحقيقة هو الذي حاولتُ أن أفعله بالذات. كتاباتي كلها عن فلسطين، وعن الدور الإنساني لفلسطين.. في الغرب يصوّروننا أحياناً نحن الفلسطينيين بوصفنا إرهابيين، وهذا جنون. فليقرأونا، نحن في الواقع نأتي إلى الحياة ونحكي إلى الناس وأيدينا مملوءة بالحب.

وشدد جبرا: لكنّ هذا لا يعني أننا مستعدون لأن نطأطئ رؤوسنا أمام أي إنسان، فنحن نجمع ما بين الصلابة التي لابد منها لقضيتنا، وبين الحب الذي نعطيه لكل من هو في مستواه.. علاقات إبداعنا هي أكبر دليل.. أنا مجرّد واحد من المبدعين الكثيرين الذين أثبتوا هذا الشيء، ومحمود درويش في المقدمة من هذا النوع من العطاء الرائع الذي بات الآن ليس عطاء عربياً فقط، ولا فلسطينياً فقط، وإنما عطاء للعالم.

يرى جبرا إبراهيم جبرا أن التجاهل الذي يبديه الغرب حيال التجربة الإبداعية الفلسطينية، «عائد أولاً إلى نوع من المقاومة الداخلية المركّبة في النفس الغربية تجاهنا، بسبب الحضور الصهيوني القوي في الأوساط الأدبية والإعلام الغربيين.. الصهيونيون لهم حضور قوي جداً في هذه الساحة بالذات، والتي نحن كأدباء وكمبدعين نقدم أنفسنا عبرها، لكن أنا أشك أن

أدبنا سواء الفلسطيني أو العربي بات يصل إلى الآخرين ولو بمقادير، ولعله في يوم من الأيام يقع تدارك شيء من هذا».

شكسبير

قدم جبرا للعربية شكسبير عبر ترجمة مبهرة، حيث اعتبر على نطاق واسع كواحدٍ من أبرز، إن لم يكن أبرز وأهم من ترجم شكسبير إلى لغة الضاد.. في حديثه حول علاقته بشكسبير: «علاقتي بشكسبير مثلها مثل علاقة أي مفكر بقضية فكرية، كعلاقة أي شاعر بقضية شعرية.. درست شكسبير لأسباب أكاديمية كي آخذ شهادتي في الأدب الإنكليزي، وكنتُ محظوظاً لأن أساتذتي كانوا من أهم النقاد الإنكليز في القرن العشرين، وأنا أذكر أسماءهم في بعض دراساتي أو في بعض كتاباتي الأتوبيوغرافية، وبما أنني شعرتُ منذ اليوم الأول أن شكسبير هو ملك للإنسانية فلم لا أكتب عنه بالإنكليزية أو بالعربية، ولمَ لا أترجم وأدرس وأجعل هذا الشيء ممكناً باللغة العربية، فاللغة العربية هائلة وتستطيع أن تستوعب أكثر الأمور تعقيداً في الأدب.

(....) لا أتحدث عن الطب أو الفيزياء أو الكمبيوتر، أنا أتحدث عن الأدب، عن الشعر.. شكسبير فيه تعقيد من حيث اللغة والصورة والشحنة العاطفية.. قد يبدو لبعض الناس أن اللغة العربية لا تستطيع أن تستوعب ذلك، وأنا أقول إن اللغة العربية تستطيع استيعاب ذلك كله، وأن المترجم البارع هو الذي يستطيع أن يجعل ذلك ممكناً، وهذا بالضبط ما حاولت أن أفعله في سبع من مسرحيات شكسبير الكبرى، ويخيّل إليّ أنني وصلت إلى مكان ما من نفس قرّائي.»

قلق وكتابة

واعترف جبرا في حوار «الآفاق» ذاته «عندما أفرغ من عمل ما يشتد بي القلق من جديد، وهذا القلق يلازمني، وهو الذي يدفعني ربما إلى أنواع أخرى من الكتابة، فأكتب نقداً، أو

أكتب دراسة فنيّة، أو أترجم شيئاً آخر، حتى ترجماتي لشكسبير في كثير من الأحيان قمت بها لأنني كنت أعوّض عن الكتابة الإبداعية التي كانت تملأني بالقلق، ولا تتحقق كما أريد».

ساعدني شكسبير في تجاوز مأساة ١٩٦٧

وقال: ترجمت مثلاً «الملك لير» أثناء كتابة رواية «السفينة»، وترجمتي لشكسبير أطلقت في نفسي كوامن كان يجب أن تطلق لكي تنفيني فأستطيع أن أعود إلى «السفينة» بالشكل الذي كنت أريده، وكان إحساسي بالمأساة إحساساً غريباً خصوصاً بعد العام ١٩٦٧.. شعرت بأن شكسبير ساعدني في التغلب على هذا الحسّ الماحق لكي أجعل منه ما يشبه السفن.. إذن أنا أعود فأنشحن، وتبدأ الفكرة تخامرني بأن هناك ربما قصّة ما أستطيع التحدث عنها، أكتبها، وأنا أتحدث عن الفن الروائي طبعاً، وإذا بفكرة مبهمة وشخصيات على شيء من الوضوح ترتسم في الذهن حتى وهي لا تزال أقرب إلى الإبهام. وتأتيني هذه الأفكار وأنا أمشي.. أحبّ المشي لمسافات طويلة.. أشعر أنني اقتربت من شيء قد يتحول إلى رواية إذا ما استمررت بكتابته، إذا بدأت بكتابته.. لكن الكلمات الأولى لا تأتي، مشكلتي هي في الأسطر الأولى.

«إنها مصاعب البداية طبعاً.. مع أن الشحنة بدأت تشتد بداخلي، وباتت تأتيني هواجس تقلقني في النوم، وتقلقني وأنا أتمشى، هواجس تفاجئني وأنا أتحدث إلى الناس، وأنا أقرأ، لكنها لا تتحول إلى أسطر أولى، لكن فجأة، وبينما قد أكون أقرأ شيئاً علمياً، أو أكون أسمع موسيقى، أو أكون في حديث مع البعض في موضوع لا علاقة له بهواجسي، أشعر باندفاع فظيع كالانفجار في ذهني، في خيالي، يدفعني رأساً إلى القلم والورقة وأقعد وأكتب.. أكتب صفحة، صفحتين، ثلاث أربع صفحات، وأعرف أنني بدأت عملاً جديداً، وأنا لا أعرف بالضبط إلى أين أنا سائر.. في كل رواياتي كانت البداية من هذا النوع، بدأتُ وأنا لا أعرف إلى أين.. أنا سائر، لكن طبعاً هواجسي موجودة، وموجودة بشدة، ومتداخلة، وإذا أعيش مع هذه الهواجس تكون الكتابة الأولى هذه التي هي ممهدة للمزيد من الهواجس.. أترك ما كتب دون أن أعيد قراءته أحياناً، وإذا جاءني بالليل أنام، وأقوم بالصدفة وأراه مرّة أخرى، فأشعر أن المزيد يأتيني إلى أن أصل إلى نقطة في الكتابة تنغلق عندها الأمور مرّة أخرى أمامي،

فأتركها وأحيلها كلها إلى ما أسميه باللاوعي، لأنني اقتنعت بعد كل هذه السنين أن الطباخ الماهر لديّ هو اللاوعي، الذي أحيل إليه كل ما يصعب عليّ أن أعطيه شكله النهائي.. إنه مستودع عجيب وشغّال وهناك صنّاعون يعملون. وإذ بي مع المدّة أشعر بأن هذا اللاوعي يقذف إلى السطح من الوعي أشياء يجب أن أعود إلى كتابتها، فالقضية سيكولوجية، وطبعاً هذه العملية تستمر عندي أحياناً ثلاث إلى أربع سنوات، وأحياناً أكثر من ذلك.

حكايات روايات

«عندما كتبتُ (السفينة) لم أفكر أنني أكتب بلساني، وإنما كنتُ أريد أن أبدأ الرواية.. كان الأمر يقلقني، وكانت فكرة تصوير تجربتي مع البحر تلازمني منذ مدّة.. القصص مع البحر متنوعة لأنني ركبت السفن بالفعل في فترة من حياتي بأشكال مختلفة، فأنا تصورت أنني سأتحدث عن البحث، وهكذا بدأت هذه الرواية، ولذا أسميتها (السفينة)، فأنا في الواقع تحدثت بلساني في أول الأمر، لكنني ما كدت أبدأ حتى شعرت بأن هذا الذي أقوله هو بالضبط ما يمكن أن يحدث لشخص مرّ بتجربة كالتي مررتُ بها، ولكنه سيستمر بها إلى تجربة من النوع الذي قد لا أريده، فما الذي يمكن أن يفعله شخص كهذا؟».

(..) استمر المونولوج على طريقتي، أريد الحديث عن البحر، أريد أن أتحدث عن بعض النساء اللواتي عرفتهن عن طريق البحر، وإذ بالفكرة الأولى لعمل درامي روائي تتخلق عندي، فاستمريت، ثم أتيت بمونولوج آخر لشخص آخر، وقلت لنفسي إن الشخص الآخر أقرب إلى نفسي وسأسميه (وديع)، فجاء المونولوج الآخر. ومن الصفحات الأولى هذه تقرر مسار السفينة التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط من بيروت إلى نابولي، ولو كنت زرت مكاناً آخر لكان من بيروت إليه، فأنا أصرّ على الحديث عن الأشياء التي جربتها بنفسي، فالأماكن التي أذكرها في السفينة هي أماكن زرتها وعرفتها وأحببتها وعرفت عنها، فأنا من ناحية أتشبث بتجربتي ومن ناحية ثانية أجعل هذه التجربة أوسع كثيراً، فتتداخل وتتعارض وتتقاطع، وتأتي النتيجة التي تكون مرجوّة.»

صيادون في شارع ضيق

«لمّا بدأت (صيّادون في شارع ضيّق) كنتُ قد تركتُ بغداد، وتوجهت إلى حيث كنت أدرس فوكنر في تلك الأيام، وقرأت همنغواي، وكثيراً من الكتاب الأميركيين الذين لم يكن قد أتيح لي أن أدرسهم قبل ذلك. وبما أن دراستي كانت في النقد كانت مطالعتي تتصل ليس فقط بمسألة التمتع بما أقرأ ولكن بدراسته دراسة نقدية.. لكن في الوقت نفسه، كانت تجربتي البغدادية ممازجة مع تجربتي الفلسطينية تلحّ عليّ بقوة، وكنتُ قد تزوجتُ حديثاً في ظروف صعبة، ومرّت عليّ ليالٍ لا أعرف النوم، لأن شيئاً ما يلحّ عليّ أن أكتب عن هذه التجربة.. أنا أدرس الرواية الأميركية، وأعيش في الحقيقة في جوّ طلابي جميل جداً في جامعة هارفرد في مدينة اسمها كامبردج وهي من أجمل المدن الجامعية في العالم (...) إلحاح الذاكرة كان عنيداً ومقلقاً، ويمنع عني النوم خصوصاً أن زوجتي اضطرت إلى العودة لبغداد، وبالتالي تركتني لظروف قاهرة وأنا في أول الزواج، فوجدت أن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تريحني هي الكتابة عن هذه التجربة، فجلست وكتبت الصفحات الأولى، وكتبت، كتبت صفحات كثيرة جداً لأنني أريد أن أفرغ ما في نفسي دون أن أعي أنني سأجعل مما كتبتُ رواية كاملة، وكانت النتيجة أن ما كتبته أخذ في النهاية شكل رواية، وواقع الأمر أن روايتي لم تبق عندما كتبتها كما كانت في بدايتها، لأن الكثير مما كتبته حذفته لكونه لم يكن منسجماً مع الفكرة الروائية التي تبلورت فيما بعد.. حذفت ما كان شخصياً جداً، وأبقيتُ على التفصيلات التي تتراكم كي تخلق الخط الروائي».

الغرفة الأخرى

«في رواية (الغرفة الأخرى) كان وصف حلم هو البداية.. أنا لست من الذين يرون الحلم الواحد عدّة مرات.. أعرف أن هناك أناساً يحدثونني عن أنهم رأوا حلماً ثم رأوه مرة أخرى وأخرى، أنا لست منهم، لكني رأيت بالفعل حلماً وكان واضحاً جداً، وفي الليلة الثانية رأيت الحلم نفسه، وفي الثالثة والرابعة رأيت هذا الحلم مرّة أخرى. لخمس أو

ست ليال جاءني هذا الحلم، وهو ما شكل بداية الرواية.. الجماعة في الحافلة، والرجل واقف ينتظر لا يعرف ماذا ينتظر، وامرأة تصر على أن يركب معهم في الحافلة، وتدير ظهرها إليه، وتكشف عن مؤخرتها كي تسخر منه عندما يرفض الانضمام إليهم، إلى الآن لا أعرف ما الذي كان يقذف بهذه الصورة بتقنياتها التشكيلية الجميلة في ذهني، لكني شعرت أن هذه البداية شيء يجب أن أقوله، ولما بدأت أصف هذه التجربة، بدأت الرواية عندي، وعرفتُ ما الذي كنت أريد أن أقوله.. منذ عشرين أو ثلاثين سنة، كانت هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها، وكنت أدفعها إلى الظل، وإذا بها تأتي، وحالما بدأت أكتب ذلك ما عاد الحلم يعود إليّ (...) أعتقد أنني حولت الحلم إلى حقيقة، ولو كان كابوساً فإنني حولته إلى كابوس آخر».

«البئر الأولى» والسيرة الذاتية

وحول روايته «البئر الأولى» وما إذا شكلت كتابة طفولته في فلسطين بين ثناياها، وكتابة حكاياته في روايات أخرى، دفعه إلى الإحجام عن كتابة سيرته الذاتية، أجاب جبرا في حوار «الآفاق» ذاته: عندما كتبت رواياتي واستعملت جانباً من حياتي فيها، لم أكن أتصور أنني سأكتب سيرة ذاتية، فأعطيت لنفسي الحرية في أن أحيك هذه الخيوط السير ذاتية في بقية النسيج الروائي، وعندما أتيت لكتابة السيرة الذاتية وانتهيت، وجدت أن بعض الأحداث التي كان ممكنا أن أضيفها إلى «البئر الأولى» قد تحدثتُ عنها في مكان آخر، وأحياناً تحدثت عنها بشكل أفضل في الروايات مما كنت سأفعله في السيرة، وهذا السبب هو الذي جعلني بالفعل أحجم عن بعض التفاصيل.. لو أنني استمريت في كتابة السيرة الذاتية لأعدت هنا أشياء كثيرة جداً ذكرتها في رواياتي، والتي حدثت بعد عبوري مرحلة الطفولة.. إذا أعدت رواية تلك الأحداث سأكون كأنني قد أعدت فصولاً من روايتي.. أعرف أن هذا اعتراف رهيب، لأنني عادة أقول إن رواياتي منفصلة عني، وهي كذلك بالفعل، لكن أنتم أوقعتموني في «بئري».

الشعر السياسي والشعر المقاوم

وفي مقال له بمجلة «الأقلام» الثقافية العراقية، في العام ١٩٧٤، قال جبرا حول الشعر، والقصيدة «الدرامية» بأنواعها: (...) نحن نعلم أن الشعر السياسي قد يكون ناجحاً في وقعه آنياً، ولكنه يكون عند الدراسة هشا ولا يصمد أمام النظرة الناقدة.. إنه يخدم غرضه في الإثارة والتحريك باتجاه الفعل، وبعدها لا تهمه الديمومة، لكنه، ولكي يصمد أمام النقد يجب أن يكون سفراً ذا أبعاد إضافية، يجب أن يكون شعراً يحرك، لا بمجرد إشاراته الخارجية، بل بما فيه من قوة داخلية مقاتلة، أي بصوره ورموزه وتضميناته وحركته الدرامية، وشعر المقاومة من هذا النوع الجيد منه.

يضيف: الشعر المقاوم الحقيقي، الشعر المقاتل لا يكتبه إلا المقاتلون أنفسهم، وهذا جوهر قيمته.. شعر المقاومين والمقاتلين الفلسطينيين ليس مجرد شعر مقاومة، إنه شعر عنيف، رافض، عاشق، محرض، يكتب بالدم والعصب، فيه نكهة الأرض والماء وطعم الجلجلة، فيه طفولية العشق، فيه الإصرار على البراءة، فيه الحس بالكشف وبالدهشة المريعة عند اختراق أقنعة الحقيقة (...) مثل هذه القصائد التي تصاغ بطريقة مدهشة بإدانتها وفجيعتها، تمجيد لكل جندي حمل البندقية ودفع بدبابته في وجه التماسيح، حيث الإحساس الجارح برقة الحياة ونبضها رغم القتل، هناك إحساس باستمرار الحياة حتى عبر المتاريس.

حوار ١٩٦٨

في حوار مع مجلة «البيان» الكويتية في العام ١٩٦٨، ويعتبر من بين أقدم الحوارات الشاملة معه، قال جبرا إبراهيم جبرا في ذلك الوقت: بحكم الظروف التي تمر بها الأمة العربية، أهم ما في مرحلتنا هذه أدب المقاومة، ما من شك في ذلك.. كم كنت أتمنى لو أرى أدباءنا الشباب يكتبون من قلب المعارك اليومية التي يشنها الفدائيون، أي أن الأدباء يجب أن يدعموا ذلك الجسر الروحي ما بين الأمة وما بين محاربيها، بالكتابة من الداخل عن تجربة التحدي، والمخاطر، ومجابهة الموت، والتغلغل في صفوف العدو، وضربها.. هذه الكتابة من الداخل

هي ما يهزنا في شعراء فلسطين المحتلة، وكلما زاد المنخرطون من الأدباء في العمل الفدائي وكتبوا عنه، كلما زاد أدبنا المعاصر تجذراً في هذه التجربة العظيمة التي تلهب النفوس عزيمة وإعجاباً في كل مكان.

هم الرواية

وحول ما وُصف بالهم الروائي، قال جبرا في حوار مع «الأوراق» العام ١٩٧٩: هناك همّان: الأول هو الحدث، هو الشخصية والحدث، هناك الشيء الذي يلح عليك لكي تقوله، لأنه يجب أن يُقال، هذا الهم أول وأساسي في الرواية.. لكن هناك همّ لا يشعر به الآخرون أحياناً، وهو همّ مركزي يؤثر في نوعية الشخصية، وفي نوع الحدث، اللذين تملأ بهما الرواية، وهو همّ البنية، البنية الروائية.

«كلما كتبت رواية شعرت أن هناك أشياء أردت، منذ الطفولة ربما، قولها، فأقولها مرة، ثم أعيد الكرّة فأقولها مرّة ثانية بشكل آخر، ثم أعيد الكرّة فأقولها بشكل ثالث، وفي كل مرّة أحاول تطوير نوع الشخصيات، ونوع الحدث، فهي من ناحية متميزة، ومن ناحية أخرى مرتبطة بما سبقها، لكن في كل مرّة أيضاً، يساورني بقوّة (الهمّ البنيويّ).. الهم التركيبيّ: كيف تركّب الشخصية وهذا الحدث في نسق يجعل للرواية قيمة فنية إضافية، قيمة تضيف بعداً آخر إلى بعد المستوى.. إننا لا نريد أن نقول شيئاً معيناً فقط، وإنما نريد أن نحدد كيف نقوله.. هذا الهم هو هم الفنان منذ القدم، منذ أن رسم الرسام على حائط الكهف للمرة الأولى، ومنذ أن نطق الشاعر بأول بيت شعر».

«في الرواية، هذه الخواطر البنيوية التركيبية تشغل بال الكاتب أكثر من غيرها.. حالما تلوح له الخطوط العريضة لموضوع الجديد فهو يريد أن يجعل الكلمة لتصوير أشياء ربما لم تكن في السابق تخطر في البال بهذا الإلحاح، فمثلاً أريد أن أجعل الكلمة وسيلة تصوير الزمن، أجعل منها وسيلة للخوض في المشكلة الزمانية، بحيث أوحي للقارئ بأنه يعبر معي مساحات زمنية لها امتدادات، ولها أعماق، دون أن أقول له إنني أروي قصّة تاريخية.. ليست القضية

قضية تاريخ، ولا هي قضية تسجيل، إنما هي الإيحاء له بالأعماق الزمنية التي قد يحسّ بها أي إنسان، ولكن ليست لديه القدرة على تصويرها.. هذا همّ أساسي للروائي اليوم، وهو همّ أعنى به وأعاني منه، وأتمتع بمعالجته عن طريق الكلمة، فاللغة نفسها عنصر أساسي من عناصر هذا التركيب القصصي، أسخّرها وسيلة أخرى لتصوير الأبعاد الزمانية التي حاول الروائيون تصويرها بأشكال مختلفة. كل على طريقة، وأنا أرجو أن أكون واحداً منهم».

بعيداً عن النمطية

رواية عربية بأسلوب جديد

وفي حوار «الأوراق»، لفت جبرا إلى أنه يحاول «كتابة رواية عربية بأسلوب جديد يخرج بها من أنماطها التقليدية.. كانت الرواية العربية، حتى أواسط القرن العشرين، مأخوذة من النمط الأوروبي الذي تعلمناه عن الرواية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا، فأخذنا الفكرة التقليدية التي تعتبر الآن من أفكار القرن التاسع عشر، وهي فكرة السرد، وفكرة ما يسمى أحياناً الإخبار، لكننا الآن نحاول أن نرى القارئ لا أن نخبره، أي أننا نحاول أن نجعله ينخرط معنا، فأنا، كمؤلف، أريد أن أستدرج القارئ ليكون عنصراً آخر في تجربتي الروائية، فينخرط معي فيما أريد أن أقول، فتصبح عناصر الرواية عندي: أنا، والكلمة، والقارئ معنا.. وبقدر ما تعلمت بعض هذا من الرواية الأوروبية، تعلمته أيضاً من (ألف ليلة وليلة)».

إذا نظرت في «الف ليلة وليلة» وجدتها حكايات معظمها ينتمي، بجوها، إلى القاهرة في العصر الفاطمي، أو إلى بغداد في أواخر العصر العباسي، وهي حكايات مبنية على حكايات سابقة أيضاً يعود بعضها في أصولها إلى قرون بعيدة، لكنها جميعاً جزء من تراث الأمّة العربية، وفي الواقع، عند التمعّن بها أكثر فأكثر تجد أنها جزء من تراث الإنسانية (...) الآن، نحن نأتي إلى القصة عن طريق الرواية الأوروبية، ونقلدها لزمن ما عن ضرورة ولا شك، لكن علينا أن نتذكر أيضاً أننا نحن أيضاً بناة فن خاص بنا نستطيع أن نستفيد منه، ومن هنا تأتي

عالمية الأدب العربي، أي من كون أن لدينا أساليب وأفكار هي جزء من أساليب وأفكار العالم. جزء من الحضارة الإنسانية (...) أعود إلى التأمل في الأسلوب الروائي، فأجد أن باستطاعتي أن أقيم الصلة لا بالفن الأوروبي فحسب، بل بفنوننا نحن أيضاً، وما أقيمه من صلة أجعله جزءاً من عملية الإبداع كما أفهمها، وهذا لا يعني أن ما يحققه كاتب واحد يصلح وصفه لكاتب آخر.. لكل مفهومه الخاص لمسألة الأسلوب، ينسحب على صلته بتراثه أيضاً، لذا فالعودة إلى «ألف ليلة وليلة»، وكتب الحكايات والسير العربية القديمة، تضيء الذهن لما فيها من دفع لقدرة الكاتب باتجاهات قد لا تكون في حساباته، ولكن ذلك لن يضمن التميز أو الأصالة لأحد، فالتميز والأصالة محصلتان نهائيتان لعوامل وقوى ذهنية لا تحصى».

البدايات

وفي حوار مع مجلة «الأقلام» في العام ١٩٩٥، شدّد جبرا على أن «البداية الحقيقية قد لا تكون تلك البداية التي تبلورت وظهرت للعيان فيما بعد، كنت في العاشرة من عمري عندما بدأت أكتب مسرحية. كنت أكتب بقلم الرصاص.. كانت مسرحية صبيانية.. كانت الأولى (عسكر وحرامية) حول شخص يملك المال وآخرون يراقبونه ما يؤدي إلى قتال فيما بينهم. كنت وأنا صغير أجمع أصدقائي ونمثّل. أكتب لهم ونمثل المشاهد.. المسرحية الثانية كانت تاريخية، وتحديداً عن ثوار فلسطين، عن مجموعة ثوار من جبال نابلس يملكون البنادق.. في ذلك الوقت، كانت معرفتي بما أريد أن أكتب ملامحه، ثم كتبت مسرحية كاملة، لا أحتفظ بها، أعطيتها لصديق لي ليقوم بإخراجها. بقيتْ عنده مدة طويلة لا أعرف عنها شيئاً، ربما ضاعت».

«كنتُ في الثالثة عشرة من عمري عندما كتبتُ قصّة على شيء من الطول، ثم حاولتُ كتابة رواية، لكنني لم أرضَ عنها، ثم كتبت مسرحيات، ثم مقالات، هذه محاولات لم تتبلور إلى شيء.. المحاولة التي أثمرت كانت الترجمة. كنت وأنا في سن السابعة عشرة أترجم ما أقرأه وأجده جميلاً، ومن بين ما ترجمته قصة (الجميلة العاشقة) لإميل زولا، وأرسلتها إلى مجلة

(الهلال)، التي كانت، آنذاك، من أهم المجلات في الوطن العربي.. كان ذلك في العام ١٩٣٨، وفوجئت يوماً بأستاذي وهو يقول لي: ماذا فعلت، أريدك «سبع» على الدوام، واذهب وانظر مجلة الهلال. كنتُ حتى ذلك الوقت لم أخبر أحداً بمحاولتي تلك، وعندما اشتريت (الهلال) وجدتُ قصتي منشورة فيها، فرحتُ وارتفعت معنوياتي بشكل كبير.. القصة المهمة الأولى لي هي تلك التي نُشرت في مجلة (الأهالي)، شتاء ١٩٣٨-١٩٣٩، بعنوان (ابنة السماء)، والغريب أنني لم أرها منشورة إلا بعد أربعين عاماً، إذ سألني عنها أحد تلامذتي وكان يعد أطروحة عنّي، وعندما قلت له بعدم وجود نسخة منها لديّ، ذهب ونقّب عنها في المكتبات اللبنانية، ثم استنسخها وبعثها إليّ، واندهشت عندما قرأتها لأنني كنت كتبت ذلك الكلام في العام ١٩٣٨، ولكنني عندما أعدت نشر أعمالي تجاهلتها، لأنها كانت بدايتي».

من أيام الطفولة

وتحت عنوان «من أيام طفولتي» استعاد جبرا إبراهيم جبرا في مجلة «الأوراق» في العام ١٩٨٤ محطات من سيرة ذاتية كتبها بصيغة روائية لافتة، جاء فيها:

«رأيتهم في المدرسة يكتبون. يمسك الواحد منهم بقلم الرصاص (اللابصة)، ويفتح الدفتر ، ويكتب على الورق الأبيض المسطر. كانوا يرفعون رؤوسهم وينظرون عبر رأس المعلم إلى (اللوح)، وهو مجموعة من أخشاب شدّت معاً على شكل مربّع، وركزت على مسند ثلاثي الأرجل، وصبغت يوماً بالأسود، ولكنها الآن تبدو بيضاء من تراكم أثر الطباشير رغم مسحها، وتفارقت الأخشاب بعضا عن بعض، وقد خطّ المعلم على هذا اللوح بضعة حروف، والأولاد يكتبون.. من عادة كل منهم أن يمدّ لسانه ويبلل طرف القلم على حفاة لسانه ويكتب، ويمحو بممحاة صغيرة عليها صورة فيل. ويتقرم القليل، فيبريه بالبرّاية ويغمس الأسود المبري بلعاب لسانه، وينظر إلى اللوح ويكتب.. كان ذلك أول يوم لي، أو أحد أيامي الأولى، في مدرسة الروم الواقعة خلف كنيسة المهد في بيت لحم.. قلت للمعلم وأنا على (بنك) طويل بين أربعة أو خمسة أطفال مثلي: معلمي، هل أكتب أنا أيضاً؟. قال: هل معك دفترك وقلمك؟. قلت: لا..

قال: كيف تكتب إذن؟.. قلت: في دفتر أحد الأولاد الذين عندهم دفاتر، فضحك الصبية، حتى ضحك المعلم، وقال: لا يا ولد. غداً احضر دفترك وقلمك، واكتب».

«قبل الظهر خرجنا إلى البيت في ساعة الغداء. رحت ركضاً إلى بيتنا. وجدتُ جدّتي في الحاكورة تنظر إلى شجر اللوز الواقع على حائط البيت (...) كانت لي علاقة خاصة بجدتي، (من وراء ظهر) أمي، فهي تعلم أن أمي (عصبيّة)، وإذا فعلت أنا شيئاً لا ترضى عنه أمي وعرفت به (أطعمتني قتلة)، فكانت جدّتي تتستّر عليّ».

«كانت دارنا في تلك الفترة تتألف من غرفة صغيرة مبنية من الحجر الخشن، تتصل بها حاكورة فيها شجرتا رمّان وشجرة لوز أو شجرتان، وعلى مقربة منها (الخشيّة) المبنية أيضاً من حجر خشن، وأمامها حوش مبلّط بالحجارة، تتوسطه فرزة البئر، ويتصل بحاكورة أخرى محاطة بأشجار الرمّان، وبين مأوانا و(الخشيّة) التي هي مأوى الخراف والدجاج، ممشى يفصل أيضاً بين الحاكورتين، ويمتد من بوابة عتيقة اختلط فيها الصفيح الصدئ بالخشب المتآكل.. وكانت غرفتنا وخشيّتنا كلتاهما مسقوفتين بالأحطاب وجذور الأشجار وأغصانها، من الداخل ظاهرة التفاصيل على السقف المنخفض، وهي تتداخل تداخلاً كثيفاً، إذ تمتد من حائط إلى حائط، وقد لبدت بالطين والتراب.. وكانت من مهام أبي وبقية أفراد العائلة بين الحين والحين، ولاسيما قبل مقدم الشتاء، دك السطح بالدرداس، ولم يكن هذا يمنع الدلف أو الخرير عندما تسقط الأمطار، ولكنه يقلله ويحصره على الأغلب في الزوايا».

«كثيراً ما كنت أستلقي على ظهري، على أرض الغرفة الترابي، أو على الحصيرة، وأرقب مصارعة الجرذان المعشعشة بين أحطاب السقف. وأكثر من مرّة، صرع جرذ جرذاً آخر وأوقعه إلى الأرض، فالتقطته قطتنا (فلّة) ببراعة، وحملته بين شدقيها إلى الحاكورة لتأتي عليه بطريقتها القططية.. كانت (فلّة) على رقتها الظاهرة، ورقة اسمها، تتكشف عن شراسة النمرة حين تجابه بالفريسة. وكثيراً ما رأيتها تجابه الفئران، وتجمدها رعباً، ثم تقضي عليها، ولكنها ذات يوم، حين واجهت جرذاً كبيراً بحجمها تقريباً، كادت تنهزم في المعركة، إذ راح يرفع قدمه الأمامية كالمخلب ليطعن بوزها، غير أنها استطاعت أخيراً أن تدفعه إلى الفرار،

والاختفاء عن العين.. عن عينها على الأقل».

«كانت دارنا هذه تعلوها من الخلف الجدران وجدر أخرى تتصاعد طبقات إلى أعلى الجبل الذي بنيت البلدة على سفحه منذ القدم.. أما من ناحية بوابة المدخل، فكان هناك الزقاق الذي يتفرع من مدرج شديد الانحدار ينزل إلى الطريق العام المعروف براس افطيس أو شارع النجمة كما سميّ فيما بعد.. من الشارع كنّا نصعد الدرجات الحجرية اللامنتظمة التي صقلتها الأقدام مع مرور الزمن، لكي تبلغ زقاق دارنا. ولكن المدرج، ولم يكن عريضاً جداً، كان يبدأ بعمارة فخمة على اليمين مبنيّة من حجارة مدقوقة منتظمة، لها بوابة حديد صبغت ذات يوم غابر بطلاء أبيض، وعلى اليسار جدار عال عند قاعدته معلف يُربط عنده حمار أبيض، كلما وقف عبر الدرج ورأسه في المعلف ومؤخرته متجهة نحو الدار الضخمة.. احتل أكثر من نصف المعبر. كان هذا حمار (الحكيم الرومي) المقيم في تلك الدار. و(الحكيم الرومي) هذا، لا أظن أن أحداً كان يدعوه باسمه، أو حتى يعرف اسمه، إنه أشهر طبيب في البلدة، والكل يطلق عليه التسمية الوحيدة التي يحترمونها (الحكيم الرومي)، فكنّا نراه وهو راكب حماره، المتميز طبقياً عن الحمير الكثيرة في البلدة بلونه الأرستقراطي الأبيض، بينما كانت الحمير الأخرى أقرب إلى الرمادي المسكين في لونها، وحقيبته في خرج الحمار، وهو ينهره بشموخ وأنفة بخيزارانة قصيرة، في طريقه إلى دار هذا المريض أو ذاك. كان (الحكيم) رجلاً قصيراً بديناً، حليق الشارب، خالط الشيب سواد فوديه، ويلبس (البرنيطة)، ولا يبتسم لأحد، أو شيء».

«لم تقم بيني وبين الطبيب أو حماره أية موّدة، فمن أوائل تجاربي في هذا الحيّ، تجربة سجلها لي حماره المحترم وأنا في الخامسة من عمري. أردت صعود الدرج إلى البيت، والحمار واقف على قوائمه يكاد يسدّ عرض المعبر بجثته، وقد فرغ من عليقه فيما يبدو، وروثه وتبنه يملآن الدرجتين أو الثلاث التي في المستهل. تجنّبت الروث ما استطعت، وقصدت الفسحة الضيّقة التي تركها عجزاه للعابرين، وهو يكش بذيله عنه الذباب والقراد. ولا أظنني حين عبرت، تريّثت طويلاً للنظر إلى ذيله وحشراته، ولكنني ربما مددت يدي إلى الذيل لأكف

حركته عنّي ريثما أمرّ، غير أنه بادرني بقائمتيه الخلفيتين، وضربني (زوجاً) بتسديد هائل أصابني في كتفي وصدري إصابة جعلتني أصرخ عالياً.. ونفذت إلى الدرجات العليا وأنا مرتعب أبكي، وكان ذلك درساً أليماً ومبكراً في حياتي، علمني ألا أقترب من الحمير، أو أن أعمل الحذر الشديد إذا اضطررت إلى الاقتراب منها ومن أضرابها».

وفي حوار «الأوراق» بعد ما يقارب العشر سنوات (١٩٩٥)، قال جبرا، الذي أكد ولادته في العام ١٩٢٠ ببيت لحم: «طفولتي هي الينبوع الحقيقي لمعظم ما أكتب، ولمعظم ما أتصور، أنا من عائلة فقيرة جداً، ووالداي كانا أميّين. كنّا أسرة كبيرة العدد ونسكن في غرفة واحدة.. اهتمامي بالكتب والثقافة كان لسببين، أولهما: أخي الأكبر يوسف، الذي بدأ، بالرغم من ظروفنا القاسية، بشراء واستعارة الكتب والمجلات. بدأتُ بالاقتداء به خاصة أنني كنت من المبرزين في الدراسة. كان همّي الحصول على الكتب، وأنا، كما قلتُ كنتُ فقيراً، والحصول على مبلغ «عشرة فلوس» كان مسألة شاقة. لذلك كنّا نحرم أنفسنا من الطعام وأشياء كثيرة بسبب ذلك.. الطفولة بالنسبة للبعض فترة ظلام، أما بالنسبة لي فهي فترة مشرقة جداً، مليئة بالأشجار والشمس. وادٍ جميل فيه عنب وتفاح وأشجار كثيرة. طفولة ذات صلة بالأرض والنباتات. زرعتُ الكثير من الأشياء، ومارستُ رعاية الغنم.. هذه الذكريات تملؤني بالرؤى والسعادة والاستمرار، فضلاً عن قراءاتي.

ولفت جبرا في ذات الحوار: مرحلة التأثير جاءت في فترة لاحقة، فترة المراهقة، هناك مجلة «الرسالة» لأحمد حسن الزيات، اعترف أنني تأثرت بأسلوب ولغة الزيات، كما أثّر بي طه حسين، وخاصة في «الأيام» و»على هامش السيرة»، وهما كتابان أحبهما جداً. مراهقتي استمرت مع هؤلاء الكتّاب، إضافة إلى المنفلوطي (بول فيرجيني أو تحت ظلال الزيزفون). هؤلاء في الواقع أثروا فيّ بشكل مباشر. وهناك كتب مترجمة كانت ترد من مصر. كنّا نعتمد على ما يرد من مصر، كما تأثرت بعدد من الأساتذة الذين برزوا في الوطن العربي مثل إبراهيم طوقان وأبي سلمي.

وأضاف: إبراهيم طوقان كان خفيف الظل جداً، غير مهتم بالتدريس قدر اهتمامه بالشعر،

كان يقرأ لنا قصائده أو قصائد غيره وخاصة «مجنون ليلى». علاقتنا به لم تكن علاقة معرفة بقدر ما كانت علاقة إثارة ذهن، وكنا ننظر إليه كشخص يقتدى به.. بعد طوقان، جاء «أبو سلمى» صديقه، وكان شاعراً معروفاً، لم يخيّب ظننا.. الفرق بينه وبين طوقان أن «أبا سلمى» كان عندما يقرأ الشعر يقرأه بنبرة درامية، بطريقة خاصة تضيف جمالاً إلى جمال شعره وشعر الآخرين، وكان الاثنان طوقان و»أبو سلمى»، مهتمّان بالقصائد الوطنية التي لم تكن منتشرة آنذاك.

ذكريات في القدس

وحول ذكرياته في القدس، قال «جبرا» في حواره مع «الأوراق» في العام ١٩٩٥: القدس في البال دائماً. لقد انتقلت من بيت لحم إلى القدس وأنا في الثانية عشرة من العمر.. القدس كانت دائماً في حالة تأهب لشيء ما. تأهب لاستقبال الناس، تأهب لاستقبال الحياة الغنيّة المليئة بالتاريخ والمليئة بالتوثّب السياسي.. من اليوم الذي فتحتُ فيه عينيّ رأيت نشاطاً يدعو إلى استقلال فلسطين وإلى الوحدة العربية. القدس كانت تمثل هذه الموجة من النشاطات التي انطلقت في الثلاثينات من المسجد الأقصى وحرّكت الوطن العربي كلّه، تلك الحركات التي دعت إلى الوحدة العربية وإلى استقلال فلسطين.. كانت تلك المشاعر القومية تجتاحنا، وتدفع الشعراء إلى الكتابة، ومن بينهم صديقي عبد الرحيم محمود.. القدس كانت مدينة مزدحمة بالصور.. أتذكر الحياة الشاقة التي كنت أحياها، ووجوه الأصدقاء الذين كانوا يملأون حياتنا بالجدل، جدل حار يؤدّي، بل يدفعنا إلى الكتابة كوسيلة للتعبير، وهناك أيضاً ذكرياتي مع البنات اللطيفات اللواتي انفتحت عيناي عليهن، من بنات أصدقاء العائلة أو بنات الجيران.. عندها بدأ قلبي يتفتح عليهن وهنّ لا يشعرن.. أنا، في ذاكرتي أقرن القدس بكل ما هو جميل ومتوثّب ومنفتح ومتأهب للحياة».

«رائحة البيت والأشجار ترتبط بالقدس، وخاصة أني كنت أذهب للقراءة تحت الأشجار. كنت أقرأ تحت شجرة توت. كان بالقرب من بيتنا حقل بديع فيه صخور وأشجار. كنت

آخذ كتابي وأذهب إلى القراءة هناك، وكان أصدقائي يعرفون مكاني ذاك ويزورونني فيه. هناك كنتُ أحسّ بصلة الأرض والتراب، وأيضاً الصلة بالطبيعة بأشكالها البهيجة العنيفة (البرق والرعد).. كنت أسير ساعات تحت المطر وأخوض في الطين حتى أصل إلى البيت.. هذه ذكريات عامة فاعلة في نفس الإنسان، وهناك تفاصيل أتمنى الكتابة عنها. هي موجودة في كتبي، ولكنني أشعر أنني لم أكتب إلا عن جزء صغير منها».

«في مرحلة لاحقة رشحت لبعثة لدراسة الجامعة، ودرست الأدب الإنكليزي في «كيمبرج»، وبعدها عدت إلى القدس، حيث عملت في المدرسة الرشيدية هناك، وهي التي تحولت إلى (الجامعة العربية في فلسطين)، وكنت من أوائل من عمل فيها، وبدأنا نخطط لمنح شهادات وفق النظام الدولي (AP)، كان ذلك في العام ١٩٤٥، ولكن لسوء الحظ لم يتم ذلك، إذ حدثت النكبة في العام ١٩٤٨.. وفي أواخر العام ١٩٤٨ وصلنا مهاجرين إلى بغداد».

يخلف في روايته الجديدة: رواية فلسطين وإخلاص الكتابة

د. فيصل درّاج

كتب يحيى يخلف رواية أحادية المرجع متعددة المواضيع والأشكال، مرجعها فلسطيني واجه الظلم سبعين عاماً، وعلّمته الأعوام السبعون الألم والمقاومة، الصبر والكآبة، عذاب الروح وانتظار الفرج. وعن هذا الفلسطيني صدرت روايات يخلف المتوالدة، المتنوعة الأمكنة والأزمنة، المتعددة الأساليب التي استقرت فيها رؤيا مطمئنة راضية عنوانها: فلسطين باقية في القلب الفلسطيني، لا تنتزعها القوة العمياء، ولا تطمسها قوى الشر المتكاثرة.

زاملت رواية يخلف مأساة فلسطين من النكبة إلى اليوم، وصاحبت الشتات في وجوهه المتجددة، بدأت ببلدة سمخ المطلّة على بحيرة طبريا، ومرّت، طويلاً، على شقاء المخيمات، وحفظت الإقامة والرحيل في «رباعية البحيرة»، العمل الأكمل الذي سجّل هوان العيش في مخيمات اللجوء، والروح الفلسطينية التي ردّت عليه، والذهاب إلى تجارب الخيبة والنهوض إلى تخوم الاختصاص، حيث للفلسطيني الحقيقي ذاكرة جريحة، وحزن شفيف، وابتسامة متعثرة.

نقف في الرواية الأخيرة: «الريحانة والديك المغربي»، أمام الفلسطيني الذي أرهقته الحياة ولم ينكسر، وأمام الكتابة الروائية المتراكمة، التي أمدّتها التجربة بحرية رحبة، حيث الرواية كتابة وتجريب وتوثيق وتصوير وتخييل وسرد، وشكل من اللعب ناقص المسرّة. لا غرابة أن

يكون يخلف في روايته الجديدة، كما كان في «راكب الريح» ٢٠١٥، روائياً ومؤرخاً وحكّاءً شعبياً، يمتع ويثقّف ويربي، ومثقفاً «عربياً حالماً» يحتفي بحرف الضاد، ويعطف القدس على قلوب مغربية أصيلة المنظور واضحة الثقافة، وقلباً متأملاً يقرأ سطور الزمن في ملامح ما كان وما سيأتي، وأن يكون روائياً مكتهلاً حراً، سمح له عمره الكتابي أن يتصرّف بالكتابة، وأن يمارس كتابة الذكريات ولعبة «التناص» كما يشاء.

يتكشّف يحيى في عمله الجديد روائياً مجدّداً، تملّك دلالات الرواية برهافة لا (تكلّف) فيها ولا ادّعاء، ولا ذلك «التعالم» النافل الذي يلجأ إليها روائيون صغار. فله أسلوبه اللغوي الذي يجمع بين الجمال والبساطة والعفوية، والبحث الدقيق في اللغة، وله تلك الصور التي ترضي القارئ المتقشّف، والقارئ الاحترافي، وإضافة إلى أسلوب كتابي متعدد المستويات، لا تقوم الرواية إلا به، هناك التعددية كمنظور للعالم يحتضن العلاقات جميعاً. فالمكان موجود بصيغة الجمع، يحتضن القدس وفلسطين بين الجبل والبحر، وشوارع القدس وزواياها وأركانها المضيئة والمعتمة، وماثلاً أيضاً في فضاء مغربي يضم تونس والمغرب، عبوراً إلى باريس في جفافها الراهن ورونقها المنقضي. والمكان في الحالات جميعاً حيّز له شخصية، موشّى بالورود والخضرة؛ أو مكسو بالرماد وأحزان الغريب.

بيد أن المتعدد، بالمعنى الروائي العميق، يتجسّد في متواليات حكائية، تبني الرواية ومنظورها من ناحية، وتضع أمام القارئ مادة بشرية مليئة بالتنوع والحركة. وإذا كان في روايات يحيى، دائماً، ما يمكن أن يدعى بلغة زمن تساقط وتداعي: البطل الإيجابي الذي ينهي حكايته محملاً بالنصر، فإن تحولات الزمن، كما تطور يحيى، أنتجت بطولة «الإنسان العادل»، الوسيم القوي، عاشق الناس إلى حدود التلف، الذي ينصر القضايا العادلة، ويعطيها حياته، حال المغربي الذي قضى مع عبد القادر الحسيني، وشخصية الرواية الأساسية، المكتهل الأنيق، الفلسطيني الذي سلبه الظلم الانساني وطنه، وسلبه المنفى إمكانية فرح حقيقي.

يظهر التعدد الإنساني فسيحاً في فضاء أنثوي ناعم الملمس بهيج الرائحة، تخالطه أشياء من تعب الحياة والرغبات المؤجلة. احتفل يحيى بجمالية الوجود، متوسلاً أنثى، بصيغة الجمع،

لها طبائعها المتنوعة المتسامحة المدثّرة بدفء يعطي الحياة طعمها: العجوز المشبعة بحكايات تتوازعها المغرب وفلسطين، والأنثى الأنيقة التي عاشت أكثر من قصة حب، وحافظت على عشق قديم، والمرأة الماكرة التي تنوس بين الغواية والظفر بزوج بسيط، و»الجنيّة» المفترضة التي لوثّها الزمن واستعادت طهرها بين فلسطينيين مقاتلين، والفرنسية الباحثة بجهد عن رغيف نظيف، .... تبدو المرأة، في الصور جميعاً، مستقبل الإنسان وماضيه أيضاً، وفرحاً لا يستقيم الوجود من دونه، وابتسامة توقظ القلب وتلاعب الجسد.

متكئاً، بلا ضجيج، على تناص محسوب، استولد الروائي أصواتاً متعددة، سردت كفاح عبد الكريم الخطابي المغربي قائد ثورة الريف، وكفاح الشعب الفلسطيني ضد وعد بلفور والغزو الصهيوني، كما لو كان التناص أداة فنية تجسّد المسافة بين زمن «حارة المغاربة» في القدس وجهاد الفلسطينيين المتواتر، بدءاً من رحيل العثمانيين عن فلسطين، وصولاً إلى إخراج الفلسطينيين منها. صيّر التجسير الفني بين الأزمنة الروائية مؤرخاً هامس الصوت، شفيف الحزن، يسير بطيئاً مع حزن قديم وثقة متعبة، ويروي وقائع فلسطين بأسى لا يخالطه الخطأ.

خبرة كتابية متراكمة أطلقت الروائي حراً، يجمع بين الوقائع التاريخية الدقيقة والخواطر المنسرحة، يسوق الحكايات بخط مستقيم، ويدع الزمن الخطّي، ويستأنف السرد كما يريد مقترباً، بين واقعة وأخرى، من تيار اللاوعي، مازجاً بين مرونة الحياة وإيقاع الكتابة، وبين النثر الصقيل وإنشاء مرتاح المرونة. ولعل هذه المرونة هي التي أتاحت له استعمالاً حراً للحكاية الشعبية في رموزها المتداولة، حيث الديك النجيب، والحصان العاقل، ولغة الطير، وحفيف النبات وشميم الفصول، بل إن حرية الكتابة أرضت الكاتب، المتنقل من حكاية إلى لفيف من الحكايات، وأتاحت للقارئ أن يقع على المتوقع، أو أفق القارئ كما يقال، واللامتوقع الذي يسمح بلقاء ما لا يتوقعه. جسّد يخلف مرة أخرى مرونة الجنس الروائي، التي حدّث عنها طويلاً الروسي الشهير باختين، التي تجمع متناقضات الحياة في سرد متعدد الأسئلة والأساليب واللغات، مقترباً من الفن ـ اللعب، الذي لعبه جدّ، وجدّه مزيج محسوب من المتخيّل ووقائع الحياة. أنجز يخلف، بعفوية، رواية متعددة الأصوات، بمعنى الشخصيات

الثابتة والمتقاطعة، وأسلوب الكتابة الذاهب من مستوى إلى آخر، ووجوه الحياة المتنوعة التي تصل بين «حارة المغاربة» في القدس، والتسكّع الضجر في شارع باريسي أنيق.

لا غرابة أن يخترق الحوار نص «الريحانة» في مستوياته المختلفة، حيث نص أول تستهل به الكتابة، ونص وافد استقدمته صنعة الكتابة، يضيء النص الأول ويطوّره ويتطوّر معه، وهو ما عبّرت عنه «أوراق ريحانة ـ ما روته لاله عزيزة»، الذي يمدّ الرواية بفضاء حكائي واسع، ويمنح القارئ فرصة للتأمل المريح أو الراحة المتأملة. واجه يخلف نصاً أولاً بنص آخر يكمله، يضيئه ويستضاء به، حيث في النص الأول فلسطيني من الحاضر، يحمل ذكرياته الموجعة ويمشي، وفي النص الآخر المفتوح فلسطين قديمة ـ جديدة، لها معاركها وشهداؤها وذكرياتها وتوقعاتها، ولها ذلك المسار المأساوي الذي يحاور التاريخ ويزهد بإجاباته المريضة.

كان يخلف في نصوصه الروائية المتعددة، باستثناء عمله الصغير الجميل «نهر يستحم بالبحيرة»، قد أدمن على «تفاؤل» اشتقه من كفاح الفلسطينيين. انزاح في روايته الجديدة، عمّا لازمه طويلاً، استعاض عن التفاؤل بالحب؛ إذ أكثر من «ذكر» يعشق أكثر من «أنثى»، وأكثر من قلب يعشق الوطن والكرامة، وأكثر من أنثى ترى الحياة بلا حب جفافاً لا يطاق. أخذ بمنظور المضطهدين وبصيرة عشّاق الحياة، الذين يحوّلون الحب إلى فعل نبيل مقاتل ـ أنجبت الكتابة متواليات حكائية نفذت إلى كثافة الحياة وقلوب البشر المستترة، وأنجبت معها الوجوه المتفردة والحوارات المتنوعة، و«عبق القلوب» التي تواجه الحياة بمشقة وتعود وتستأنف حياتها بحكايات جديدة.

حضرت فلسطين في روايات يخلف جميعاً، حتى استحق صفة: مؤرخ فلسطين الروائي، حيث لفلسطين حضور يسبق النكبة ويتلوها، يحتضن مظاهرات القدس التي تلت وعد بلفور، وهبّة البراق وثورة ١٩٣٦، وأطياف الفلسطيني العظيم عبد القادر الحسيني، وصقيع المنفى وبؤس المخيمات، والفدائي الذي يرجع إلى أهله سليماً، بل إنه رجع في رواياته إلى زمن الكنعانيين ويافا في القرن الثامن عشر.. كان عليه أن يروّض الجملة القائلة: «الروائي يساجل التاريخ ويزهد بقوله»، ذلك أن يخلف كان يضع في التاريخ المرفوض تاريخاً آخر، يصنعه

الذين مكر بهم التاريخ، تاريخاً واقعياً- متخيلاً، يسرد أحوال الفلسطينيين الذين لم يختاروا أحوالهم، ويتطلع إلى تاريخ مشتهى، تبنيه القيم وفضائل المضطهدين الرافضين اضطهاداً وقع عليهم. فمن البداهة أن تسكن رواية يحيى مقولات مكانية متنوعة، تتضمن: القرية، البحيرة، المخيم، الخيمة، قاعدة المقاتلين، المقبرة وجنازة الشهيد، رام الله اليوم، وحقول فلسطين العامرة بالبرتقال والشذى، وإلفة الفلاحين الفلسطينيين،..

«تاريخ فلسطين الروائي يبدو من دون يحيى يخلف ناقصاً». هذا ما هو قائم وما يجب أن يُعترف به. فبين «تلك المرأة الوردة» ورواية «الريحانة» أربعون عاماً وأكثر، بالمعنى الزمني المباشر، وبينهما بالمعنى الكتابي خبرة واجتهاد ومثابرة وإخلاص للكتابة، ووفاء لفلسطين. هذا الجهد الطويل بنى صورة «الأخ يحيى»، الذي كلما أكمل عملاً روائياً «عن فلسطين» هجس بعمل جديد وبشكل جديد موائم له. الرواية الصغيرة التي بدأ بها الكتابة الروائية «نجران تحت الصفر» تحوّلت إلى مكتبة، ورواية فلسطين الأولى «تفاح المجانين» تناسلت في روايات، والطموح المقتصد الذي بدأ منه صار إيماناً طموحه رواية لا تكتمل «تليق بفلسطين»، والشاب البسيط الذي تتلامح في وجهه ابتسامة تلميذ نجيب، تغيّر لون شعره وبقيت ابتسامته كما كانت.

يحيى يخلف: الريحانة والديك المغربي، رواية،

الأهلية، عمّان ، ٢٠٢٠، ٣٥٠ صفحة

المنسيون

ابو علاء منصور

من خزائن القراءة

قال الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلة في مذكراته عن تجربته في (سجن لاسانتي) بباريس: «أُخضعنا في البداية لنظام رقابة صارم، فطوال أربعة وعشرين ساعة، كان مصراع النافذة الصغيرة ينفتح كل دقيقتين، لتتمكن أعين الحراس من رصدنا. علمنا فيما بعد أن سلطات السجن كانت تخشى أن ننتحر. يا للجهل! الثوري الحقيقي لا ينتحر لأنه يعبر عن أعمق رغائب شعب برمته. بقيتُ ست سنوات في السجن، فترة جد طويلة، لكني لا أتأسف عليها، فقد أنضجتني وقوّتني»

جاء في كتاب بوبي ساندز (كتابات من السجن) على لسان سجين يوناني: «فكرة رؤية أهلي كانت هي الحدث الوحيد المهم في كل شهر. اثنا عشر حدثاً مهماً في العام الواحد! نصف ساعة من السعادة النسبية في كل زيارة! ست ساعات في العام من أصل ٨٧٦٠ ساعة. ست ساعات يقومون بقهرك أنت وعائلتك في كل دقيقة منها»

كتب دوستوفسكي في رواية ذكريات من منزل الأموات: «في شهر نيسان تغدو الشمس أكثر دفئاً وسطوعاً، والهواء يحمل أشذاء الربيع فيحدث أثره في الأعصاب. هذه الأيام الجميلة تبعث في السجين رغبات قوية وأشواقاً عنيفة تثير في نفسه أحزان الغربة وأشجان الحنين. ألا ما أثقل الأغلال في فصل الدفء، مع غناء أول قبرة، حين يحس المرء بالطبيعة تستيقظ من

حوله بقوة يشق عليه احتمال السجن»

كتب سارتر في مسرحية (سجناء الطونا) عن العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦: «الشعب الذي قررت فرنسا قتله ليس الشعب المصري، إنه الشعب الفرنسي نفسه»

كتب علي عزت بيغوفتش في كتابه (الهروب إلى الحرية): «في السجن كثيراً ما كنت أتساءل، خصوصاً في الأيام الأولى بعد الحكم عليّ، هل أمتلك الشجاعة لأتحمل كل ما ينتظرني؟ مرت أيام كان فيها الموت أملي الوحيد، لكني احتفظتُ بهذا باعتباره سراً»

جاء في رواية مصطفى طيبة (رسائل سجين إلى حبيبته): «أصيبت أختي بمرض عصبي نتيجة القبض عليّ، كان شفاؤها يتوقف على صدمة مفرحة انتظرتها عشر سنوات وهي موعد الإفراج عني، لكنهم واصلوا اعتقالي. بعد مرض اختي سمحت إدارة السجن لشقيقي الأكبر ولزوج أختي بزيارتي، لإقناعي بإعلان البراءة مستغلين لحظة الضعف الإنساني. هجم عليّ زوج أختي وهو يكاد يختنق من البكاء: أختك في رقبتك. وقال أخي: إعمل اللي بيقولوا لك عليه. لم أُجب، طلبتُ إنهاء الزيارة.... بعد يومين ماتت أختي»

تقول فريدة النقاش في روايتها (السجن.. الوطن) عما شاهدته في سجن النساء الجنائيات: «عند إغلاق الباب تبدأ الطقوس، وتنطلق الصرخات وأصوات البكاء، ويحل الليل مؤلماً وطويلاً، فتتعاطى المحظوظات سجائر الحشيش أو أقراص البرشام الصغيرة -مخدرات-، ويتحول كل شيء إلى زمن آسن، زمن التكرار، تكرار الحلم، تكرار الكلمات واستعذاب الدموع. في السجن يتفجر الإحساس الخانق بالحصار فتبدأ المشاجرات بين السجينات، أما تاجرات الحشيش فيتعاملن مع إدارة السجن مقابل عمولة ويحققن أرباحاً، وهناك الفقيرات اللواتي يعشن حالة بؤس فيأخذن بالتسول.. تسول حتى أعقاب السجائر»

يقول أحمد طالب الإبراهيمي في كتاب (رسائل من السجن): «يمتلكني الألم لمجرد تذكري جهاز السجون الفرنسي البشع، آلة عمياء، ومجموعة متشابكة من الدواليب والأرقام»

علّق سامي السيد زميلي في الزنزانة وأنا أقرأ له ما كتبه السجناء عن تجاربهم: «الآن أشعر

أننا -أنا وأنت- ننتمي لشريحة راقية من البشر، إننا جزء من العظماء الذين قرأتَ عنهم»

يقول التركي شهاب طان في كتابه: (شهاب طان في زنزانات إسرائيل): «كنتُ أنتفض كالطير المذبوح كلما سمعتُ صرير الباب. نقلتُ إلى سجن حيفا مكبل اليدين وموثوق القدمين ومغطى العينين. لم يكن معي نقود. هيأ لي إخواني السجناء العرب احتياجاتي الضرورية»

ويقول الإيراني يوسف زركار في كتابه (مذكرات أسير): يقول لك محقق السافاك: «لا تتعب نفسك، لدينا من الوسائل ما يجعلك تعترف بكل شيء كما اعترف الجميع قبلك»

استوقفني سامي السيد مجدداً وقال: «كلام المحققين واحد وإن اختلفت لغاتهم وجنسياتهم، تكاد أن تكون مفرداتهم ذاتها»

واصلتُ القراءة....

يقول يوليوس فوتشيك في رواية (تحت أعواد المشنقة): «زنزانتنا تطل على الشمال، وفقط في أشهر الصيف، تطل الشمس وهي تغرب. في هذه اللحظة يقف بيسك -رفيق زنزانتي- متكئاً على السرير الصغير، يلاحق بعينيه الزيارة العابرة التي تقوم بها الشمس. هذه أكثر اللحظات حزناً. آه يا غوستا، أيتها الزوجة الغالية! كم من القوة تختبئ في هذه المخلوقة النحيلة! بعد ستة أسابيع من اعتقالي، استدعيتْ من زنزانتها لكي تُضعف عزيمتي. (فكّري فيه، قولي له أن يكون عاقلاً. إذا استمر في عناده ستقتلان كليكما هذا المساء). هذا ما قاله لها رئيس المديرية أثناء مواجهتها بي، فآنستني بنظرة رقيقة وأجابت: (أمنيتي الأخيرة إذا نفذتم به الإعدام، نفذوه بي أيضاً). أتعرفين يا غوستا أننا لن نرى بعضنا بعدُ أبداً؟ أنا أعرف ذلك»

في كتابه (حكايات من كوليميا) قدم الروائي الروسي فارلام شالاموف الذي قضى ٢٥ عاماً في السجن تصويراً للحياة والموت في معسكرات سيبيريا فقال: «كنت مجرد جثة تحيا وفقاً لعلم نفس الحيوان»

يقول فكتور فرانكل في كتابه (بحث الإنسان عن المعنى): «إن وجود أو عدم وجود هدف للسجين يشكل عنصراً حاسماً في سقوطه أو مقاومته! الحياة تُحضر مهمات لكل فرد، ومن

يقوم بهذه المهمات يصل إلى تعريف لمعنى الحياة. وإن ما يجعل الإنسان إنساناً هو أن يكون واعياً ومسؤولاً»

جاء في كتاب حنا مينة (ناظم حكمت\السجن المرأة الحياة): «في كتابه (بودلير) يقول سارتر أن في كل إنسان لحظة إلحاحين متواقتين، أحدهما نحو الخير والآخر نحو الشر، وفي القاموس النضالي أحدهما نحو الصمود والآخر نحو التخاذل. هذين الإلحاحين تناوبا على ناظم حكمت خلال سجنه الذي استغرق ربع عمره، ومن خلال الحرمان والعذابات ونداءات الجسد والجنس والشوق العالي، وكذلك وبصورة أعنف خلال تأرجح حبل المشنقة فوق رأسه إبان محاكماته، كان دائماً إلى جانب الصمود! كتب ناظم لزوجته: (أدركونا يا مُنوّر، أنا داخل الجدران وأنتِ خارجها). كانت منوّر نحلة ضائعة طوال ثلاثة عشر عاماً من سجنه، ومصدر إلهام صاغ منه أعظم قصائده في الغزل»

كتب الأسيران المحرران حافظ أبو عباية ومحمد البيروتي في كتابهما (نُصُب تذكاري): «الاشتياق للزوجة والحبيبة والأبناء تظهر بقوة في حياة المعتقلين، بعضهم لا يتورع عن إعلانها كأبي سليمان المشد الذي كان يقف في أمسيات سجنيّ نابلس وبئر السبع قابضاً بكلتا يديه على قضبان باب الغرفة وينشد: (يا ليل نامت عيون الناس إلاّ عيون العاشقين... يا ليل طال الفراق وطال هجرهم سنين). كان ينشد ثم يعود إلى فراشه البارد مشعلاً آخر سجائره. يغط في النوم تاركاً من حوله كلٌ يتذكر أماً أو اختاً أو ابناً أو زوجة أو خطيبة أو حبيبة تركها معلقة. الشيخ الرزين زين الدين صالح عمر من سلواد، كان يتناول أصابع زوجته أم خميس من فتحات الشبك ويبدأ بتقبيلها، ربما نظر الزوار والأسرى باستغراب لما يفعله. أبو خميس عاشق ومتمرد ثوري»

يقول الأسير الفلسطيني سائد سلامة في كتاب (عطر الإرادة): «لقد أخفقتُ في اجتياز عقبة الاعتراف، وتهاديتُ إلى منحدرات انكسار الذات وتصدّع الروح: آه ما أقساها من لحظات حين تغرس في خاصرتك مخرز الأعداء بكلتا يديك. تحركتْ (البوسطة) بعد العصر بقليل وراحتْ تنهب المسافات كالسهم. كان الفضول يستحثه فيستوي واقفاً على قدميه المكبلتين،

محاولاً بلوغ الفتحات الصغيرة في أعلى الحافلة، هذه فرصته كي يرسل بصره إلى الخارج وينهل من الطبيعة الرطبة ما جفّفته سنوات السجن الطوال. وفي الكتاب ذاته يقول: وقفتْ قبالته يفصل بينهما حاجز زجاجي، وخط هاتف ما زال مغلقاً ينتظر أن يأذن الضابط بفتحه. لوّحت بيدها تحييه، وراحت ترسم بشفتيها كلمات تستكمل بها تحيته وتكسر حاجز الفصل الذي يجثم فوق صبرهما»

يقول أحمد رائف في كتابه (البوابة السوداء): «في سجن أبي زعبل رأيتُ الإبن يجلد أباه بالسوط، الأب يصرخ والإبن يصرخ، ورأيت شقيقي الأصغر وبعض أصدقائي يُجلدون وهم عراة. ورأيتُ الدكتور أحمد الملط أستاذ جراحة القلب يُضرب ويُركل حتى فقد النطق. على باب زنزانتنا كان يقف (سامبو) كالشيطان، ومن دخل السجن الحربي في تلك الآونة يعرف من هو سامبو؟ إنه من معالم السجن وأشهر من الكلب (عنتر)، لا يصفع على الوجه إلاّ بكلتا يديه، فيصيبك دوار طيلة النهار. آلمني مشهد شاب وسيم يرتدي ملابس فاخرة، ظهرت على شفتيه ابتسامة ميتة وهو يحدق بي، وفجأة انخرط في بكاء مرير وهو يقول: نبيلة فتاة رائعة، كنا سنتزوج بالأمس، جاء المأذون لعقد قراننا فقبضوا عليّ وعليها»

كتبت المحامية اليهودية فيلتسيا لانغر في كتاب (بأم عيني) عن والدة الأسير نبيل قبلاني الذي رفضت محكمة الاحتلال إبقاءه ووالده في سجن واحد كما طالبت الوالدة العجوز: «قسمت أم نبيل وقتها بين زيارة ابنها وزوجها حتى فارقت الحياة»

كتب الأسير الفلسطيني وليد دقه في كتاب (صهر الوعي): «قال مدير السجون يعقوب جنوت لوزير الأمن الداخلي الإسرائيلي جدعون عزرا الذي تسلم الوزارة عام ٢٠٠٦ وعلى مسمع الأسرى: سأجعلهم -الأسرى- يرفعون علم إسرائيل وينشدون التكفا»

كتب الأسير السابق عدنان جابر في كتابه (ملحمة القيد والحرية): «كان الشهيد عبد القادر أبو الفحم -برتبة شاويش- من مؤسسي قوات التحرير الشعبية في قطاع غزة بعد الاحتلال عام ١٩٦٧. اعتقله جيش الاحتلال في اشتباك أصيب فيه بجراح وحكم مئة وثلاثين عاماً. ونظراً لوضعه الصحي أراد رفاقه إعفاءه من المشاركة في إضراب سجن عسقلان عام ١٩٧٠

لكنه أبى. في يوم الإضراب ذهب الأسرى الجرحى لتغيير الضمادات عن جراحهم وجميعهم مضربون. سأل يودا ممرض السجن أحدهم: (هل أكلت؟). رد: (لا). وحين أجابه الجميع بالنفي قال لهم: (لا يوجد علاج). بعد ستة أيام استشهد أبو الفحم، وتعفنت أطراف الباقين وتقيحت جراحهم. في هذا الإضراب تحققت إنجازات، لكن إدارة السجن أصرت على أبقاء (نعم سيدي) و (اليدان وراء الظهر). بعد مدة قصيرة أضرب المعتقلون مجدداً. وكانت الخطة أن يخرج الأسير لزيارة ذويه طليق اليدين، وإن رفض وضع يديه خلف ظهره يُمنع من الزيارة. كان ثمن التمرد عدم رؤية الأهل لمدة شهرين. شهريّ عذاب للأمهات والزوجات، أما الأطفال الذين حرموا من رؤية والديهم، فكانت تكبر عقولهم الصغيرة بفعل الأسئلة التي تطرحها القضبان والأسوار والبوابة الكبيرة والجنود المدججون بالسلاح، فيصبحون فدائيين قبل الأوان»

جاء في مسودة كتاب للأسيرة المحررة ناديا الخياط: «قرقعة مفاتيح وضجيج سلاسل، وسيدة خمسينية وشقيقتها أربعينية، وشابتان عشرينيتان: حماة سميحة وأخت الحماة وشقيقة زوج سميحة تتقدمهن سجانة. تتمايل سميحة الحامل في شهرها السابع، والتي تركت خلفها رضيعها يعقوب بعمر عام ونصف. شهرين وجاء سميحة المخاض! صراخٌ وطرقٌ على الأبواب. بعد يومين عادت من العيادة تجلل وجهها ابتسامة حزينة وتحتضن طفلة. كبرت الصغيرة بيننا واستأنسنا بها. أزفت لحظة الفراق بعد عامين، فتشبثت الطفلة بصدر الأم التي مدت يدين واهنتين لتسليمها للسجانة، أما نحن فليس لنا غير الذهول والغضب والدعاء»

الشروق

كتب الشاعر الكيني (كونتيه):

«بالأمس كان الليل

وغداً،

غداً سوف يشرق النهار»

وكتب ناظم حكمت:

«ورغم هذه القضبان

فإن قلبي لا يزال يخفق

مع أبعد نجم في الفضاء»

وكتب الشاعر العراقي سعدي يوسف:

«أحتفلُ الليلة بالقمر الزائر من خلف القضبان،

كان القمر الزائر يدخل من بين القضبان،

ويجلس في ركن الموقف مفترشاً بطانيتي السوداء.

تناول كفي وقال: محظوظ أنت»

كتب الشاعر الفلسطيني محمود درويش:

«لا غرفة التوقيف باقية ولا زرد السلاسل»

كتبت الفنانة نهلة آسيا:

«على جدران الزنازين الباردة تُكتب الأرقام وتُسرد الحكايا، وتوشم الذكريات التي رحلت بعيداً، ولم تعد إلاّ في ذاكرة من يقبعون فيها وأناسٌ خلف العمر ينتظرون»

وكتبت الدكتورة وداد البرغوثي:

إلى أم عاصف البرغوثي وأم ناصر أبو حميد وأم... وأم... لكل الأمهات الجليلات أهدي بعضاً من سلافة روحي:

«كم وردة أهديك يا أم الفوارس،

كم نجمة يحتاج رأسك كي يشع الدرب نوراً،

كم كوكباً يحتاج قلبك كي يواجه ما يُحاك، وما يُلفقه العدو من الدسائس.

كم شال عز تلبسين بلحظة وتطرزين بها معانيك الجميلة، تطردين بها الوساوس.

لا شيء تحتاجين،

أنتِ صنعتِ منك كوكباً وصنعتِ آلاف النجوم،

وبنيتِ في عفوية الأم الجليلة ألف بيت، ألف مدرسة وقلت:

أنا المدارس، أنا التلاميذ والأساتذة والمدير، والحديقة والمجالس،

وأنا العيون الشاخصات الساهرات على الطفولة والبطولة والشباب،

وقلبي الموجوع حارس»

ملاحظة: أشهر قليلة على كتابة هذه الأبيات واعتُقلت الدكتورة وداد.

مرافعة فنيّة في مواجهة الاتهامات الاستعمارية لحشائش فلسطين!

يوسف الشايب:

ثلاثة وثلاثون فنّاناً خرجوا بثلاثة وثلاثين عملاً فنياً متعددة الرؤى والتقنيّات والأبعاد، تقاوم بمجموعها فعل الهيمنة الاستعمارية على ثلاثة وثلاثين من حشائش ونباتات فلسطين، كانت سلطات الانتداب البريطاني، سعت، ومع سابق إصرار وترصّد، إلى إعدامها، في فعل كولونيالي ليس تجاه البيئة فحسب، بل ضد الثقافة والتاريخ في فلسطين ذلك الوقت.

وتحت عنوان «الهيمنة على الحشائش»، اجتمع الفنّانون والفنّانات من كامل الجغرافيا الفلسطينية وخارجها، عبر أعمالهم، داخل القاعة الرئيسة بمقر مؤسسة عبد المحسن القطان في رام الله، في أعمال كانت عابرة للأجيال، علاوة على تنويعاتها الفنية أشكالاً ومضامين، قدم كل منهم رؤيته في بذرة لحشيشة أو نبتة فلسطينية "اتهمتها" سلطات الانتداب البريطاني، زوراً وبهتاناً، بتهم متعددة بغية التخلص منها.

هناك أعمال اتخذت طابعاً شخصياً كعمل «أبجدية جديدة: رسالة حب إلى حبيبي» للفنانة ألكسندرا صوفيا حنظل وعمل «تعويذة» للفنانة فيرا تماري، وأخرى حملت رسائل سياسية كعمل «فليكن هناك نهاية» للفنان خالد جرار، أو «استعادة الاعتيادي: إشارات نحو الافتتان» للفنانة ميرا بامية أو «مسافة الصرخة المسموعة» للفنانة إيناس حلبي، أو ما يتعلق بالذاكرة المتوارثة كعمل «غزال» للفنانة ديما حوراني، ومنها ما يربط بين العشبة أو النبتة وما بين

الجسد كما في عمل الفنانة جمانة إيميل عبّود «بذرة الخيميائي» أو «من أنا» للفنانة علا زيتون، و«نقاط التقاء» للفنان ناصر السومي، على سبيل المثال لا الحصر.

وثيقة من حقبة الانتداب

ويقوم معرض «الهيمنة على الحشائش»، وفق قيّمه الفنان يزيد عنان، على وثيقة تعود إلى حقبة الانتداب البريطاني على فلسطين تحمل العنوان ذاته، تتحدث عن ثلاث وثلاثين نبتة «من بين الأكثر شيوعاً كنباتات ضارّة»، كما وصفتها الدوائر البريطانية المختصة، آنذاك، لنكتشف أن الهدف كان البحث عن طرق، بينها إيجاد مواد كيميائية للقضاء على هذه النباتات، لغرض زيادة محصول القمح، وكان أساسياً لاستمرارية الانتداب على فلسطين، لا سيما ما يتعلق بإطعام الجيش البريطاني خبزاً بالأساس.

ففي السادس عشر من كانون الثاني العام ١٩٤٠ وصفتْ رسالة وُجهت إلى «السيد مايسون»، كبير الموظفين الزراعيين في إدارة الزراعة والثروة السمكية إبّان الانتداب البريطاني للقدس، معرضاً غريباً للأعشاب الضارّة والبذور متنقلاً في أنحاء فلسطين، مُرفقاً بمحاضرات تتعلق بطرق مكافحة هذه الأعشاب، التي وصفها البريطانيون بـ«الضارة"، كما أرفقت الرسالة بهديّة تذكارية احتوت على صور توضيحيّة للأعشاب "الضارة" الأكثر شيوعاً في فلسطين، إضافة إلى أسمائها العلمية، وبذورها.

وتعدّ الرسالة والصور جزءاً من وثيقة من حقبة الانتداب البريطاني «مكافحة الأعشاب الضارة بما في ذلك التجارب»، وتحتوي على أكثر من ٤٥ رسالة موّجهة إلى وزارة الزراعة والثروة السمكية من جميع المناطق في فلسطين حول القضايا المتعلقة بالأعشاب، و«الأضرار» التي تلحقها، فيما يُبرز جزء كبير من المراسلات هذه نسخاً من «أبحاث علمية» أجريت بين بريطانيا وفلسطين الواقعة تحت الانتداب، لا سيما من قبل شركة «أمبيريال» للصناعات الكيميائية (المشرق العربي)، بحيث أوضحت الأبحاث هذه كلاً من الإحصاءات والتجارب الميدانيّة على «الميثوكسون» والمواد الكيميائية الأخرى، لجهة كبح «أعشاب المحاصيل

الزراعية الضارّة»، والتحكم في نموّها، ومكافحة انتشارها.

الفن في مقاومة الرواية الاستعمارية

ولفت عناني إلى أن جزءاً من هذه المراسلات كان من سكان الريف الفلسطينيين، ومن مزارعين ينتمون للمهاجرين اليهود ممن استعمروا فلسطين في تلك الفترة، حول التخلص من مثل هذه النباتات، أمّا مراسلات شركة أمبيريال للصناعات الكيميائية في لندن، بغرض إيجاد مواد كيميائية مبيدة للأعشاب، فيما كان جزء ثالث من هذه المراسلات يتحدث عن معرض متنقل لثلاث وثلاثين نبتة أيضاً، تم توثيقها في ملصق داخل هذا الملف، ويحوي صوراً لثلاث وثلاثين بذرة لهذه النباتات، قمنا نحن في مؤسسة عبد المحسن القطان بتوزيعها على ثلاثة وثلاثين فناناً للخروج منها بأعمال فنيّة، بهدف دحض الرواية الكولونيالية البريطانية.

وشدد عناني على أن هذه النباتات «كانت جزءاً أصيلاً وأساسياً من يوميات الشعب الفلسطيني، سواء فيما يتعلق بالأكل، أو الطب الشعبي، أو التجميل، أو التنظيف، أو الصباغة، أو حتى صناعة الحجب، إلا أنها وبعد عملية الإقصاء البريطانية لها باتت غريبة عن الذاكرة الفلسطينية، وتختفي شيئاً فشيئاً، فالأجيال الشابة لا تستطيع التعرف عليها".

وأكد قيّم «الهيمنة على الحشائش» أن أهمية المعرض تكمن في «إعادة العلاقة مع الغطاء النباتي الفلسطيني، باعتبار كافة النباتات جزءاً من الهوية الثقافية الفلسطينية، وليس فقط الأشجار التي باتت تعتبر كرموز فلسطينية كالزيتون والبرتقال والعكوب وغيرها.. لهذه النباتات التي عمدت سلطات الانتداب البريطاني إلى إقصائها، دور مهم وأساسي كجزء من التاريخ والفلكلور والثقافة المتوارثة عن أجدادنا، وهذا ما انعكس في شكل أعمال فنية مثيرة في الاشتباك مع هذه النباتات والخروج بأعمال فنية شكلت بمجموعها هذا المعرض.

أعمال الروّاد

وحضرتْ في المعرض أعمالٌ لرواد الحركة التشكيلية الحديثة في فلسطين، وأعني: سليمان

منصور، ونبيل عناني، وفيرا تماري، وتيسير بركات، وهم من أسّسوا خلال انتفاضة الحجارة (١٩٨٧ – ١٩٩١)، ما عُرف باسم «جماعة التجريب والإبداع»، بصفتها إطاراً يجمع بين فنانين منغمسين بصورة كلية في ممارسة فنية تطمح إلى تعبير جماعي عن تطلعات الشعب الفلسطيني في التحرر من الاحتلال، بحيث قدمت أعمالهم الجديدة، مع احتفاظ كل منهم بأسلوبه الخاص، هامشاً لمزيد من مساحات التجريب والإبداع، وذلك باستخدام خامات البيئة الفلسطينية، والاستغناء، قدر الإمكان، عن الخامات المستوردة ومقاطعة مزوديها الإسرائيليين.

وقد بلورت أعمال هؤلاء الفنانين الجماعية، فضلاً عن أعمالهم الفردية التي تم إنتاجها في سبعينات القرن الماضي، طرقاً يمكن للفن من خلالها أن يصبح وسيلة ترويج للمقاومة، وأداة للتوعية المدنية والشعبية في فلسطين المحتلة.

وسعى أعضاء هذه المجموعة في مطلع التسعينات لإيجاد مؤسسة فنية تشكيلية يكون مقرها القدس، فقاموا بترميم منزل ذي طابع عربي في المدينة، وأسسوا، في العام ١٩٩٥، «مركز الواسطي للفنون في القدس»، الذي بدأ نشاطه بإقامة العديد من المعارض المهمة، منها «معرض الفن العربي المعاصر»، و»معرض من المهجر إلى الوطن»، وبعض المعارض الشخصية لفنانين محليين وأجانب، كما طرحوا مشروع توثيق الحركة التشكيلية الفلسطينية، عبر ثلاث مراحل، وثقوا في الأولى الفن الفلسطيني في الوطن، وفي الثانية الفن الفلسطيني في الأردن، ولم يفلحوا في تنفيذ الثالثة، وهي توثيق الفن الفلسطيني في الشتات، لعوامل مادية وفنية.

أقيم أول معرض جماعي للفنانين الأربعة في القدس العام ١٩٨٩ واستوحى فكرة الدولة الفلسطينية الحرة والمستقلة. وجال معرض «رؤى جديدة» في الأردن وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة. «هموم الهوية» هو أول معرض جماعي لهؤلاء الفنانين الأربعة في بيروت.

وفي «الهيمنة على الحشائش»، لم تغب أعمال «جماعة التجريب والإبداع»، فالفنان نبيل عناني بنى عمله الفنيّ «اعتقال نبتة» من وحي بذور «الشمّر الزائف»، المعروف بـ»الشومر البرّي الفلسطيني»، حيث قام برسم لوحة على سطح وصفه بأنه غير مألوف بالنسبة له، ويعني «البرافان» المتحرك المكوّن من أربع قطع، بحيث ربط ما بين بذرة الشومر البرّي بالبذور

الأخرى التي هي في الحالة نفسها، محكوم عليها بالإبادة، مع عدم غياب الرمزية المتعلقة بالمرأة الفلسطينية التي «تمثل الوطن والهوّية»، بحيث تم صياغة تلك البذور على أشكال رؤوس بشرية في حالة احتجاج على هذا الحكم الجائر، كما جاء نسيج اللوحة بألوانها الزاهية في محاولة منه للبحث عن جماليات وقيم فنيّة للطبيعة الفلسطينية المتآلفة والمتوازنة التي لا يفهمها المحتل، بل يفهمها ويشعر بها، كما أشار، أصحاب الأرض الأصليّون.

وبالاتكاء على بذرة نبات «الفجل البرّي»، خرج الفنان تيسير بركات بعمله التركيبي «أنا اسمي»، والذي يعتمد فيه على الخشب مادته التي اشتهر باستخدامها في جلّ أعماله، منذ النصف الثاني من ثمانينات القرن الماضي، طارحاً عبره عديد التساؤلات: من منّا سيقطف الآخر، أنا أم الفجيلة، أم كلانا سنقطف المكان للسكن في المشهد السماوي؟.. ولكني سأدع الفجيلة تخطفني بكل ألوان قوس قزح، سأجعلها تقطفني ثم تسكنني في هذا العالم المستحيل.

ومن وحي «الخرفيش» أبدع الفنان سليمان منصور لوحته «بعض الشيء، كلّ الشيء»، رافقها نص للبنى طه يسير على تماس معها وكأنه ظلها.. «حين يتجهز الأسطول اليوناني في أوليس، للتحضير لحربهم ضد طروادة، يَقتل أجاممنون زعيم اليونان في أوليس، وعن طريق الخطأ، غزالاً مقدساً يركض في بستان مقدس للإلهة أرتميس: إلهة البراري والغابات والحيوانات. تغضب الإلهة أرتميس وتعاقبه برياح شديدة تمنع أسطوله من الإبحار إلى طروادة لمحاربتهم. وحتى تسامح أرتميس أجاممنون وتُوقف تأثير الرياح على أسطوله ليستكمل حروبه، تجبره أن يضحي بابنته إيفيجينيا كقربان. يرفض في البداية، ولكن ضغط الحرب والقادة والجنود يجبره على تقديم ابنته كعفو عن قتله للغزال المقدّس. وتحكي الأسطورة أن الآلهة شفعت عن إيفيجينيا وحولتها إلى غزال أو ماعز»، لتضيف: إنها قصّة العالم، الدم مقابل الهدنة، وإكليل الشوك للتكفير عن خطايا العالم.

أما الفنانة فيرا تماري فاتجهت نحو نحت تركيبي في عملها الموسوم بـ «تعويذة»، بالاعتماد على مواد عدة كالبلاستيك، والصلصال، وألوان أكريليك، وخشب، لافتة إلى أنه «على الرغم من أن (الأستوميا سيسيل فوليا) غير معترف بها في الطبيعة الفلسطينية كبذرة ذات فائدة،

ولأن شكلها يشبه حبّتين متقابلين من الفاصولياء، شكل لا يحفّز بالضرورة ابتكار أي عمل فنّي، فإنني اخترتُ تعظيم هذه البذرة المتواضعة، وإعطائها أهمية مرئية متميزة».

وأضافت تماري حول تعويذتها في «الهيمنة على الحشائش»: مساهمتي في المشروع عبارة عن مجسّم نحتي ثلاثي الأبعاد، ضخم ومنفتح لبذرة «الأستوميا سيسيل فوليا» مصنوع من النايلون الشفاف، ليأخذ شكل غشاء الرحم، حيث تبدأ دورة الحياة.. يطفو الشكل في فضاء القاعة، ليجد مستقراً له فوق قرص دائري على الأرض يحوي مئات من البذور الصغيرة في ترتيبات كأنها تعويذة سحريّة تغذّي هذه البذور بالمحبة.

وتنمو هذه البذور في فصل الصيف، بين سيقان السنابل، لتولد أزهاراً تبدو وكأنها من الدانتيل الرقيق، تتماهى وترقص لوقع النسيم العذب.

تنوّع

وشهد المعرض تنوعاً في المدارس الفنيّة والأجيال والرؤى انعكس في شكل الأعمال وتكويناتها وتأويلاتها، فالفنانة ديما حوراني في عملها «الغزال» المستوحى من بذرة «القنطريون النبلي»، قدمت عبوة (تنكة) السمنة الشهيرة «الغزال» في شكل خزان ماء عملاق يزن ستين كيلوغراماً، فالبذرة المقدّمة مخفيّة ومتخيّلة في علبة من السمن، لافتة «ليس لديّ اقتراح لتقديمها بخلاف تلك المحاولة لحفظها في ذاكرتنا، كما كنّا نزرع في منازلنا».

فيما انحاز الفنان مجد عبد الحميد إلى المكوّنات التراثية، فحوّل بذرة «الخرفار القصير» إلى مكّون أساس في المطرزات، بل إن عمله الفني حمل اسم «تطريز»، مستخدماً في تشكيله لبلاطة الفسيفساء مجموعة من المواد، فهذا المشروع أو البحث، وكجزء من البذور التي جرى نبذها واعتبارها «مضرّة»، يتناول التحوّل المحتمل للبذرة إلى نبتة، فهي بذلك قد تكتسب أهمية تتجاوز محيطها المحلي. فالنبتة يمكنها بشكل طبيعي أن تتغلغل في الإسمنت، وهي إشارة شاعرية تتردّد في الثقافة الشعبية من أغانٍ وأشعار.. «هذا العمل عبارة عن رحلة من رمز جديد مُتخيّل، محاولة لتطوير رسمة تطريز فريدة، ومن ثم تطويرها إلى

حرفة أخرى، وهي صنع البلاط، أي صنع بلاطة فسيفسائية تخلّد بذرة قادرة على النمو من خلال الشقوق.

وقدّم الفنان خالد جرّار، كما عديد أعماله السابقة، عملاً اسمنتياً تركيبياً، حمل اسم «فليكن هناك نهاية»، بحيث جعل من الأحواض الإسمنتية المتراصة، والتي ترمز للمحاصرة والعنصرية، بيتاً للهندباء، التي كانت هي محور عمله.

وفي صورة مع إطار خشبي تحت عنوان "الذاكرة الصفراء"، يتعامل الفنان عبد الرحمن الجولاني مع قضية الذاكرة الشخصية، حيث ربط ما بين نبتة "السيكرجوريرا" وما بين ذاكرته الشخصية، خاصة أن النبتة كانت تتواجد في كافة الأماكن المرتبطة بطفولته ويومياته فيها، فيما لم تعد اليوم تتواجد في ذات الأماكن التي كانت بسبب تطوّر البنيان والشوارع، فاختفت من الشارع الذي كان يلعب فيه وهو صغير.

ويركز هذا العمل على رحلة صغيرة في ذكريات الفنان، فـ«الذاكرة الصفراء» بمثابة استرجاع لطفولته عندما كان يمسك النبتة، كدلالة على تمسكه بها كما تمسكه بالهوية، بحيث يظهر الفنان في صورة ممسكاً بالنبتة، رافضاً التخلي عنها باعتبار ذلك تخلياً عن ذاكرته أو جزء منها، حين كان يقتلعها من الأرض، وهو، وقتها، لم يكن يعلم أي شيء عنها، لا اسمها ولا تفاصيلها، إلا أن هذه الصور تمثّل تمسكه الشديد بهذه النبتة. كذلك، حاول الفنان إظهار الشارع البسيط الذي كان يعجّ بالنباتات والتراب والأطفال، الشارع الذي لم يعد موجوداً الآن، حيث تحول إلى طريق شبه رئيس للسيّارات، ولم يعد بمقدور الأطفال اللعب فيه.. وهنا، يظهر الفنان بملابس سوداء أنيقة، وهو يقوم بالأنشطة التي كان يمارسها وهو صغير، لجهة خلق نوع من الصدمة الناتجة عن الاختلاف الكبير ما بين الشخصية الأنيقة الجادّة وما بين ذاكرته الممتلئة بالأنشطة التي كان يمارسها في طفولته.

واتجهت إيناس حلبي إلى الصورة المتحركة، فكان عملها «مسافة الصرخة المسموعة»، عمل تركيبي ما بين مقتطف من فيلم وأوعية من سيراميك، بحيث تناولت المادة المصوّرة، الأسطورة الصهيونية التي تزعم أنها «جعلت الصحراء تزهر»، والسياسة الاستراتيجية

لمشاريع زراعة الغابات، وتحديداً غرس أشجار الصنوبر والكينا في أنحاء فلسطين، فقد جرى اختيار الصنوبر لأنه ينمو بسرعة فيُخفي القرى المدمّرة، كما يخفي النباتات الأصغر حجماً نتيجة لكونه حمضياً، وفي النهاية يجعل الأرض غير صالحة للزراعة.

وقد بدأت زراعة غابات الصنوبر في فلسطين، من قبل الصندوق القومي اليهودي، منذ العام ١٩٠١، وأكبرها غابة «يتير» في صحراء النقب فوق أرض بدوّية مصادرة، حيث كانت تتواجد النبتة وحيدة الثمرة «حدوة الحصان»، التي هي محور عمل حلبي، هي الأكثر شيوعاً في تلك المناطق.

جرى تصوير الفيلم، أو مقطع الفيلم، في منزل العائلة بقرية الصيرة داخل الخط الأخضر، وفي قرية العراقيب المهدمة، والقريتان البدويّتان تقعان في «النقب غير المعترف بها»، وهو الفيلم الساعي إلى فضح أيديولوجية وممارسات الغزو والسيطرة على المشهد، من خلال التركيز على الحياة اليومية في هذه المناطق، وعلى الطقوس الاجتماعية المرتبطة بالصمود.

وفي إطار التنوع، ثمة «مجسّم» الفنانة منال محاميد، والمستوحى من بذرة ونبتة «الجزر البرّي»، هي التي سبق واشتهرت بمجسّم الغزال الفلسطيني ذي الثلاثة أقدام.

وترتبط فكرة العمل بالـ«سيزيفوسية» والعبثية المرتبطة بمحاولات لانهائية لانتزاع البذرة عن الشعر والملابس. هذه المحاولات العبثية تحوّل كينونة البذرة متناهية الصغر إلى شيء كبير يشغل الشخص ويتحول إلى شيء مركزي ومصدر للعذاب والمعاناة، ومن هنا استوحت محاميد فكرة تكبير البذرة بنسبة تراوح ألف مرّة حجمها الطبيعي، بحيث إن هذا الشيء الصغير يتحول إلى شيء خارق.

عملية تكبير البذرة بهذا الحجم جعلها تظهر ككائن جديد ذي أبعاد خرافية، أو كمخلوق فضائي، أو كائن بحري، أو أيقونة عضوية فريدة تشبه الفيروسات الميكروسكوبية الصغيرة وغير المرئية التي تشغل العالم بأجمعه عند انتشار وباء ما، الأمر الذي ينقلنا إلى التفكير بالفلسفة النفسية التحليلية الفرويدية في محاولاتها نحو تفسير الحلم، أو للجدلية الماديّة الماركسية التي تعتبر الفكر نتاجاً للمادة، فيما أن المادة ليست نتاج الفكر.

وترى محاميد أن «قدرة الأشياء الصغيرة كالبذرة على البروز والتكيف والبقاء وفرض الهيمنة والسيطرة، تجعلها ذات قدرة عملاقة ومثيرة. ولذلك، فإن قرار تحويل البذرة صغيرة الحجم إلى هذا البعد الوحشي، هو محاولة بصرية لاستقراء الفلسفة الكامنة في ميزاتها غير المادية، وتجسيدها في بعد فيزيائي جديد، وفي قدرة المادّة على التحوّل إلى موضوع فلسفي يثير التساؤل، مغذياً الفطرة البشريّة في المعرفة والشغف بالتحليل وإيجاد أبعاد إضافية، ربما لم يكن لها أي معنى عند خلق الفكرة، بل إن الكينونة الفيزيائية ووجودها الماديّ يفرضان على المشاهد تحليلاً فكرياً يرتبط بأبعاد نفسية وفلسفية وثقافية متفرّدة».

التحوّل في فهم الغطاء النباتي

ويبحث معرض «الهيمنة على الحشائش»، المتواصل حتى نهاية العام ٢٠٢٠، في التحوّل الحاصل في فهم الغطاء النباتي الفلسطيني، ومواطنه البيئية عبر التاريخ، وعلاقة بحيوات الفلسطينيين، وبخاصة مع ظهور الصناعات الزراعية المبكرة خلال الانتداب البريطاني، وبدء عمليات الزراعة المكثفة للمحاصيل.

ومرّ التاريخ الطويل للممارسات الزراعية المستدامة في فلسطين بتحوّل كبير نتج عنه اهتمام بتلك النباتات التي لا تُعطي، بالضرورة، منفعة اقتصادية أو زراعية متخصصة، بل كان هناك اهتمام بالنباتات التي تستخدم لأغراض أخرى مثل الاستخدامات الطبية والفلكلورية، وحتى استعمال النباتات لأغراض الخرافات والشعوذة، والاستعمالات الأخرى في الحقل كالتكاثر، وطرد الحشرات، والتغذية، وغيرها.. وتعتبر هذه الاستعمالات غير متلائمة مع القيم الصناعية الجديدة المبنيّة على المنفعة الاقتصادية.

وقام علم تصنيف النباتات الغربي فجأة بتصنيف الكثير من الأجناس المحلية هذه كأعشاب ضارة، بحيث تم إدخال المبيدات والأساليب الجديدة الأخرى لمكافحتها، إضافة إلى الحملات والنشرات «التوعوية»، بحيث كانت لهذا المنعطف التاريخي تبعات ما زالت أصداؤها تتفاعل حتى يومنا هذا، كما اقتصرت معرفة النباتات، كجزء من هويّة شعب فلسطين

وجغرافيتها، على الجوانب المتعلقة بالمنفعة من هذه النباتات.

أُعطي ثلاثة وثلاثون فناناً وفنانة ثلاثاً وثلاثين بذرة، بناء على الرسم التوضيحي لأكثر الحشائش «الضارة» شيوعاً في فلسطين، الذي كان جزءاً من المعرض المتنقل الذي أقيم في العام ١٩٤٠.. طُلب في «الهيمنة على الحشائش» من كل فنانة وفنان أن يتفحّص العشبة بين يديه عبر تشريحها تشريحاً دقيقاً، ومن ثم يحوّل البذرة إلى منحوتة، كما طُلب أيضاً من كل فنانة وفنان أن يدرس «عشبته الضارّة»، وتوفير المواد المصاحبة للمنحوتة التي من شأنها أن تقوّض القيمة التي أسبغتها الصناعة البريطانية على البذرة إبّان الاستعمار، وتحوّلها إلى قيمة أخرى أكثر شخصية، أو شاعرية.

جدير بالذكر أن الفنانين المشاركين في المعرض،هم وفق الترتيب الأبجدي: ألكسندرا صوفيا حنظل، وإيناس حلبي، وبشار الحروب، وتيسير بركات، وجمانة إيميل عبّود، وجمانة منّاع، وجواد المالحي، وحنا قبطي، وخالد جرار، وديما حوراني، ورأفت أسعد، ورندا مدّاح، ورونين زين، وسليمان منصور، وشذى صفدي، وعاصم ناصر، وعامر شوملي، وعايد عرفة، وعبد الرحمن الجولاني، وعريب طوقان، وعلاء أبو أسعد، وعلا زيتون، وعيسى غريب، وفيرا تماري، ومجد عبد الحميد، ومحمد أبو سل، ومنال محاميد، ومهدي براغيثي، وميرنا بامية، وناصر السومي، ونبيل عناني، وهيثم حدّاد.

نعم: الحنين يبقى كما كان من قبل

غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمه عن الاسبانية: أحمد يعقوب

(١)

لقد كان انتصارًا عالميًا للشعر. في القرن الذي يكون فيه المنتصرون هم دائماً من يضرب بقوة أكثر، أولئك الذين يحصلون على أكبر عدد من الأصوات، أولئك الذين يسجلون أكثر الأهداف، أغنى الرجال وأكثر النساء جمالاً.

كان حماسيا الهياج العالمي الذي سببته وفاة رجل لم يفعل شيئاً سوى الغناء للحب.

إنه التأليه لأولئك الذين لا يربحون أبداً، وخلال ٤٨ ساعة، لم يكن هناك حديث عن أي شيء آخر .

ثلاثة أجيال - جيلنا و(جيل) أطفالنا و(جيل) أحفادنا الكبار-، كان لدينا للوهلة الأولى الانطباع اننا نعيش كارثة عامة، ولأسباب مشتركة .

سأل مراسلو التلفزيون سيدة عمرها ثمانين عامًا في الشارع، ماهي أغنية جون لينون التي تحبها بشكل أفضل؟، فأجابت، كأنها في الخامسة عشرة من عمرها: «السعادة هي مسدس ساخن".

شاب كان يتابع البرنامج، قال: «أنا أحبهم جميعًا». ابني الأصغر سأل فتاة من نفس عمره لماذا قتلوا جون لينون ؟، وأجابت، كما لو كانت في الثمانين من العمر: «لأن العالم يهلك".

في منزلنا في «سارانجل»، حيث بالكاد. لدينا مكان للجلوس، كان هناك اثنان من الالبومات: مجموعة مختارة من مقدمات ديبوسي وألبوم البيتلز الأول.

في جميع أنحاء المدينة، في كل الساعات، كانت تسمع هتافات الحشود: « المساعدة، احتاج شخصا ما Help, i nedd somebody».

أحدهم عاد ليثير في ذلك الوقت الموضوع القديم أن أفضل الموسيقيين هم من الترتيب الثاني من الكتالوج: باخ، بيتهوفن، برامز وبارتوك (Bach. Beethowen, Brahms y Bartok.).

أحدهم عاد ليقول نفس الغباءالدائم: أن يتم ادراج بوسارت. ألفارو موتيس، الذي مثل أي عالم موسيقي عظيم لديه ضعف لا يمكن إصلاحه بمداخل السيمفونية، وأصر على ادراج بروكنر.

حاول آخر أن يعيد مرة أخرى المعركة لصالح بيرلويز Berliotz ٥٩، الذي حاربت ضده لأنني لم أتمكن من التغلب على الخرافات التي هي oiseau de malheur، أي، طائر شؤم. بدلا من ذلك، أصررت، منذ ذلك الحين، على إدراج فرقة البيتلز.

إميليو غارسيا رييرا،Emilío García Riera الذي يتفق معي، وهو ناقد ومؤرخ سينمائي مع تمييز خارق قليلا، خاصة بعد شرب الكاس الثاني، قال لي في تلك الأيام: «أسمع البيتلز مع بعض الخوف، لأنني أشعر أنني سأتذكرهم طوال ما تبقي لي من حياتي»

إنها الحالة الوحيدة التي أعرفها عن الرجل، الذي يتمتع ببعد نظر كاف، ليعرف أنه كان يعيش ولادة حنينه.

أحدهم دخل استوديو كارلوس فوينتس، ووجده يكتب على الآلة الكاتبة بإصبع واحدة وبيد واحدة كما كان يفعل دائما، وسط سحابة كثيفة من الدخان ومعزول عن ويلات الكون ومع موسيقى البيتلز بأعلى صوت.

وكما يحدث دائمًا، كنا نظن حينها أننا كنا بعيدين عن أن نكون سعداء، والآن نفكر بطريقة معاكسة .

إنه فخ الحنين، الذي يزيل لحظات مريرة من مكانها ويرسمها بلون آخر، ويعيد موضعتها

في مكان آخر لا تؤلم فيه كما هو الحال في الصور القديمة، التي تبدو مضاءة بإشعاع السعادة الوهمي، وحيث أننا فقط نرى باستغراب كيف كنا صغارًا وعندما كنا صغارًا، وليس فقط نحن الذين كنا هناك، ولكن أيضًا المنزل والأشجار في الخلفية، وحتى الكراسي التي كنا نجلس عليها.

قال تشي غيفارا، وهو يتكلم مع رجاله حول النار في الليالي الخاوية من الحرب، قال مرة إن الحنين يبدأ بالطعام. هذا صحيح، ولكن فقط عند الإحساس بالجوع. بدلا من ذلك، فإنه يبدأ دائما مع الموسيقى .

في الواقع، يبتعد عنا ماضينا الشخصي منذ لحظة ولادتنا، ولكننا نشعر به فقط عندما تنتهي اسطوانة الاغاني.

هذه الظهيرة، متفكرا في كل هذا أمام نافذة قاتمة حيث يسقط الثلج، مع أكثر من خمسين عاما من العمر، وما زلت لا أعرف جيدا من أنا، أو أي هراء أقوم به هنا، لكن لدي انطباع بأن العالم كان على حاله منذ ولادتي حتى بدأت البيتلز بالغناء.

كل شيء تغير بعد ذلك. سمح الرجال لشعرهم ولحاهم ان يطولان، وتعلمت النساء أن يخلعن ملابسهن بكل النضج، وغيروا طريقة ملابسهم وحبهم، وبدأ تحرر الجنس والعقاقير الأخرى ليحلموا. كانت تلك السنوات الصاخبة لحرب فيتنام وتمرد الجامعات. ولكن، قبل كل شيء، كان التعلم القاسي لعلاقة مختلفة بين الآباء والأطفال، بداية حوار جديد بينهما بدت أنها كانت مستحيلة لقرون. «من أين تأتي المنعزلة؟» سؤال دون إجابة.

هناك أيضا الأب ماكنسي يكتب خطبة لن يسمعها أحد، يغسل يديه على القبور، وثمة فتاة تخلع وجهها قبل دخول المنزل وتتركه في جرة بجانب الباب لتضعه مرة أخرى. عندما تعود لتخرج .

لقد أوجدت هذه المخلوقات القول أن جون لينون كان سريالياً، وهو شيء يسهل قوله عن كل ما يبدو غريباً، كما يقال عن كافكا في كثير من الأحيان عندما لا يعرف الآخرون قراءته.

بالنسبة لآخرين، إنها رؤية عالم أفضل. أحدهم جعلنا نفهم أن كبار السن ليسوا أولئك الذين لديهم سنوات عديدة، ولكن أولئك الذين لم يصعدوا في الوقت المناسب في قطار أطفالهم.

(٢)

حياة السائح الصعبة

بمجرد أن صعدنا الى متن السفينة، أمر صوت رخو لامرأة مهيأة جيدا، وبأربع لغات، عبر مكبرات الصوت، الزوار بالنزول إلى الشاطئ لأن السفينة كانت تستعد للمغادرة، ولم تكن قد انتهت من قول ذلك حتى غادرت السفينة دون إعلان آخر.

بعد سنوات عديدة بلا ذهاب ولا اياب في البحر، شعرت بأني اعدت حياة عاطفية منسية تقريبًا أخذت تنمسح عندما شاهدتُ منازل مدينة بيرايوس٦٠، المتكدسة وباهتة الألوان في ضباب يونيو، وبقيتُ هناك برغبة مسبقة في عدم التفكير في أي شيء لعدة أيام. كانت تلك هي الدقائق الخمس الوحيدة من الراحة العميقة طوال الرحلة.

بالكاد كنا قد غادرنا الميناء عندما أمر صوت المرأة نفسها، لكن بصوت أكثر حزما من الصوت السابق، جميع الركاب بالتجمع على سطح السفينة لمحاكاة مناورة إنقاذ.

لذلك تدفقنا بسترات نجاة معلقة في أعناقنا، ونحدق في بعضنا البعض بوجوه غبية، بينما كانت صفارات إنذار السفينة تطلق اشارات غرق السفينة وأعطى الضابط الأول تعليمات دقيقة ومثيرة للقلق، لكن أي من الخمسمائة سائح في تلك الكارثة الكاذبة لم يستمع باهتمام.

بعد خمس دقائق انتهى كل شيء. لكن لبضع دقائق فقط، لأنه بمجرد خلعنا سترات النجاة فلقد دعونا إلى القاعة الرئيسية لعقد مؤتمر عن العدد الذي لا يحصى لجزر بحر إيجه الذي كنا سنتعرف عليها في الأيام القليلة القادمة.

هكذا بدأ الأسبوع المحموم ، والذي إذا افادنا بشيء، كان أن نأخذ بالحسبان بشكل حي أنه لا توجد هواية أكثر جحودًا وإرهاقًا من هواية السياحة بكامل الجسم. وهذا أكثر خطورة في اليونان من أي مكان آخر.

في الواقع ، لا أعرف لماذا كانت لدي دائمًا فكرة أن الإغريق لديهم شيء من طابع الايطاليين الفوضوي والكاشف لأسراره. والأمر ليس كذلك: إنهم مجانين في الجانب الآخر.

من قبطان السفينة إلى الصبي الذي يحمل الحقائب، لديهم مشاعر سلطة تشبه الاستبداد كثيرا ، وهم صارمون ودقيقون، ولكن بطريقة مختلفة عن الإنجليزية، لحسن الحظ، إلى الحد أن يتكون لديك الانطباع بأنك سجين عند منظومة ساعات.

هذه الفضائل مثالية للسائح صاحب العقل المربع، (الذي لا يستطيع التفكير فيما وراء واقع الموقف)، والذي يجب ان تدله كل شيء. لكن نحن من يدعون فعل الأشياء بشكل مختلف، نتعثر بمطبات النظام بلا شفاء.

هذا ما حدث لنا عندما قرر زوجان صديقان أن نخرج عن البرنامج وبقينا لمدة ثلاثة أيام في جزيرة ميكونوس. نزلنا بثماني حقائب الى مكان حيث المسافرون العقلاء لا يحملون معهم سوى ثوب للرقص وفرشاة أسنان.

أصر حراس الجمارك المحليون، الذين ربما لم يروا مثل هذه الأمتعة من قبل، على إجراء تفتيش شامل لنا. عبثا كان توضيحنا لهم أن التفتيش قد تم بالفعل في مدينة بيرايوس، عندما دخلنا البلاد. لكنهم فعلوها مرة أخرى.

بعد أسبوع، في ميناء هيراكليون في جزيرة كريت، كانوا على وشك ان يكرروه للمرة الثالثة. قلت للحارس:» لقد فعلتموها بنا مرتين « وهو يوناني له عينان حالمتان ولحية كثة.

سألني «وكيف أعرف أن ذلك صحيحا؟» قلت: «لأنني أعطيك كلمة». صفقني الرجل على ظهري وتركنا نمر بابتسامة كبيرة، كان ذلك انتصارنا الوحيد في عشرة أيام.

كان من الصعب علينا تناول الطعام لأننا لم نندمج في أي مجموعة، لأننا كنا نصل لتناول الإفطار قبل نصف ساعة من اغلاق المطعم، أو لأننا أردنا السمك محضرا في الفرن وليس مشويًا على الفحم كما كان مقررا.

كان لدينا انطباع بأن هناك طريقة واحدة فقط للقيام بالأشياء، مهما كانت، وأن القيام بها بطريقة مختلفة كان مثل كسر نظام الكون. لا أتذكر نظرة دهشة أكبر من نظرة ضابط حراسة السفينة الذي وجدني اتأمل البحر عند الثانية عشرة ليلاً بعدما انتهت جميع الأنشطة

و جميع المسافرين في حجراتهم، كما كان مقررا، لأنه في اليوم التالي، كان عليهم الاستيقاظ في السادسة صباحًا للقيام بأول رحلة استكشاف لجزيرة رودس. لكن عندما بذلنا جهدًا لحث خطى الجميع، وجدنا أنفسنا في عالم غريب، عالم قاس ومثير للدوار، لن يكون من السهل التعافي منه طيلة أسبوعين آخرين من الإجازة من يدري في اي شاطئ منسي.

كل يوم في التاسعة صباحًا تنطلق الرحلات من ميكونوس إلى جزيرة ديلوس وتعود في الواحدة بعد الظهر. بعبارة أخرى، في غضون ثلاث ساعات، عليك وبمخيلتك أن تعيد بناء ربع تاريخ البشرية تقريبًا. والنتيجة النهائية هي أن الشيء الوحيد الذي يتم تذكره بالتأكيد ليس كيف وأين ولدت أبولو، ولا القرار بأن الولادات والوفيات يمكن أن تحدث فقط في الجزيرة المقابلة لأنه لا يمكن أن يولد أحد أو يموت في جزيرة دولوس.

لا، الشيء الوحيد الذي يمكن تذكره هو صف المراحيض العامة والجماعية، حيث يجلس المواطنون المرموقون وهم يخرجون ما في أجسادهم بينما يشرحون الأمور ذات الأهمية القصوى. بالصدفة فقط يدرك المرء، بعد عدة أشهر، أن أولئك الذين يزورون المراحيض لم يكونوا في ديلوس، ولكن في أفسس، حيث كنا مع نفس الاستعجال بعد خمسة أيام.

الزمان والمكان ينتهيان بتوحدهما في الذاكرة الخاضعة لاختبار مفرط. أيهما وجد قبل، بيندار٦١ أم كليوباترا؟.

أسوأ شيء بالنسبة لي هو أنه من خلال الركض خلف العديد من الأحجار القديمة، ينتهي أحدنا الى عدم معرفة الحياة الحقيقية للأماكن التي يزورها. اليونان حية كما كانت في زمن بيريكليس٦٢ ، لكن وكالات السفر تواصل إظهار تلك الأوقات فقط وليس الأوقات الرائعة اليوم. توجد في جميع الجزر شوارع كاملة من المستودعات حيث تُباع جلود الحيوانات الجميلة فقط في منتصف الصيف والمجوهرات الرائعة، والعديد منها نسخ ممتازة عن القطع القديمة جدًا الموجودة في المتاحف. كان هذا شيئًا فاجأني أيضًا في نيودلهي، عاصمة الهند، حيث الطوابير اللانهائية الوحيدة التي تراها في الشوارع هي تلك الخاصة بالقابلات أمام صائغي المجوهرات. نساء معصومات عن الألم، محاصرات من قبل جحافل من المتسولين المجذومين.

أذكر انني دخلت الى فندق فخم جائعا بعد رحلة طويلة من تايلاند. واستقرت روحي في خزانة ملابسها عندما احسست رائحة رائعة للحم مشوي تطفو في الهواء. اكتشفت لاحقًا فقط أن هذا الشذا الفاتح للشهية كان لموتى محروقين في الهواء الطلق قريبا من النهر.

في الجزر اليونانية، على العكس من ذلك، يتساءل المرء أين أخفوا بؤسهم: لا يوجد شحاذ أو كلب في الشارع. لا تزال رودس مدينة رائعة. من الصعب أن نفهم أن القديس يوحنا الإنجيلي كان بإمكانه تصور أهوال سفر الرؤيا في جزيرة بطمس، التي لا يمكن أن تشبه تلالها الدافئة وبحارها الداخلية أي شيء آخر غير الجنة المفقودة.

في حانة في ميكونوس، حيث ربما لا يصل منتجو الأفلام، يوجد أجمل إنسان في العالم يقدم للسائحين البيرة الباردة المثلجة والأخطبوط المقلي، لكن ليس من السهل اكتشاف هذه الأشياء، لأن البرامج السياحية لا تتضمن حياة اليوم. تلك التي ستعرفها ذريتنا الستقبلية في غضون ٣٠٠٠ عام، عندما تأخذهم سفن أميركا اللاتينية الضخمة لمشاهدة أطلال نيويورك ويصف المرشدون مكانًا في مانهاتن حيث لن يكون هناك شيء، لكنهم سيخبرونهم أنه كان في زمان آخر مبنى إمباير ستيت أو محطة الوقود في الشارع الخامس والأربعين.

«الجرائد في القطر المصري» عام ١٨٩٨
أكثر من ٥٠ مطبوعة تشهد على النهضة والأخطاء اللغوية

سعد القرش

الحماسة التي كتب بها الشيخ إبراهيم اليازجي مقالات عنوانها «الجرائد في القطر المصري»، في مجلة «الضياء» منذ عام ١٨٩٨، تتجاوز مآخذه على تراجع اللغة العربية في الاستخدام الصحافي، وتلقي أضواء على قضايا ذات دلالة، منها تلازم انتعاش الصحافة بالنهضة العامة لأي بلد. وكان في القاهرة أكثر من خمسين جريدة ومجلة يومية وأسبوعية وشهرية تستهدف قراء في شعب يبلغ مواطنوه نحو تسعة ملايين، والناجون من الأمية هم خريجو الأزهر ومدارس أنشئت لخدمة مشروع دولة محمد علي، وليس لتنمية الوعي الثقافي للشعب. ثم تأسست عام ١٨٧٣ «مدرسة السنية» أول مؤسسة لتعليم البنات في مصر والشرق، وفيها تخرجت ملك حفني ناصف ونبوية موسى التي أصبحت أول ناظرة مصرية لمدرسة ابتدائية. وفي عام ١٩٠٠ كانت كل امرأة مصرية متعلمة يقابلها عشرة متعلمين من الذكور.

كانت مصر جاذبة للموهوبين والمطاردين من «رعايا» الدولة العثمانية في بلاد الشام، وأسهموا بأنصبة في النهضة الفكرية والفنية والصحافية، ومن هؤلاء الشيخ إبراهيم اليازجي، ابن الأديب والناقد والمترجم المرموق ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧٣). ولد إبراهيم اليازجي عام ١٨٤٧ في بيروت، وهاجر عام ١٨٩٤ إلى مصر، واستقر فيها حتى وفاته عام ١٩٠٦. وأسس

في القاهرة مجلة «الضياء» نصف الشهرية، وكانت «علمية أدبية صحية صناعة»، تعنى بالآداب والفكر العلمي فتنشر ما يخص العلوم الطبيعية، وصدر عددها الأول في سبتمبر ١٨٩٨، ثم توقفت عام ١٩٠٦. وما كتبه فيها تحت عنوان «الجرائد في القطر المصري» يشكل كتابا يستحق النشر الآن؛ للوقوف على أخطاء لغوية لا تسلم منها حاليا صحف عربية في العالم العربي وخارجه، بل أضافت إليها أخطاء جديدة لم يدركها اليازجي الذي شهد له رشيد رضا «بالعناية والبحث في اللغة العربية وانتقاد ما يكتب بها»، انطلاقا من إيمان عروبي التزم به اليازجي في البحث والشعر أيضا.

في نحو ٧٥ صفحة من مجلة «الضياء» استعرض الشيخ إبراهيم اليازجي أخطاء لغوية وأسلوبية عالجها بمحبته للغة العربية، وبدأها بمقال في تسع صفحات بعنوان «لغة الجرائد في القطر المصري»، ورأى فيه أن رواج الصحافة، من جريدة واحدة قبل عشرين عاما هي «الجريدة الرسمية» إلى أكثر من خمسين مطبوعة، هو انتقال سريع «قلّ أن تجد له نظيرا في تواريخ الأمم مما يدل على وجود الاستعداد الفطري في الأمة تنزع به إلى قديمها وأن عنصر تلك النفوس النبيلة والأذهان النيرة ما زال متسلسلا في دماء الخلف كامنا في طبائعهم متأهبا للظهور إذا صادف ما ينبهه كالنار تظهر عند الاقتداح». ولكنه لاحظ أن معظم هذه الصحف تهتم بالسياسة الخارجية، وتتابع ما يجري في لندن وباريس وبرلين وبطرسبرج، والمواقع الحربية بين الصين واليابان، وشروط الصلح بين إسبانيا والولايات المتحدة، «مما لا يهم المصري»، كما يجد القراء «من الخلل في أحوال الأمة والفساد في أخلاقها وآدابها مسكوتا عنه لا تكاد تذكره الجرائد».

من سمات «الشر والفساد» ميل بعض الصحف إلى «دسّ روح الشقاق في صدور الأمة وإيقاد نيران التعصب الديني الذي هو إحدى آفات الشرق بل أعظم أسباب ما لحق به من الدمار والاضمحلال ومنبع ما انبثق عليه من الشؤم والوبال». ويحدد الكاتب وظيفة الصحف بأنها أنشئت «لتكون خادمة لمصلحة الجمهور لا لمآرب أصحابها... الجرائد عند كل قوم تُتخذ عنوانا على منزلتهم من العلوم والآداب والأخلاق والعادات». ثم ينبه إلى وقوع الصحف في

«اللحن» والأخطاء التي تنتشر عدواها سريعا، «بحيث لا تكاد تجد كلمة محدثة أو تركيبا جديدا في واحدة من تلك الجرائد إلا تجده بعد أيام قد انتشر في سائرها... وانتشر كثير من ألفاظها على ألسنة العامة... وهذا ولا ريب من جملة الآفات التي ينبغي تلافيها لعموم البلوى بها وسنذكر من ذلك الشيء بعد الشيء فيما يأتي من أجزاء هذه المجلة إن شاء الله». ويبدي سعادته بما نشر عن عزم الحكومة المصرية «سنّ قانون للمطبوعات يتناول الجرائد على وجه الخصوص ويقيّد أقلام العابثين بشرفها وآداب الأمة ولا ريب أن التقييد في مثل هذا المقام خير من الحرية».

وبداية من العدد الصادر في ١٥ يناير ١٨٩٩ نشر اليازجي بابا ثابتا عنوانه «لغة الجرائد»، ولم ينقطع في الأعداد التالية حتى ٣١ يوليو ١٨٩٩. وقبل أن يورد الأخطاء اللغوية، أعاد الاعتبار إلى الصحف، وتأثيرها في مدارك الأمة وأذواقها وآدابها ولغتها، إذ أسهمت في «انتشار صناعة القلم عندنا وتدريب الكتّاب... وإحياء كثير من اللهجة الفصحى بين عامة الكتاب مما آذن بانتعاش اللغة من كبوتها»، وأدى ازدهار الصحافة إلى «طور جديد من الفصاحة وجزالة التعبير... والفضل في ذلك ولا شك عائد إلى هذه الكثرة نفسها بما نشأ عنها من المباراة بين الأقلام»، لولا وجود ألفاظ في غير مواضعها، وبتكرارها وقع «انتشار الوهم والخطأ ولا سيما إذا وقع في كلام من يوثق به فتتناوله الأقلام بغير بحث ولا نكير. ولا يخفى أن الغلط في اللغة أقبح من اللحن في الإعراب وأبعد عن مظانّ التصحيح لرجوعها إلى النقل دون قياس فيكون الغلط فيه أسرع تفشيا وأشدّ استدراجا للسقوط في دركات الوهم... وأصبح كثير من ألفاظ الجرائد لغة خاصة بها تقتضي معجما بحاله». وأعلن الكاتب خشيته على اللغة، إذ يفسدها أنصارها «الموكول إليهم أمر إصلاحها وهو الفساد الذي لا صلاح بعده»، ولهذا سارع إلى التنبيه إلى الأخطاء وتصويبها، ومن الأخطاء التي رصدها:

ـ «أوجبني إلى كذا» خطأ، والصواب: أوجب عليّ كذا.

ـ خطأ أن يقال «انصاع لكذا»، بمعنى أطاع.

ـ «عهد إليه أمر كذا» خطأ أن يكون الفعل متعديا. والصواب: عهد إليه في كذا.

ـ عمل «يقتضي له كذا من النفقة»، بمعنى يجب، خطأ. والصواب أن الفعل متعدٍ بمعنى يطلب، مثل: ما يقتضيه كرمك، أي ما يطالبك به، فتقول: عمل «يقتضي كذا من النفقة».

ـ هذا الأمر «قاصر على»، كفعل لازم، وهو خطأ. والصواب أن هذا الفعل يتعدى: قصرتُ نفسي على كذا/ ألزمتها.

ـ فلان من ذوي «الشهامة»، بمعنى المروءة وعزة النفس، خطأ. فالشهامة هي الذكاء المتوقد، ونفاذ الحكم.

ـ زهرة، غصن، روض «يانع»، بمعنى نضير/ رطب، وهو خطأ. فاليانع هو الأحمر من كل شيء. ويانع صفة للثمر. أما اليانع واليَنيع فيعني الناضج، وأينع: حان قطافه.

ـ «أنعِم بفلان من رجل»، وتعني حرفيا ما أنعمه، نعومة لا نِعْمَ بمعنى المدح. والصواب: نعمَ فلان.

ـ «عصاري»، وقت العصر (عامية).

ـ «أرفقته بكذا، جاء مرفوقا بفلان»، غير دقيق. والأصح: أصحبته الشيء. الرفقة والمرافقة في السفر.

ـ «يخال لي أن»، خطأ. والصواب: يُخيّل إليّ... خالَ يتعدى.. أخال الأمر إخالة: اشتبه والتبس.

ـ «أحطته علما بالأمر»، بجعل الفعل متعديا وهو لازم. الصواب: أحطتُ بالأمر، أحطت به علما.

ـ «حافّة» الوادي. والصواب أن تخفف: حافَة جمعها حافات، وحِيف مثل غادة: غيد.

ـ حميد «النوايا»، نوايا جمع نويّة، الأصح: حميد النيات.

ـ «وريث» فلان، وريث العهد. الصواب: وارث.

ـ «وحش كاسر»، أي ضارٍ. والكاسر لجوارح الطير: عقاب، باز.

ـ حكمٌ أو رجل «صارم»، أي عنيف، فلان من أهل «الصرامة»، أي الشدة. والصرامة تعني الشجاعة.

ـ «اقتصد كذا من المال»، بمعنى استبقى. واقتصد فعل لازم: اقتصد في أمره، والاقتصاد يعني الاعتدال والتوسط. ويمكن القول: وفّرت المال.

ـ رجل «تعيس»، والأدق: تعس، وتاعس. يقال: تعِس، تعَسه أو أتعسه الله إتعاسا، فهو مُتعَس ومتعوس.

ـ «نوّه بالأمر، نوّه عنه» بمعنى التلويح والإشارة. والأدق: الإشادة، «نوّهت به تنويها»: رفعت ذكره وشهرتُه.

ـ «انفرط العقد»، أي انتثر وتبدد. والأدق هو انفراط الأشياء: حب الرمان، عنقود العنب مثلا.

ـ «الضوضاء» يُتوهم تأنيثه، من باب شحناء وبغضاء. والصحيح ضوضاء وزنه فَعْلال: بلبال وزلزال، ويشتق من الضوّة، وهي الصياح والجلبة، وأصله ضوضاو وقلبت الواو همزة لتطرفها بعد حرف الألف.

ـ في حاجة إلى «الكساء»، بمعنى الكسوة وهي مطلق الثياب. أما الكساء فهو ثوب بعينه مثل العباءة الصوفية. وجمع «الكسوة» ليس الكساوى، بل الكُسَى.

ـ «أمعن في الأمر» وأمعن فيه النظر، وتمعن فيه، أي تدبره وتقصى النظر فيه. وهو خطأ؛ لأن الإمعان هو الإبعاد مثل «أمعنت السفينة في البحر» أي أوغلت، وأمعن الطائر إذا تباعد. ويمكن القول: أمعن في الطعام، وأمعن في الضحك.

ـ ذهب الرجلان «سوية». والأصح: ذهبا معا، فالسوية هي العدل.

ـ «احتار» في الأمر، خطأ. والصواب: حار يحار فهو حائر وحيران.

ـ «فوض فلانا بالأمر»، وفي الأمر، وهو خطأ. والصواب: فوّض الأمر إلى فلان.

ـ «نوّطته بالأمر»، أنطته بالأمر، وهو خطأ. والصواب: نُطْت الأمر بفلان، هذا الأمر منوط بك. بلفظ ثلاثي لا غير.

ـ أمر «مريع»، أراعه الأمر، خطأ على وزن أفعل. والصواب: راعه يروعه، وهو أمر رائع.

ـ «أسأت الرجل»، فعلت به السوء، وهو خطأ. والصواب: سُؤْته، وهو خلاف: سررتُه بدون همزة في أوله. أساء خلاف أحسن. أساء، أو أحسن العمل، أو إلى فلان.

ـ أمر «عتيد»، يوم عتيد، أي منتظر. وهو خطأ، والصواب أن العتيد هو الحاضر المهيأ. اعتدّ الأمر أي أعده، وأمر معتَـدٌ وعتيد.

ـ باع «طولى»، وهو مذكر.

ـ عرض له كذا «فاندهش» وانذهل. ولم يحكَ مثال انفعل. والصواب: دهِش، وذهَل.

ـ يسعى «لنوال» بغيته، والنوال هو العطاء. والصواب: لنيل بغيته.

ـ أمره «فصدع بالأمر»، بمعنى أطاع.. ولكن صدع يعني جهر.

ـ «حرمه من الشيء»، والصواب: حرمه الشيء.

ـ «لا يخفاك» أن الأمر كذا، والصواب: لا يخفى عليك.

ـ أمر «يأنفه» الكريم. والصواب: يأنف منه.

ـ أمر «يمس بكرامتي». الصواب: يمس كرامتي.

ـ فعلت كذا «لمساس» الحاجة إليه. والصواب: لمسّ الحاجة، أو لمسيس الحاجة، (مساس، وقتال، فاعَل: ماسَّ، قاتل).

ـ «يؤمل بالحصول» على كذا. والصواب: يؤمل الحصول.

ـ «رمحت» الدابة، أي عدت، ومرمح الخيل ومرماحها. ولا أصل لذلك، والصواب: الدابة «رمحت» أي رفست.

ـ هو «معافٌ» من كذا فأسقطت كلفته، وكذلك «أعافه من الأمر». الصواب: أعفاه من الشيء فهو معفى.. وفي الحديث: تعافوا الحدود في ما بينكم، أي تجاوزوا عنها ولا ترفعوها إليّ.

ـ «انطلت» عليه الحيلة، أي جازت. وليس لها أصل.

ـ عدو «لدود»، وهو «ألد» الأعداء، بمعنى شديد العداوة. والصواب أن اللدود من يغلب في الخصومة: رجل لدود، خصم ألدّ: شديد الخصام لا يذعن للحجة.

ـ «مرت عليه كرور» الزمان، بتأنيث الفعل لتوهم أن الكرور جمع، وإنما هو مصدر كرّ.

ـ «موشك على الموت»، أوشك السقوط، كلاهما خطأ. فعل «أوشك» يليه مضارع منصوب: أوشك فلان أن يفعل كذا، ولا يبنى منه اسم للفاعل.

ـ فعل في «شبوبيته»، والصواب: شبابه، في الشباب والشبيبة.

ـ جاء بعدد «ينوف» على كذا، والصواب: ينيف، من أناف، ويقال أيضا: ينيّف.

ـ «نيّف» وعشرون جنيها. والصواب: عشرون جنيها ونيّف.

ـ جاء فلان «خلوّا» من المال. والصواب: جاء خِلْوا، وتعني خاليا.

ـ بينهما «عدوان»، بمعنى عداوة، ولا يأتي عدوان بهذا المعنى، وإنما هو مصدر عدى عليه: اعتدى.

ـ الأمر «يحدو بي إلى كذا»، أي يسوقني. والصواب أن الفعل يتعدى، لأن أصله حدو الإبل وهو سوقها بالغناء. فيقال: الأمر يدعو إلى كذا.

ـ بينهما «شراكة»، عامية. والصواب: شرِكة.

ـ «أفرغ» المكان والوعاء. والصواب: فرّغ. لأن أفرغ تعني: صبّ.

ـ هو «مدمن على كذا». والصواب: مدمن كذا، لأن الفعل يتعدى.

ـ أصبح الأمر أصلح من «ذي قبل»، أي مما سبق. والمعنى الأدق يشير إلى المستقبل: سأتيك من ذي قِـبَلَ، أي ما يستقبل من الزمان. لقيته من ذي قَبَل وقِبَل.

ـ «هلّ» يناير، «غرّة» أبريل، اصطلاحات تخص الأشهر القمرية. وكذلك: لعشرٍ «خلون» من شهر ديسمبر، فإسقاط التاء من اسم العدد يعني عشر ليال، والأشهر القمرية فقط تؤرّخ بالليالي.

ـ «هاته» بمعنى هذه، وهي غير موجودة في القرآن أو الشعر العربي. توجد لدى بعض متأخري التونسيين، «بل لعلها لم ترد إلا في كتاب خيرالدين باشا المسمى أقوم المسالك».

ـ «خابره» في الأمر، بمعنى فاتحه فيه وفاوضه. والمخابرة في اللغة تعني المزارعة.

ـ «داوله» في الأمر، وتداولا فيه، والأدق: تداولوا الشيء.

ـ «تضرر له»، أي شكا إليه ضرره، ولم يرد في اللغة.

ـ «نقه من علته نقاهة». ولو قصد بها الشفاء فالأدق: نقه من مرضه فهو النقه والنقوه. أما النقاهة فمصدر نقه الكلام إذا فهمه.

ـ فلان من ذوي «الأمجاد»، أي جمع المجد. وليس للمجد جمع على أمجاد. أمجاد جمع مجيد على حد شريف وأشراف ويتيم وأيتام.

ـ جمع مغارة «مغائر». والصواب: مغاور، مثل مفازة مفاوز. لأن حرف المدّ إذا كان أصلا لا يهمز. ومثله قولهم: معائب ومشائخ ومكائد، والصواب بالياء.

ـ هؤلاء قوم «أغراب»، بمعنى جمع غريب، والصواب: غرباء.

ـ عودته «على الأمر». الصواب حذف حرف الجر لأن الفعل يتعدى بنفسه.

ـ طال «المطال»، بمعنى العهد، ولا معنى له.

ـ «فتش على الشيء»، والصواب: عن.

ـ الأمر في غاية «الوضاحة والصراحة»، يقصدون الوضوح.

ـ «وارى الميت التراب»، الأدق: في التراب.

ـ هو «يؤانس من فلان ميلا إليه». الصواب يؤنس؛ لأن أصل الفعل أأنس بهمزتين، وليس آنس على وزن فاعَل.

ـ ليس زيد «ليفعل كذا»، لام الجحود لا تكون في خبر ليس، وإنما في خبر كان المنفية: لم يكن ليفعل.

ـ تم عقد «الزيجة»، وهي عامية على وزن فِعلة، وليس لها أصل.

ـ زُف فلان «على» فلانة، والأصل أن المرأة تُزف إلى الرجل.

ـ أصبح الصباح وأمسى المساء. ولا معنى لهذا التركيب، لا معنى لأن يدخل الصباح في الصباح والمساء في المساء.

ـ بعث «برسول» إلى فلان وبعث إليه هدية. وكلاهما خلاف الصواب، فيقال لما ينبعث بنفسه: بعث رسولا، ولما ينبعث بغيره: بعثت إليه بهدية.

ـ هو في «رفاه» من العيش، والصواب: رفاهة ورفاهية.

ـ «استحس» بالأمر، والصواب: أحس الأمر وأحس به، ويجوز: حسّ.

ـ ذهب «يستفحص» عن كذا، والصواب: يفحص عنه.

ـ «رضخ» له، أي أذعن وانقاد، ولم يرد هذا. وإنما الرضخ كسر الشيء اليابس: رضخ رأس الحية. رضخ له من ماله إذا أعطاه.

ـ رجل «جلود»، أي صاحب جلد، على وزن رحوم وشفوق، وكل ذلك خطأ. والصواب: جليد، رحيم، شفيق.

ـ «أسداه» الشكر على صنيعه، بتعدية الفعل إلى اثنين، والصواب: أسدى إليه معروفا.

ـ «تكدر» من الأمر، أي استاء، وكدّره بمعنى عنفه وقرعه، والأخيرة من استعمال الأتراك، وهذا كله غريب.

ـ بين الدولتين «عهدة»، والصواب: معاهدة.

ـ «أفاض» القول في كذا، أي توسع فيه وتبسط. والفعل لا يتعدى. والصواب: أفاض القوم في الحديث.

ـ هذا أمر «مثبوت»، من تعبيرات العامة. والصواب: ثابت ومثبت.

ـ اعتدوا على «بعضهم البعض»، ظلموا بعضهم البعض. والصواب: اعتدوا بعضهم على بعض، وظلموا بعضهم بعضا.

ـ ثوب «سميك»، السمك في اللغة بمعنى الارتفاع: بنى جدارا سمكه كذا ذراعا.

ـ خرج إلى «المنتزه»، والصواب: المتنزّه. لا أحد يقول: فلان انتزه، وإنما تنزّه.

ـ أدى إليه كذا «لقاء» عمله، والصواب: في مقابل عمله.

ـ «تأمّل» منه خيرا، أي رجاه وتوقعه. والصواب: أمّل وأمل، فالتأمل هو التثبت بالفكر أو بالنظر.

ـ «هل لا يجوز أن يكون الأمر كذا»، هل ليس عمرو في الدار. والصواب استعمال الهمزة.

ـ مكان «واطئ»، وطؤ المكان أي انخفض، ولم يسمع بهذا.

ـ «زرع» الشجرة، أي غرسها. الزرع للحب، ولا يقال للشجرة.

ـ «سارت» به المركب، عجيب هذا التأنيث.

ـ تناول «طعام الغذاء»، يقصدون الغداء وليس مطلق القوت.

ـ فلان «قبيح الفعائل»، يقصدون جمع فعل أو فعال وكلاهما لا يجمع.

ـ «انشغل» عنه، ولم يرد وزن انفعل. والصواب: شُغِل عنه.

ـ هو شاعر بليغ «ناهيك» عن شجاعته، أي فضلا عن شجاعته، ولا تستعمل ناهيك بهذا المعنى.

ـ «أمكن له» أن يفعل كذا. يعدونه باللام، وهو متعدٍ بنفسه. الصواب: أمكنته (مكّنته) من كذا.

ـ أزوره «رغما عن» هجره لي، تعريب حرفي فلا معنى للرغم هنا. الصواب: أزوره مع هجره لي، أو: على هجره لي.

ـ «لما يجيئك» زيد أكرمه. لما تدخل على الماضي لا المضارع. والصواب: إذا جاءك زيد.

ـ افعل هذا «ولئن» كلفك المشقة، والصواب: وإن كلفك.

ـ «لا يجب أن تفعل كذا»، والصواب: يجب ألا تفعل كذا. فرق بين نفي الوجوب فيبقى الفعل جائزا، ووجوب النفي.

ـ لا آتيك «ما زلت» حيا، يقصد: ما دمت حيا.

ـ «لا زال» زيد يفعل كذا، ويقصدون: ما زال. «لا» لا تدخل على الماضي إلا مع التكرار: لا صدّق ولا صلى، أو العطف على منفي: ما زرت زيدا ولا زارني.

ـ «إذا لا سمح الله حدث كذا»، إن لا سمح الله حدث كذا. يفصلون بين إذا وما أضيفت إليه وبين إن وشرطها. وكلاهما لا يجوز، والصواب تأخير الجملة المعترضة.

ـ «قلت له أن يفعل كذا». أن لا تقع بعد لفظ القول. والصواب بلام الأمر: قلت له ليفعل. ويمكن حذف اللام وإبقاء الفعل مجزوما أو مرفوعا.

ـ لا يخفى «بأن الأمر» كذا، يسرني بأن يكون فلان كذا. وليس لوجود الباء داع.

ـ هنأ القادم «بسلامة» الوصول، يقصدون «بوصوله سالما». ولا يخفى هنا فاسد التعبير الذي يفيد إثبات السلامة للوصول لا للقادم، والوصول لا يوصف بكونه سالما أو غير سالم.

ـ «تعذّر عن الأمر»، أي امتنع عليه وعجز عنه، والصواب: تعذّر عليه الأمر.

ـ «استلف» منه سُلفة، ولم يرد اللفظ في اللغة، وهو شائع في مصر. ويقال: تسلّف، أي اقترض.

ـ «رغب الشيء»، يعدونه بنفسه، والصواب رغب فيه.

ـ طلب «الحظوى». والصواب: الحظوة.

ـ سرتني «رؤياك». والصواب رؤيتك.

ـ السيد مفرد والجمع سادة، وأما «أسياد» فهي عامية.

ـ جاءوا «عرايا»، جمع عريان، والصواب: عريانون وعريانات.

ـ أصبحوا يشكون الجوع و«العراء»، والصواب: العُرْي.

ـ «غليتُ» الماء، والفعل لازم، فيكون: غلى الماء، وأغليته إغلاء.

ـ «أجله في الأمر إلى بعد كذا»، وبقيت عنده إلى قبل المغرب. إلى لا تدخل من الظروف إلا على متى وأين وحيث. والصواب: إلى ما بعد، وإلى ما قبل.

ـ «والأعجب من ذلك أن الأمر كذا وكذا». إلى ومن لا تجتمعان مع أفعل التفضيل، والصواب حذف إحداهما: «والأعجب أن الأمر كذا».

ـ هؤلاء «أخصامي»، والصواب: خصومي جمع خَصْم.

ـ هم «خصماء» فلان، والخصماء جمع خصيم، بمعنى شديد الخصومة. والصواب: هم خصوم.

ـ «أجّر المنزل» أي اكتراه، يعكس المعنى؛ فالتأجير يكون من المالك: أجرتُ المنزل فاستأجره.

ـ «صادق» المجلس على كذا، بمعنى أقرّه ووافق عليه. وإنما يقال صادقته من الصداقة.

ـ «صدق عليه» تصديقا، فالتصديق خلاف التكذيب. وليس صوابا أن تقول: صادق وصدّق.

ـ «صرح» له أن يفعل، بمعنى أذن له. ولم يأت «صرح» في شيء من هذا.

ـ «أشّر على الصك»، أي رسم عليه علامة تفيد التوقيع، مأخوذ من الإشارة على توهم أصالة الهمزة، وهي عامية. والصواب: وقع الصك.

ـ «لم يوشك» أن حلّ هذا المحل، خبر أوشك لا يكون إلا فعلا مضارعا. والصواب: لم يلبث أن..

ـ «سهي الشيء عن باله»، عاميّ، فيه غلطتان إحداهما إخراج «سها» إلى باب علم وصوابه من باب نصر، والثانية إسناده إلى الشيء. وإنما يقال: سهوت عن الشيء، ولا يقال سها الشيء عني.

ـ «أرجو إليه» أن يفعل. والصواب أرجو منه.

ـ «لا يصلح أن يؤخذ حجة طالما» أن كذا. والصواب: ما دام كذا. لأن «طالما» ظرف من قبيح أغلاط العامة.

ـ «لا يحق سوى للإله»، هنا فصل بين سوى وما أضيفت إليه باللام. والصواب: لا يحق لسوى الله، إلا لله.

ـ «ينبغي أن تفعل كذا»، بمعنى يجب. والصواب أن تقول: يصلح، يجوز، يتيسر. وأصل الفعل هو بغي الشيء بمعنى طلبه، دائما مضارع موصول باللام: لا الشمس ينبغي لها، وما علمناه الشعر وما ينبغي له.

ولكن اليازجي نفسه سها عن استخدام فعل «ينبغي»، فجاء بمعنى يجب في قوله «وهذا ولا ريب من جملة الآفات التي ينبغي تلافيها». راجع الفقرة الرابعة، ليتأكد لك كم كانت اللغة عصيّة، ولا تزال.

أوراق المؤسسة

تقرير عن عمل مؤسسة ياسر عرفات

مجلس الإدارة

عقد مجلس إدارة المؤسسة منذ بداية العام حتى تاريخه اجتماعين هما الخامس والأربعون في ٢٠٢٠/٥/٥ والسادس والأربعون في ٢٠٢٠/١٠/٥ عبر تقنية زوم بسبب جائحة كورونا. ونوقش في الاجتماع الخامس والأربعون موضوع ترحيل الاجتماع الثالث عشر لمجلس الأمناء إلى نهاية فبراير ٢٠٢١مع بقاء الوضع قانونيا على ما هو عليه في ما يتعلق برئاسة ونيابة الرئاسة في مجلسي الإدارة والأمناء كذلك رؤساء اللجان بسبب حالة الطوارئ لحين عقد الاجتماع في الموعد الذي تم اقراره. كما تم الحديث عن مشاريع وأنشطة المؤسسة تحديدا الزيارة الافتراضية للمتحف واستمرار العمل بملكية اراضي لاجئي فلسطين. كما تم التباحث حول ضرورة اقتراح اسماء جديدة لمجلس الأمناء حيث أن عدداً من الأعضاء وافتهم المنية (رحمهم الله). وقام أعضاء مجلس الإدارة في الاجتماع السادس والاربعين باقرار فعاليات إحياء الذكرى السادسة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس تحت شعار البعد العربي لفلسطين، ومن خلال الجمع بين النقل الالكتروني (زوم) والنقل التلفزيوني (تلفزيون فلسطين ومنه إلى قنوات اخرى) واعتماد الشعار لهذا العام "فلسطينية القلب عربية العمق، واعتماد الملصق واللوحات الإعلانية والبرنامج بتفاصيله. وتم التأكيد على ضرورة المشاركة العربية هذا العام من قبل بعض أعضاء مجلس الإدارة منهم الاستاذ الياس خوري ود. ممدوح العبادي. وتم أيضا اعتماد قرار لجنة الجائزة بالتوصية لمنح الجائزة لهذا العام لكل من الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف) والرفيق نايف حواتمة سوية.

فعاليات إحياء الذكرى السادسة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس

أ - إحياء الذكرى السنوية

أحيت مؤسسة ياسر عرفات الذكرى السادسة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس يوم الثلاثاء الموافق ٢٠٢٠/١١/١٠ عبر تقنية زوم ومباشر عبر تلفزيون فلسطين وفضائية معا، وفضائية القدس التعليمية وأخرى من قصر رام الله الثقافي التزاما بالاجراءات الوقائية لجائحة كورونا. بدأ الحفل بالنشيد الوطني الفلسطيني وأيات من الذكر الكريم. وتحدث بالفعالية د. ناصر القدوة، رئيس مجلس الإدارة ود. محمد اشتية، رئيس الوزراء. وتخلل الحفل تسليم جائزة ياسر عرفات للإنجاز لكل من فاروق القدومي ونايف حواتمة سوية. وعرض فيلم بعنوان «عربية العمق» من اخراج سوسن قاعود. وانهيت الفعالية بأغنية للشاعر الراحل أحمد دحبور «في وداع الرجل الكبير» من تلحين اياد الستيتي وغناء منذر الراعي.

ب- الملصقات وتوزيعها على كافة المواقع

قامت المؤسسة بطباعة ١٥٠٠٠ ملصق في الضفة الغربية و١٠٠٠٠ ملصق في غزة تحت شعار «فلسطينية القلب...عربية العمق»، وهي تأكيد على مركزية القضية الفلسطينية بالعمق العربي بالإضافة إلى لوحات إعلانية تحمل نفس التصميم. ويحتوي تصميم الملصق على صورة الرئيس ياسر عرفات وخلفه خريطة الوطن العربي وتمثل حدود الدولة علمها الرسمي. وتم توزيع الملصقات على عدد من المواقع من خلال التعبئة والتنظيم لحركة فتح والأقاليم والمؤسسات والنوادي والمدارس والجامعات والكليات. كما تم ارسال الملصق لسفاراتنا وأقاليمنا في الخارج لاستخدامه في فعاليات احياء الذكرى هناك.

ج- مراسم وضع الأكاليل على ضريح القائد المؤسس

نظمت المؤسسة، كما جرى في السنوات الماضية، مراسم رسمية لوضع الاكاليل على ضريح

القائد المؤسس في ذكرى استشهاده السادس عشر يوم الأربعاء الموافق ٢٠٢٠/١١/١١. وبدأت المراسم بإكليل الرئيس محمود عباس وضعه رئيس الوزراء د. محمد اشتيه، وتلاه أعضاء من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينة، ثم أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح ومن ثم مجاس إدارة وطاقم المؤسسة وتلاه وضع أكاليل لأحزاب سياسية، والسفارات، والاتحادات ومنظمات المجتمع المدني.

مسابقة المعرفة الوطنية ٢٠٢٠/٢٠١٩

قامت مؤسسة ياسر عرفات وبالشراكة مع وزارة التربية والتعليم للعام الثالث على التوالي، بتنفيذ مسابقة المعرفة الوطنية التي انطلقت في نوفمبر ٢٠١٨ رغم انقطاعها لبعض الوقت في هذا العام بسبب جائحة كورونا.وتتمحور المسابقة كما جرت العادة حول أهم الأحداث التي مرت بالقضية الفلسطينية خلال نحو مائة عام من الصراع. وتم اعتماد رواية متحف ياسر عرفات كمرجع اساسي. وتجدر الاشارة أن الفئة المستهدفة هي الصف العاشر.

وتقسم المسابقة إلى ثلاث مراحل: في مرحلتها الأولى جرت المسابقة بين نحو ١٠٠ ألف طالب موزعين على مديريات التربية والتعليم في كافة محافظات الوطن، ومثّل كل مدرسة ثلاثة من طلابها أو طالباتها منها ١٨ مدرسة للمرحلة الثانية، التي جرت تصفياتها في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات وتكونت من ٨ حلقات وتأهل من هذه المرحلة ٦ مدارس.

أما المرحلة الاخيرة وهي مرحلة التصفيات فقد حصلت مدرسة الشهيد يزن الثانوية للبنات من مديرية التربية والتعليم شمال الخليل على المركز الأول في المسابقة هذا العام وفي الحلقة الختامية التي جرت يوم الخميس الموافق ١٢/١١/٢٠٢٠ في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات. كما حصلت مدرسة فاروق الفرا الثانوية للبنات من مديرية التربية والتعليم في خان يونس على المركز الأول مكرر في المسابقة وحازت مدرسة ذكور الظاهرية الثانوية من مديرية التربية والتعليم جنوب الخليل على المركز الثاني ، كما حصلت مدرسة ذكور سيريس الثانوية من مديرية التربية في قباطية على المركز الثالث.

وسلمت جوائز للفرق الفائزة على النحو التالي: الجائزة الأولى وهي عبارة عن جهاز «لاب توب» عالي المواصفات ومبلغ أربعمائة دولار نقداً، لكل من الطالبات الثلاث من مدرسة الشهيد يزن الثانوية للبنات كونها حصلت على المركز الأول في الضفة، ونفس الجوائز لطالبات مدرسة فاروق الفرا (الأول مكرر) في قطاع غزة. أما الجائزة الثانية فهي عبارة عن جهاز "آيباد" عالي المواصفات ومبلغ ثلاثمائة دولار نقداً لكل من الطلاب الثلاثة من مدرسة ذكور الظاهرية الثانوية. وأخيرا الجائزة الثالثة وهي عبارة عن جهاز "تابلت" عالي المواصفات ومبلغ مائتي دولار لكل من الطلاب الثلاثة من مدرسة ذكور سيريس الثانوية.